كيف تكتب على طريقة تشيخوف!

مكتبة

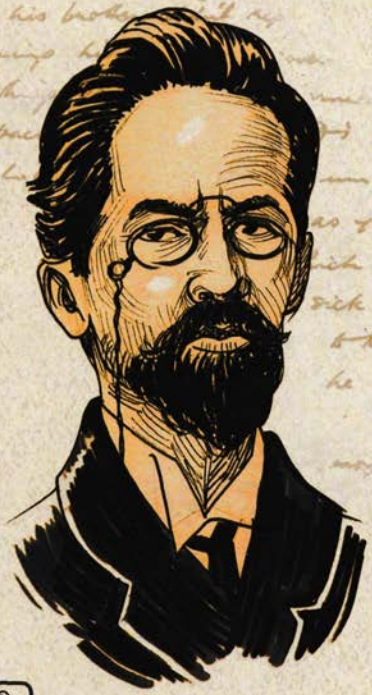

إعداد وترجمة

حبيب زريق

منشورات حياة

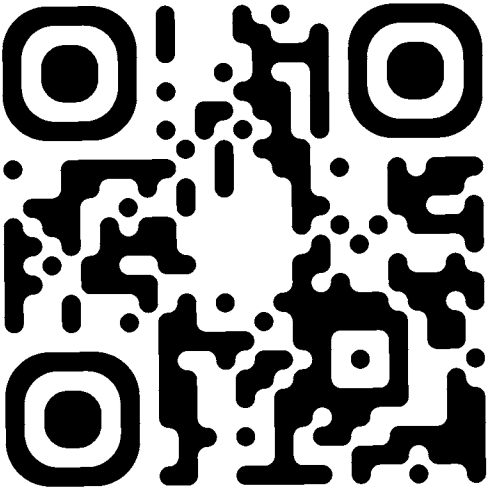

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

كيف تكتب على طريقة تشيخوف

الكتاب: كيف تكتب على طريقة تشيخوف

العنوان الأصلي: How to Write Like Chekhov

المؤلف: أنطون تشيخوف

الترجمة: حبيب زريق

التدقيق اللغوي: أحمد مدره

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

تصميم الغلاف: عبد الفتاح بوشندوقة

عدد الصفحات: 282

الترقيم الدولي: 978 - 1 - 998800-30 - 8

الطبعة الأولى: 2025

جميع الحقوق محفوظة

منشورات حياة

يمكن شراء إصداراتنا من المتجر الإلكتروني:

hayat-publishing.com

مكتبة

t.me/soramnqraa

كيف تكتب على طريقة تشيخوف

نصائح وقبسات من صميم رسائل
الأديب الروسي أنطون تشيخوف وأعماله

مكتبة
t.me/soramnqraa

إعداد وترجمة

حبيب زريق

«إلى الطريقة والطريق،

إلى رفاق الدرب، وأشجاره، وفيافيه

وإلى روح أبي الشاعر محمد منذر زريق»

وُلِد أنطون تشيخوف في عام 1860 في تاغانروغ، وهي ميناء على بحر آزوف. كان والده صاحب متجر، وابن فلاح اشترى حريته وعائلته من رِق القِنانة. بدأ تشيخوف بكتابة القصص القصيرة عندما كان يدرس في جامعة موسكو. وبعد تخرُّجه في كلية الطب، اعتنق كلا المهنتين: الطب «زوجة شرعية»، والأدب «عشيقة» له. وبينما ظل يكتب القصص القصيرة، أصبح تشيخوف مهتمًا بالمسرح أيضًا، وبدأ بكتابة المسرحيات في مرحلة مبكرة من مسيرته المهنية. وقد أُنتِجت مسرحية «النورس» عام 1896، وهي أول مسرحية ناجحة له تُعرض بمدتها الكاملة، ثم تبعتها مسرحيتا «العم فانيا» و«الأخوات الثلاث». ثم ظهرت مسرحية «بستان الكرز» في عام 1904، وتُوفِّي تشيخوف في السنة نفسها بعد معاناة من مرض السل، عن عمر ناهز 44 عامًا.

أما عن المحرر بييرو برونيلُّو فهو أستاذ التاريخ الاجتماعي في جامعة ڤينيس (البندقية) بإيطاليا.

المحررة والمترجمة لينا لينتشيك أستاذة اللغة الروسية والإنسانيات في كلية ريد ببورتلاند، أوريغون في الولايات المتحدة، وهي مؤلفة ومحررة مشاركة لأكثر من دَزِّينة من الكتب، من بينها «الشاطئ: قصص على الرمل والبحر» «Beach: Stories by the Sand and Sea»، وقد قدمت حديثًا شرحًا لطبعة جديدة من رواية تولستوي «الحرب والسلم»، وتقيم في بورتلاند، أوريغون.

إلى أبي، رادو ل. لنتشيك وأختي بيبي

ل. ل.

«في الكتابة، ليس الرأس هو الذي يؤدي العمل، بل المقعد».

رادول. لنتشيك (1921 - 2005)

توطئة مكتبة
t.me/soramnqraa

أول ما ظهر هذا الكتاب إلى النور كان على شكل مجلدين إيطاليين، «بلا حبكة، ولا خاتمة» و«حذاء جيد ودفتر ملاحظات»[1]. وتجمع النسخة الإنجليزية هذه[2] مادة المجلدين بين دفتي كتاب واحد، وهو أمر منطقي لسببين؛ الأوّل: تقديم للقارئ وصولًا مباشرًا إلى شذرات أنطون تشيخوف في حكمة الكتابة على شكل نصائح مكنونة في مراسلاته، والثاني: توفير أمثلة على هذه النصائح من الممارسة العملية، على شكل مقتطفات من مذكرات أسفاره الواقعية المنشورة باسم «جزيرة سخالين»[3].

---

(1) Anton Cechov, *Senza trame e senza finale: 99 consigli di scrittura*, ed. Piero Brunello, trans. Gigliola Venturi and Clara Coïsson (Rome: Minimum Fax, 2002); Anton Cechov, *Scarpe buone e un quaderno di appunti: Come fare un reportage*, ed. Piero Brunello, trans. Nadia Caprioglio and Giovanna Spendel (Rome: Minimum Fax, 2004).

(2) المُترجَمة هنا إلى العربية (المترجم).

(3) A. P. Chekhov, *Ostrov Sakhalin: (Iz puteviykh zapisok) Polnoe sobranie sochinenii i pisem, Sochineniia*, vols. 14 – 15 (Moscow: Izdatel'stvo "Nauka," 1978).

في اللغة العربية، الترجمة المستخدمة للعنوان: «جزيرة سخالين». وقد أمضى تشيخوف أربعة أعوام على مشروع سخالين الخاص به؛ فبعد إجراء بحث تمهيدي موسع في سان بطرسبرغ وموسكو، انطلق باتجاه المستعمرة الجزائية القيصرية في 21 نيسان 1890، وعاد في 9 كانون الأول من العام نفسه. كان على أرض سخالين من 11 تموز حتى 30 تشرين الأول. وقد نشر كتابه "جزيرة سخالين: ملاحظات سفر في 1895. ل. ل"

أما الملاحظات التي استُخدِمت دوريًّا لتوسعة النص الأساسي فقد كتبها بييرو برونيلو (ب. ب.) وأنا (ل. ل.)، وتوجد في الباب الثاني، «حذاء جيد ودفتر ملاحظات»، نحو دزينة من هذه الملاحظات قدَّمها تشيخوف نفسه (أ. ت.)، وقد ظهرت تلك الملاحظات المنسوبة إليه في الأصل على شكل ملاحظات لكتاب «جزيرة سخالين».

لينا لنتشيك

مقدمة بييرو برونيلّو

يقدم هذا الكتاب نصائح أنطون تشيخوف عن كيفية الكتابة. وهو يهدف إلى نقل إرشادات تشيخوف إلى من يريد أن يصير كاتبًا جيدًا، ونقدمه على أمل أن تكون هذه الإرشادات مفيدة -بطرق مختلفة- لكل من الكتَّاب المبتدئين والكتَّاب المحترفين ذوي الخبرة على حد سواء. إن اقتراحات تشيخوف المفصلة تستقي كثيرًا من خبرته الخاصة، سواء بصفته كاتب قصص قصيرة، أو مسرحيات، أو قصص طويلة، أو كتابات غير روائية، أو بصفته قارئًا ضليعًا للنصوص الأدبية. جرَّب تشيخوف عبء العزلة الذي يرافق الكتابة، والحاجة الملحة إلى الكتابة، واللدغة المحبطة التي يشعر بها عندما يُستقبَل أحد نصوصه استقبالًا باردًا.

بدأ كتاب «كيف تكتب على طريقة تشيخوف» على شكل تجميعة للنصائح التي اقتطفتُها على فترة من الزمن من أعمال تشيخوف لمساعدتي في الكتابة. وقد خطر لي ذات يوم أن ما قاله هذا الكاتب العظيم عن الموضوع قد يكون مفيدًا لآخرين أيضًا. تذكرت، مثلًا، أن ريموند كارفر -الذي درَّس مادة الكتابة الإبداعية لكثير من السنوات إلى جانب كتابة القصص القصيرة والقصائد- كان يعزو إلى تشيخوف «تأثيرًا مهولًا» على أعماله هو نفسه، وأنه

هو أيضًا قد ردَّد دروس تشيخوف: الالتزام «باللغة البسيطة دون أن تخلو من الدقة»، ورفض «الكلمات المثقلة بالعواطف غير المسيطر عليها»، وتقديم «شهادات عيان جادة عن حيواتنا»، وتذكُّر أن النقاد «يمكنهم تخفيف وطأة الشعور بالعزلة» التي يشهدها من يكتب[1]. وبذلك وُلِدت فكرة الكتاب، وهو يتمحور حول عدة موضوعات.

الباب الأول: «بلا حبكة، ولا خاتمة»، تكاد مكوناته تنحصر في مواد مأخوذة من مراسلات تشيخوف المطولة بين عامي 1886 و1902، وكثير منها كان مع محررين، وكتَّاب، وأقرباء، وأصدقاء ممن أصابتهم عدوى الكتابة. وقد أُغرِق تشيخوف بالمخطوطات وطلبات التعليق على كتابات الآخرين الذين استغلوا شهرته بأنه سخي بوقته وطاقته. وقد أُورِدت هنا مقتطفات من ردوده ورُتِّبت ضمن أبواب مصنفة حسب أنواع الأسئلة التي تشغل بال كل كاتب: أسئلة عامة عن دوافع الكتابة، والجمهور، والموضوعات، والأسلوب، والتوقيت، ونطاق التناول؛ وموضوعات محددة كالحقيقة، والوصف، والشخصيات، والعواطف، وما ينبغي تجنُّبه، وكيفية التعامل مع الزملاء الكتَّاب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) Raymond Carver, *No Heroics, Please: Uncollected Writings* (New York: Vintage, 1992), and *What We Talk About When We Talk About Love: Stories* (New York: Vintage, 1989).

بعد تقديم النظرية في الجزء 1، والجزء 2، يتخذ باب «حذاء جيد ودفتر ملاحظات» منهجًا مختلفًا، وهو الشرح بالأمثلة الملموسة المأخوذة بأكثرها من مذكرات أسفار تشيخوف الواقعية «جزيرة سخالين». لقد مضى تشيخوف في هذا الطرح الاستثنائي لنظام العقوبات القيصري، والذي بدأ على أساس كونه أطروحة الدكتوراة الخاصة به في الطب –وإن لم يكن قد استُخدِم لهذا الغرض في ما بعد– على نهج الروح العلمية لكلود برنارد، عالم فيزيولوجيا القرن التاسع عشر الذي جعل الشك الفلسفي الأداة الأساسية للباحث الطبي. «يجب على المُجرّبين أن يشكوا»، وفقًا لما كتبه برنارد في كتابه الرائد «مقدمة لدراسة الطب التجريبي»، وأن «يتجنبوا الأفكار الثابتة، ويحافظوا دائمًا على حرية عقولهم»[1]. وعلى الكتّاب أن يفعلوا المثل.

لم يقدم تشيخوف في «جزيرة سخالين» كثيرًا من العبارات الصريحة عن المنهجية، واستعاض عن ذلك بأن اقتصر في ما ندر على بعض الهوامش التي تشكك في صحة الإحصاءات –مثلًا– أو التقارير الرسمية. عمومًا، هو يثق بما يُقال له. وقد جمع في ملاحظات السفر الخاصة به، ورسومات الشخصيات، وأوصاف المناطق، التي يزورها، معلوماتٍ ملموسة تشمل البيانات الديموغرافية، وجداول

(1) Claude Bernard, *An Introduction to the Study of Experimental Medicine*, trans. Henry Copley Green (New York: Dover, 1957), p. 35.

الأرصاد الجوية، والإحصائيات الطبية والخاصة بالجرائم. كذلك لم يقل تشيخوف شيئًا يُذكَر عن الكتابة. ولكن يمكن للمرء مع انكشاف السرد أن يشعر بعقل تشيخوف المُمحِّص وهو يغربل ويزن ويقيس الإشاعات في مقابل المعرفة المباشرة، وهو يلتزم الصمت في الأمور التي تمس فنه. وقد شكّل هذا الصمت تحديًا لي؛ إذ كنت أتمنى تحديدًا استخلاص الدروس الصريحة من النص. ولفعل ذلك، سعيت أولًا إلى فهم ما كان تشيخوف يفعله خلال رحلته، وثانيًا إلى تقديم الأحداث والحكايات التي يرويها كنصائح، نظرية كانت أم عملية.

لقد قررت ترتيب هذه النصائح بطريقة توضح كل مرحلة من مراحل إنشاء مخطوطة غير روائية؛ إذ أبدأ بمفهوم الفكرة والمهام الابتدائية، وهي التحضير بقراءة الموضوع مسبقًا، وتأطير الأسئلة، والتأمل في التساؤلات؛ ثم أنتقل إلى العمل الميداني، بما فيه من استراتيجيات بحث ومناورات لجمع البيانات؛ وأخيرًا، ألتفت إلى إنتاج المخطوطة نفسها: ترتيب الملاحظات والمستندات، ثم عملية الكتابة الفعلية، من ثم إخراج النص المكتمل إلى العالم. وقد قسَّمت هذه العملية إلى ثلاثة أقسام: «المشروع»، و«التقرير»، و«الكتابة الفعلية». وتحت كل باب منها، أسرد عددًا من الخطوات المهمة تحت عنوان يضمها، وأورد شرحًا مختصرًا للمبدأ أو «الدرس» المستفاد من نص تشيخوف. فالفكرة هنا في إعطاء القراء مثالًا ملموسًا عن كيفية تطبيق النصيحة، وذلك بناءً على فرضية أن أفضل سبيل لإتقان أسلوب ما هو تمثيله بنموذج واضح للعيان.

المحتوى، الذي يتناول «سخالين»، مُوجَّه خصوصًا إلى الكتَّاب المهتمين –مثل تشيخوف نفسه– باكتشاف المجهول واستكشافه وفهمه. إن طريقة عمل رحلته الاستكشافية ليست مفيدة للكتَّاب الذين يقومون برحلات طويلة ويريدون الكتابة عنها وحسب، بل كذلك لأولئك الذين يريدون فهم الحياة دون أن يبتعدوا كثيرًا عن أوطانهم. إن نثر تشيخوف نموذج للكتَّاب الذين يولون اهتمامًا أكثر «بما يحدث في لحظة تنهُّد، في التقاء نظرتين، في لحظة تشوُّق، عندما يكون كل شيء واضحًا وغامضًا في آن معًا». هذه كلمات الصحفية الإيطالية فرانشيسكا سانفيتالي، قالتها في إشارة إلى عمل كاثرين مانسفيلد، وهي كاتبة تشترك مع تشيخوف في نظرته تجاه «اليقين المستقل للعالم الخارجي، والاضطراب في التدفق المستمر للحياة»، واعتقدت أن «جمال الحياة يكمن في مظهرها المتعدد الألوان»[1]. أُعجِبت مانسفيلد –ككثير من الكتَّاب الحداثيين– بفضول تشيخوف الذي يبدو متفردًا بغرابة، وقد كتبت بهذا الخصوص في رسالة لها في عام 1921: «يراقب الفنان الحياة عن كثب. ويقول بهدوء، «إذن، هذه هي الحياة، أليس كذلك؟» ثم يقعد ليحاول التعبير عنها»[2].

(1) Sanvitale, "Postfazione," in Katherine Mansfield, *Lettere e diari: Pagine scelte*, ed. C. K. Stead (Milan: Mondadori, 1981), p. 395.

(2) Katherine Mansfield, *The Letters of Katherine Mansfield* (New York: Alfred A. Knopf, 1936), p. 204.

بالنسبة إلى تشيخوف، لا يمكن أن يتناقض الفعل والمشاهدة: لأن المشاهدة -الموضوعية والدقيقة والمأخوذة بذهن مفتوح واحترام عميق- بالنسبة إليه هي بحد ذاتها أكثر أشكال الفعل أملًا وإنتاجية. يدرك الكتّاب المعاصرون -كالإيطالية ناتاليا غينزبورغ (1916 - 1991) مثلًا- هذا التوازن الدقيق بين «انخراط» المثقف الملتزم تجاه المجتمع و«لا انخراط» المراقب باعتباره «ضروريًا بالمطلق، ولا غنى عنه بالنسبة إلى الروائي»[1].

يُقال إن الراقصين لا يتعلمون من مشاهدة معلمهم أو أفضل زملائهم في حصة الرقص، بل من خلال تقليد مَن بالكاد يتفوقون عليهم بعض الشيء. والأمر ذاته ينطبق على الكتابة. وأنا وإن لم أعرف كيف ينجح ذلك، فإنني أعرف وحسب أن المرء يتعلم من تشيخوف. وربما كان ذلك -كما اقترح فلاديمير نابوكوف- بسبب «ألفته الاستثنائية» أي «استعداده الدائم لمخالطة أي شخص على الإطلاق؛ للغناء مع المغنين، والشرب مع السكارى»[2]. وتظهر هذه الروح الاجتماعية حتى في مجموعة المقتطفات المأخوذة من برنامج البحث والكتابة الذي استخدمه تشيخوف في التحقيق في

(1) Natalia Ginzburg, È difficile parlare di sé: Conversazione a più voci condotta da Marino Sinibaldi, ed. Cesare Garboli and Lisa Ginzburg (Torino: Einaudi, 1999), pp. 191–92.

(2) Korney Chukovsky, quoted in Vladimir Nabokov, *Lectures on Russian Literature*, ed. Fredson Bowers (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1981), p. 247.

مستعمرة مساجين تقع على جزيرة نائية في بحر أوخوتسك. فبروح الزمالة البهيجة هذه، نقدم هذا الكتاب، آملين في أن يكون دليلًا مفيدًا بإمكانه حتى أن يؤنس بعض الشيء عزلةَ الراغبين في الكتابة، والذين يحبون أن يخوضوا غمار الرحلات بشيء من المسؤولية، والذين يُعلون شأن الكتابة الدقيقة، والصادقة، والملتزمة.

مقدمة لينا لينتشيك

«تكفي الإنسان سبعة أقدام من الأرض».
«لا، بل الجثة هي التي تكفيها سبعة أقدام، لا الإنسان.
أما الإنسان فيحتاج إلى العالم بأسره».

ـ أنطون تشيخوف[1]

من بين المؤلفين الروسيين في القرن التاسع عشر، يمتلك أنطون تشيخوف الرقم القياسي في أسوأ المُروِّجين. وذاك أن الكتَّاب والنقاد والأصدقاء، الذين عبَّروا عن الإعجاب اللامحدود بأعماله، وصموه بنوع من المديح يشين السمعة. وإليكم بعض الأمثلة: «كان تشيخوف شاعر اليأس؛ إذ لم يكن تشيخوف يفعل -بكل عناد، وكآبة، ورتابة- طيلة سنوات نشاطه الأدبي، التي امتدت لنحو

(1) أنطون تشيخوف، «Zapisnye knizhki: knizhka pervaja" («دفاتر ملاحظات: الدفتر الأول»)، *Sobranie Sochinenii*، المجلد10، (Moscow: Khudozest-vennaia literatura, 1963)، ص. 482 [عن ترجمة: ل. ل.]. يحتج تشيخوف هنا ضد الموقف المناهض للمادية الذي عبَّر عنه ليو تولستوي في حكايته «كم يحتاج الإنسان من الأرض؟» انظر: Tolstoy, *How Much Land Does a Man Need?* *and Other Stories*, intr. A. N. Wilson, trans. Ronald Wilkes (London: Penguin, 1994).

ربع قرن، سوى شيء واحد فقط: كان يقتل آمال البشر بأي وسيلة ممكنة»[1]. وهاكم مثالًا آخر، كتبه شريكه في المسرح كونستانتين ستانيسلافسكي: «إن مزاج تشيخوف هو ذلك الكهف الذي يخبئ كل كنوز روح تشيخوف الخفية والتي بالكاد يمكن ملامستها»[2]. أما مكسيم غوركي، الذي دان بكثير من الفضل لتشجيع تشيخوف الدؤوب وتوجيهاته، فقد أتى بالتالي: «يُظهِر عقل المؤلف... بتفصيل واضح الطرقَ الرتيبة، والشوارع الملتوية، والبيوت الصغيرة القذرة التي يختنق فيها الحقيرون البائسون بالملل والكسل، ويملؤون المنازل بصخب كسول لا يمكن تمييز شيء منه»[3]. وقد أصر النقاد السوفييت والسابقون للثورة على إظهار تشيخوف بصورة المخدر الجمالي، واصفين إياه بأنه «منشد الشفق»، و«شاعر الهامشيين»

(1) Lev Shestov, *Anton Tchekhov and Other Essays* (Maunsel & Co., 1916).

(2) Constantin Stanislavsky, *My Life in Art* (Theater Arts Books, 1924).

(3) Maxim Gorky, *Reminiscences of Anton Chekhov* (B. W. Huebsch, 1921).

و«موهبة مريضة»، و«شاعر الكرب»، وصوت «أسى العالم» و – ربما أدق هذه الأوصاف– «المتفائم»[1][2].

إن مغامرتي بدخول جزيرة تشيخوف الكئيبة رغم مقدمة كهذه –حشر معظمها على ظهر كتاب بغلاف ورقي مقرف ملون بالأحمر القاني وأخضر الأفوكادو– أمر لا يزال يدهشني. كنت في الثامنة عشرة من عمري، وقد شققت طريقي عبر أرخبيل من الكتّاب الروس، من بوشكين إلى تولستوي، وقد كانت كل محطة حتى تلك اللحظة بمنزلة إشراقة وحي. لقد أحببت أسلوب نحّاتي الكلمات وسادة الحبكات في أسر لبي، وسبر جوف قلقي المراهق حتى نخاعه، وتقديمهم إجابات على أعمق أسئلتي عن سبب كون العالم على ما هو عليه. من

---

(1) نحت من المتفائل والمتشائم. (المترجم)

(2) تعود هذه التوصيفات، على التوالي، إلى كل من: مؤرخ الأدب د. س. ميركسي («منشد الشفق»، و«شاعر الهامشيين»)، والناقد الأدبي الشعبوي ن. ك. ميخائيلوفسكي («موهبة مريضة»، و«شاعر الكرب»)، و يو. ألكساندروفيتش (الاسم المستعار للناقد أ. ن. بوتيرياخين) (صوت «أسى العالم»)، واللاهوتي سيرغي بولغاكوف («المتفائم»). انظر أيضًا: Nina Toumanova, *Anton Chekhov: The Voice of Twilight Russia* (New York: Columbia University Press, 1937). اكتشفت في ما بعد أن تشيخوف كان بمقدار القسوة نفسه في تقدير زملائه الروسيين. وقد كتب لمحرره سوفورين في عام 1889: «يعيش الكتّاب الروس في أنابيب الصرف، ويأكلون الديدان، ويمارسون الحب مع الساقطات وعاملات الغسيل. لا يعرفون شيئًا عن التاريخ، ولا الجغرافيا، ولا العلوم الطبيعية». أنطون تشيخوف إلى أليكسي سوفورين، 15 أيار 1889، في: Anton Chekhov, *Perepiska A. P. Chekhova*, available at: *http://www.dushu.com.ua/*. وتأتي الاقتباسات اللاحقة من مراسلات تشيخوف من المصدر نفسه، والترجمات لي. (المترجم)

سخرية بوشكين الواخزة، عبرت نحو تهريج غوغول الراقي، حتى جدالات تورغينيف الرثائية، ومصاديق ارتكاب الخطيئة نحو يسوع المُخلِص التي قدمها دوستويفسكي، وأخلاقيات قبضة تولستوي الفولاذية مرتدية القفاز المخملي للواقعية الخالية من العيوب.

ريثما وصلت إلى تشيخوف، كنت محملة بعتاد جديد بالكامل، فصار بإمكاني الإبحار بسهولة عبر الحبكات المعقدة المتخمة بالاستطرادات، والتأملات الفلسفية المطولة، والنقاشات الآسرة بغرابة، والتي تتناول الموضوعات الغامضة، وبالتأكيد عبرت أيضًا طوابير الشخصيات الغنية المُعرَفة ببروتوكولات التسمية المنتمية إلى عصر الباروك: الاسم الأول، لاحقة اسم الأب، اللقب، بالإضافة إلى دزينة من مشتقات الدلع والتنابز. لم أكن مستعدة للإيجاز، والدقة، وانعدام الحبكة.

تبين أن تشيخوف كان عملاقًا بين الكتَّاب: دقيق كالساعاتي، ورقيق، وكريم، ومُعدٍ، ويحترم قرَّاءه بطرق لا يمكن للروسيين الآخرين، الذين قد يتمتعون بعلاقات عامة أفضل، حتى أن يتصوروها. وقد نشر 568 قصة خلال حياة امتدت لما مجموعه 44 عامًا. وقد تراسل مع جميع الكتَّاب والنقاد والفنانين كبارًا وصغارًا في عصره، وأرشد عشرات المؤلفين الطموحين، وترك إرثًا من النصائح الوفيرة عن فن الكتابة –والمعيشة– الجيدة.

ربما وجد معاصرو تشيخوف أنه تجسيد للسوداوية، ولكنني أظن أنهم كانوا في حيرة أمام صوته الجديد بالكامل، والذي أعجزهم تصنيفه. إن هذا التأرجح الزئبقي بين التراجيديا والكوميديا، الذي ميز أعماله، كان في الواقع أولى همهمات الوعي والإحساس المُميِّزين لعصر الحداثة. وبهذا أعني ضيقنا بمجموعة من التفسيرات الاختزالية (الأيديولوجيات، العقائد، الدين المنظم)، وأعني شكوكنا، وقلقنا، وشهيتنا لكل المتع الجسدية، سخريتنا، وأخيرًا التزامنا بقيمة وحيدة ومرعبة، ألا وهي الحرية. لا تقدم قصص تشيخوف، الغنية بالتعقيدات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لأواخر عصر روسيا القيصرية، والتي تستمد منها طابعها المحلي، كثيرًا لأولئك القراء الساعين إلى الهرب من التفاهات اليومية أو قواعد السلوك العامة؛ فهي لا تقدم أي مسكنات، ولا أي حلول نهائية متجذرة في الميتافيزيقيا.

كان تشيخوف حالة شاذة محيرة في المشهد الذي كان القراء الروس ينتظرون فيه من كتَّابهم أن يقدموا المواعظ على طريقة أنبياء العهد القديم؛ فمنذ أن أحدث بطرس الأكبر ثورة في روسيا «من الأعلى» من خلال فرض «ثقافة عليا» في أوروبا الغربية وحكم استبدادي صارم تدعمه الأرثوذكسية والشرطة السرية والرقابة، صار الروس يعتمدون على أدبهم الخيالي لأداء الدور الذي يؤديه الخطاب العام في الغرب. ولكن، لفعل ذلك؛ كان على الكتَّاب

الروس أن يستخدموا حيلًا بلاغية تخفي أهدافهم الحقيقية، وقد تكيف القراء من خلال تعلُّم فك تشفير الكنايات المزدوجة المعنى للموضوعات المحظورة. ولذلك، فعلى مدار نحو مئتي عام، كانت الأعمال الإبداعية، التي أُخفِيَت ببراعة على طريقة «اللغة الإيزوبية»، تتناول كل تطور سياسي في المؤسسة القيصرية والعالم بأسره. ولكن القراء في قصص تشيخوف القصيرة كانوا يبحثون عبثًا عن كنايات تتناول الأحداث الجارية أو عن تعليق بلاغي عن المجريات. قدمت حكاياته عن الأشخاص العاديين، الذين يقومون بأشياء عادية في أماكن عادية، عبرة صارخة: العيش بكل الجوارح، ببساطة، ونزاهة، وإيلاء الاهتمام لكل لحظة، وكل إحساس، وكل تفاعل.

بداكأن تشيخوف نبي انسحب من الرسالة الوعظية للكاتب، والتي كانت سمة النثر الفني الروسي المُميّزة آنذاك. ويظهر هذا في ما أسرَّه لسوفورين إذ قال: «كل الحكماء العظماء مستبدون كالجنرالات، إذن فلتذهب فلسفة عظماء هذا العالم إلى الجحيم!»[1]. وبدلًا من ذلك، بُنِيَت النظرية المعرفية، التي أسس عليها جمالياته، على تعهد بالتواضع واعتراف أولي بالجهل؛ فقد أصر تشيخوف على أنه «قد حان الوقت للكتَّاب، وخاصة الفنانين الحقيقيين منهم، للاعتراف بأنه من المستحيل شرح أي شيء. اعترف سقراط بذلك منذ زمن بعيد، وكذلك فعل فولتير. وحده جمهور العوام من يظن أنه يعرف ويفهم كل ما يجب معرفته وفهمه. وكلما كان هذا الجمهور أغبى، ازداد

(1) أنطون تشيخوف إلى أليكسي سوفورين، 8 أيلول 1891.

مقدار انفتاحه في اعتقاده. ولكن إذا اعترف فنان يثق به الجمهور بأنه لا يفهم شيئًا مما يرى، فإن هذه الحقيقة بذاتها ستكون إسهامًا عظيمًا لملكوت الفكر، وستشكل خطوة عظيمة نحو الأمام»[1].

إن تفكير تشيخوف هنا ثوري حقًا؛ إذ لم يسبق لأي كاتب روسي قبله أن يلخص المتطلبات الأساسية ليكون الخطاب جازمًا وموثوقًا في صفة سلبية واحدة، وهي رفض ادعاء المعرفة في ظل غيابها.

كان تشيخوف رجلًا عصاميًّا شق طريقه للخروج من ميناء تاغانروغ الإقليمي هربًا من طفولة عاشها في ظل قلق مالي وفي طبقة اجتماعية متدنية. وقد كان صادقًا جدًّا في تقييمه لذاته وللآخرين[2].

---

(1) أنطون تشيخوف إلى أليكسي سوفورين، 30 أيار 1888.

(2) يقول إيفان بونين، الحدائي الحائز على جائزة نوبل، إن الميناء القذر على بحر آزوف كان له دور عميق في «الكآبة الفطرية» لدى تشيخوف.

«كان السكان المحليون في تاغانروغ يعيشون في بيوت صغيرة متداعية مظلاتها متآكلة من العث وذات حدائق صغيرة ومراحيض مشتركة. كانوا يتناقلون كل شيء بلا تحفظ عن طريق النميمة والأخبار المليئة بالحسد والنكاية، حتى الأسرار الخاصة أو ذات الخصوصية. كما كان فيها مشاهد قاسية؛ فمثلًا: كان السجناء يُجلَدون أو يُعدَمون في الساحات العامة، والكلاب الضالة تُضرَب حتى الموت بالعصي والمضارب، وكانت الفتيات الصغيرات يُخطَفن أحيانًا ليصبحن حريمًا لدى الأتراك».

«لم يتجاوز تشيخوف قط بغضه لتاغانروغ. في الواقع، كانت الفضيلة الوحيدة المنقذة للمكان البحر المحيط؛ فقد أصبحت مشاهده، وروائحه، وأصواته علامات مميزة في كتابات تشيخوف».

(Ivan Bunin, *About Chekhov: The Unfinished Symphony*, ed. and trans. Thomas Gaiton Marullo [Evanston, Ill.: Northwestern University Press, 2007], p. 3).

إن مراسلاته وأعماله الإبداعية تشهد بصدقه في كل الموضوعات، باستثناء حالته الصحية التي كان في حالة إنكار دائم لها. وقد غذى كل من تدريبه الطبي وإخلاصه لمبادئ الطبيب الفرنسي كلود برنارد توجهًا قويًا للواقعية المادية، واستعدادًا كبيرًا لتسمية الأشياء بمسمياتها. وفي رسالة مشهورة إلى محرره أليكسي سوفورين، صاغ تشيخوف المبدأ النظري في أساس عمله: «أنت تخلط بين مفهومين: «حل مسألة»، و«الطرح الصحيح للسؤال». المفهوم الثاني فقط هو الجوهري للفنان»[1]. إن كان من شيء وحيد آمن به تشيخوف بقلبه وروحه فهو القوة التحويلية لمراعاة هذه الضرورة التشخيصية الأساسية. وقد كتب قبل موته بأربع سنوات، مُرجِعًا النظر إلى أعماله: «أردت فقط أن أقول للناس بصدق: انظروا، انظروا إلى مدى سوء حياتكم، انظروا كم هي مملة. الأمر المهم هو أن الناس عليهم فهم هذا، فإذا فهموه، فسيخترعون بالتأكيد حياة مختلفة أفضل بكثير. لن يصير الإنسان أفضل إلا عندما نُظهِره كما هو»[2].

كانت روسيا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر لا تزال مكانًا سيئًا ووحشيًا لا يرحم لمن لم يُولَد في الطبقة الأرستقراطية فلم يُمنَح القبول التلقائي في الدراسة الجامعية ولا فرصة القيام بجولة كبرى في أوروبا، يتبعها زواج ذو مزايا اجتماعية ووظيفة اسمية في

---

(1) أنطون تشيخوف إلى أليكسي سوفورين، 27 تشرين الأول 1888.

(2) رسالة غير مؤرخة (1900)، مذكورة في F. Malcovati, "Introduzione," in Anton Cechov, *Racconti* (Milan: Garzanti, 1996), vol. 1, p. xxv.

إحدى المصالح الحكومية. اعتمد تشيخوف على نفسه؛ في حياته كما في فنه، ولم يحتج إلى الحلقات، ولا الزُمر، ولا الجمعيات. وبدخوله وخروجه المستمرين من الأوساط الأدبية والاجتماعية، كان محصنًا من البدع الفكرية التي شكلت نقطة ضعف شبه قاتلة لدى الروس المثقفين ذوي الحسب والنسب. انسابت كل من الشعبوية، والاشتراكية، والانحلال، والرمزية، وعقيدة تولستوي في عدم مقاومة الشر ومداهنة الفلاحين من على ظهر تشيخوف كسيل من المطر، دون أن تترك فيه أثرًا. وقد كتب إلى سوڤورين: «يسري دم الفلاحين في شرايين دمي، لذلك لست ممن تبهره فضائل الفلاحين». كما لم يتأثر بزهد تولستوي الحماسي المتمثل في تقديس الامتناع عن الملذات الجسدية، فكتب: «يخبرني حس اللعب النظيف لديَّ أن في البخار والكهرباء من حب للبشرية ما ليس في الرهبانية والامتناع عن أكل اللحوم»[1].

إن هذا التعلق البراغماتي بالراحة والأمان –الذي قد ندعوه «قيمًا بورجوازية»– كان يمثل فقط الجانب المادي من قيم المسؤولية الوجودية لدى تشيخوف. سعى تشيخوف –وهو الرواقي عن قناعة وبالضرورة– إلى ابتكار حساب أخلاقي يمكن للإنسان الحديث أن يعيش وفقه حياة فاضلة وممتعة. في الواقع، شكل اعتلال صحته «اختبارًا واقعيًا» مستمرًا لما هو مهم وما هو نافل. أدى العيش مع الوعي الدائم بالموت بتشيخوف المصاب بداء السل إلى قياس كل

(1) أنطون تشيخوف إلى أليكسي سوفورين. 27 آذار 1894.

ما يبذله من عاطفة، أو اهتياج، أو يأس، أو كرب، أو تفاهة، أو قسوة قلب، أو جشع، أو غرور بمسطرة الموت.

قد يكون هذا الحساب الوجودي الأولي قد صدم معاصريه باعتباره حسابًا لا أخلاقيًّا[1]، ولكنه كان متوافقًا تمامًا مع الإحساس الحديث الذي رسمه -من بين آخرين- دوستويفسكي ونيتشه وفرويد؛ فقد كان كونُهم أيضًا كونًا قد أُقصِي فيه الله، وهو الحكَم النهائي على الخطأ والصواب، والخير والشر. وقد نمَّى تشيخوف -الذي لُقِّم الدين بالقوة من أبيه المستبد- حساسية روحية تجاه كل ما هو مطلق. ولكنه -مع ذلك- أدرك أنه بإعلان موت الله فإن إنسان عصر الحداثة لما يقضِ على مشكلة المعنى والقيمة، بل نقل حلَّها إلى مستوى آخر وحسب.

إن قصص تشيخوف -حتى الأولى منها والتي خطَّها بغاية الحصول على المال فقط- تفضح المفهوم التقليدي عن التُّقى بوصفه دليلًا أخلاقيًّا واهيًا ذا ذاكرة انتقائية، وعلى استعداد لإيجاد الأعذار لأي نوع من الوحشية باسم المفاهيم المجردة (النظام! الأمن! الأسرة!). في الواقع، كان هذا المناخ الأخلاقي للعقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، عندما انحدرت روسيا -المختنقة بإصلاحات ألكسندر الثاني القانونية والاجتماعية والاقتصادية- إلى حالة جمود مُعطِّل من الأرثوذكسية الرسمية والقومية. ولكن

---

(1) في الأصل «amoral» أي عدم التزامه بالبوصلة الأخلاقية في هذا الحساب، وليس أن الحساب يدعو إلى الأخلاق الخبيثة. (المترجم)

بدلًا من معالجة القضايا السياسية الكبرى، أخذ تشيخوف حملته الاقتصادية إلى الحياة الخاصة للأفراد؛ فهو يرى أن الشخصية الفردية غير المثقلة بعقيدة المُسلَّمات (الدوغما) وحدها هي التي يمكنها تصحيح أخطاء الطبقة، أو الأمة، أو العصر، وتزرع بذور التغيير التاريخي الحقيقي. «أنا أومن بأشخاص محددين، وأرى الخلاص في شخصيات محددة، مبعثرة هنا وهناك في أرجاء روسيا كلها، سواء كانوا مثقفين أو فلاحين، فإن فيهم قوة، إلا أنهم قلة»[1].

المُشكِّك

على خلفية كونه طبيبًا ذا فهم عميق للأسباب المادية للعذاب الروحي –الفقر، سوء التغذية، قلة النظافة، الإحباط الجنسي، الحرمان من النوم– فقد طرح تشيخوف تساؤلًا حول كيفية إمكانية أن يعيش المرء بكرامة وسعادة بعيدًا عن رقابة «كبار المشرفين على أمور الدين، والدولة، والأيديولوجيا» اللصيقة. وكما أسرَّ في رسالة معروفة إلى أليكسي بليشكييف: «إن قدس الأقداس لديَّ هو جسم الإنسان، وصحته، وذكاؤه، وموهبته، وإلهامه، وحبه، وحريته المطلقة، والحرية من العنف والزيف، مهما يكن الشكل الذي قد يتخذه أي هذه الأشياء. هذا البرنامج الذي سألتزم به لو كنت فنانًا عظيمًا»[2]. في عصر زحف اللاأدرية، عندما يكون الموت

(1) أنطون تشيخوف إلى إيفان إيفانوفيتش أورلوف. 22 شباط 1899.

(2) أنطون تشيخوف إلى أليكسي بليشكييف. 4 تشرين الأول 1888.

هو المطلق الوحيد، يأكل أبطال تشيخوف، ويشربون، ويعملون، ويتغزَّلون، ويتبادلون الأحاديث اليومية بين الضرورة الحديدية للموت والحرية المرعبة لارتجال معنى للحياة. يظهر الجميع في أعماله -بطرق دقيقة وضئيلة-كأن لديهم حرية اختيار كيفية الاستجابة للتحديات والعقبات اليومية، وذلك رغم أنهم محكومون بالموت ولا يملكون تحديد مسارات حيواتهم (التي هي خارج سيطرتهم عادة). في رسالة إلى أخيه نيكولاي، رسم تشيخوف المعالم الرئيسية لهذا «الإنجيل» بمصطلحات ملموسة على طريقته المميزة، متجنبًا المفاهيم المجردة:

يجب على الناس المتعلمين، في رأيي، أن يحققوا الشروط التالية: أن يحترموا الفرد، ومن ثم أن يكونوا شديدي التسامح، واللطف، والتهذيب، والطواعية... يجب ألا يحدثوا جلبة لأجل مطرقة أو لضياع خف... وهم يتسامحون مع الضجيج، والبرد، واللحم المفرط الطهي، والنكات... وهم لا يهينون أنفسهم بهدف استعطاف شخص آخر. هم لا يعزفون على أوتار قلوب الآخرين طلبًا لتنهيدات الآخرين وقلقهم عليهم في المقابل. وهم لا يقولون: «لا أحد يفهمني!» ولا «لقد أضعت مواهبي!»... هم ليسوا أجوفين. لا يهتمون بغنائم وهمية كمعرفة المشاهير... وهم يزرعون حسهم الجمالي. إنهم غير قادرين على النوم بملابسهم، ولا أن يستحملوا رؤية بق الفراش في صدوع الجدران، ولا تنفس هواء كريه، ولا

المشي على أرض مبصوق عليها، ولا تناول الطعام من على موقد كيروسين.[1]

يتضمن هذا القانون الأخلاقي المصاغ في مراعاة دائمة للموت جمالياتٍ بطريقة مألوفة لنا. فبالنسبة إلى تشيخوف، لا تنفصل الحياة الجيدة عن الجمال، وكلاهما يتطلب احترام الطبيعة. ويصر تشيخوف، في رسائله وقصصه، على رؤية الطبيعة ساحة يمكن من خلالها إعطاء غنى الشخصية البشرية مساحته الكاملة، وبالتحديد في اعتبار شخصياته أو تجاهلها للكائنات غير البشرية في العالم – أي النباتات والحيوانات– يجد تشيخوف النواة الأخلاقية للأفراد. وفي هذا الصدد كذلك، كان تشيخوف صاحب بصيرة سبقت التزامنا المعاصر بالمسؤولية البيئية من خلال الترويج لحفظ الطبيعة بوصفه معيارًا للأخلاق الكامنة في الإنسان. وكما يُذكِرنا أ. ب. تشوداكوف، فإن تشيخوف «كان أول شخصية أدبية تدرج سلوك الإنسان تجاه الطبيعة في دائرة منظومته الأخلاقية»[2].

ينفخ بطل إحدى أوليات مسرحياته «شيطان الغابة»، وهو طبيب اسمه خروتشوف، بوضوح في بوق الدعوة للنشاط البيئي عندما يعترض على قرار جاره بقطع أشجار غابة: «إن قطع ألف

(1) أنطون تشيخوف إلى نيكولاي تشيخوف 1886.

(2) A. P. Chudakov and Julian Graffy, "The Poetics of Chekhov: The Sphere of Ideas," *New Literary History*, vol. 9, no. 2, "Soviet Semiotics and Criticism: An Anthology" (Winter 1978): 375.

شجرة، وإتلافها مقابل ألفي روبل، من أجل ملابس نسائكم، من أجل أهوائكم ورفاهيتكم... إن إتلافها سيُحِلّ على بربريتنا لعنات الأجيال القادمة!»[1]. يتردد صدى هذا الشعور في عدد من أعمال تشيخوف -«الكشمش»، «أخوات ثلاث»، «بستان الكرز»- بنسخها المتنوعة التي وجدت طريقها في النهاية إلى برنامجنا البيئي. وينبع اهتمام تشيخوف بالمحيط الحيوي من براغماتية الفلاح، ولكنه يشبه صيغة التفكير الشامل المعاصر: فعلى سبيل المثال، يلاحظ بطل إحدى بواكير قصصه: «الشمس، السماء، الغابات، الأنهار، المخلوقات، كلها خُلِق، وتكيَّف، وتأقلم بتبادل. كل شيء وُضِع في مكانه ويعرف أين هو»[2].

مكتبة
t.me/soramnqraa

الحِرَفي

وقعت كل حياة تشيخوف ضمن فترة حياة ليو تولستوي، الذي سبقه باثنين وثلاثين عامًا وعاش بعده ستة أعوام أخرى. وكان لدى الواقعي المسن كثير ليُعلِّمه للطبيب الشاب، ولكن التلميذ السابق لأوانه اندفع بجرأة قُدمًا نحو الإيقاعات الأسرع، والأشكال الأصغر، والأسلوب التلغرافي المناسب للقرن القادم من التقدم والسرعة وقصر مدى الانتباه. تواجه الاثنان كداود وجالوت، وقد واجه أديب المنمنمات مبتكر ما أطلق عليه هنري جيمس «الوحش

(1) أنطون تشيخوف، شيطان الغابة، المشهد الثالث.

(2) أنطون تشيخوف، «Svirel»، («أنبوب الخيزران»).

الواسع الفضفاض» في وصفه لرواية «الحرب والسلم». وقد اشتكى تشيخوف من أن المغازلة والتحامل كانا قد أفسدا نثر تولستوي. أما تولستوي فقد أعرب بدوره عن شجبه لتدريب تشيخوف الطبي السريري للسبب نفسه. ولكن الرجل المسن -مع ذلك- كان يكن إعجابًا عميقًا بإنجاز الشاب. وكما كتب تولستوي: «في تشيخوف، كل شيء حقيقي حتى حافة الوهم. وقصصه تعطي انطباعًا مجسمًا. إنه يرمي بالكلمات في بعثرة ظاهرية، ولكنه كرسام انطباعي؛ يحقق نتائج رائعة بلمساته»[1].

إذن ما اللمسات التي كانت قد أنتجت هذه الواقعية غير المسبوقة؟ إن قصصه المصاغة بمهارة حديثةٌ لأنها تتخذ شكل القصص غير مفرطة الهندسة. هي لا تعطي أي إجابات، ولا تهين ذكاءنا، بل تولي اهتمامًا عن كثب للتعقيدات النفسية. وهي تعترف

---

(1) L. Gol'denveizer, *Vblizi Tolstogo* (Moscow: Gosudarstvennoe izdatel'stvo khudozhestvennoi literatury, 1959), pp. 68–69. يذكر بوريس آيشنباوم، الناقد الروسي الشكلاني، أن تولستوي مَيَّز أصالة تشيخوف الراديكالية وعدَّه منافسه الجدّي الوحيد. وقد أورد على لسان الروائي: «تشيخوف فنان لا يُقارَن، نعم، نعم، لا يُقارن... فنان الحياة... خلق تشيخوف أشكالًا جديدة من الكتابة، جديدة بالكامل، في رأيي، للعالم بأسره، ولم أرَ مثيلًا لها في أي مكان... وقد استحالت بالفعل مقارنة تشيخوف، كفنان، بمن سبقه من الكتَّاب الروس، سواء بتورغينيف، أو بدوستويفسكي، أو بي. لتشيخوف شكله الخاص به كما للانطباعيين شكلهم». Boris Eichenbaum, "Chekhov at Large," *Chekhov: A Collection of Critical Essays*, ed. Robert Louis Jackson (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1967), p. 27

بالأهمية الكبيرة للأشياء الدقيقة، الدنيوية في الحياة –كالحذاء غير المريح، أو أصوات قرقرة المعدة– بوصفها حاسمة في تحديد القدر. أعاد تشيخوف صياغة قواعد الاشتباك وحرَّك القصة القصيرة قُدمًا إلى العصر الحديث، جالبًا لنا شكلًا يمكن القول إنه جديد، مشذبًا من دسمه التقليدي وشوائبه المعتادة؛ فأولًا ألغى استخدام الرواة المتطفلين، المقتحمين، الذين يصدرون الأحكام، الذين كانوا معتادين في أدب القرن التاسع عشر وينسلُّون بين شريحة الحياة، التي يتحدث الكتاب عنها، وعين القارئ. إن الراوي عند تشيخوف لا يقتادنا من أيدينا كالأطفال ولا يخبرنا متى نضحك، أو نبكي، أو نكف دموعنا، أو نصفق، بل يترك تشيخوف شخصياته يفصحون عن مكنوناتهم، بكلماتهم الخاصة، مهما كانوا غير متناسقين في محاولاتهم للإحاطة بفكرة ما. ولكن ما لم يفصحوا عنه صراحة يظهر في لحظات الصمت، والسكتات بين الكلمات، ومن وصف المكان، أو الجو، أو الإيماءات، أو الأزياء في الصفحات المتفرقة.

افترض تشيخوف أن القارئ ذكي، مستقل التفكير، وافترضه شخصًا يقر بصراحة أنه يُواجَه. لا يحب الأطباق الجاهزة، ولا الأطر الدينية، ولا اللغة الوعظية التقليدية، شخصًا لا يلجأ إلى الأدب الإبداعي ليجد من يطبطب عليه ويؤكد على ما هو معروف مسبقًا. يريد القارئ «التشيخوفي» أن يخضع لتحدٍ يجعله يفكر بطرق غير مألوفة، ويُخرِجه من منطقة راحته، وأن يُؤخَذ إلى حدود تفكيره، ويُواجَه، بل حتى أن يشعر بالضجر وخيبة الأمل؛ فهذه هي الحياة في نهاية المطاف.

أحب أن أعتقد أننا إذا أردنا تشبيه نصوص تشيخوف بمبانٍ، فستكون أشبه بتصميمات لو كوربوزييه «Le Corbusier» منها بتصميمات ماك كيم «McKim»، وميد «Mead»، ووايت «White»، كبار مدرسة التصاميم المزينة، المزخرفة في الفنون الجميلة. يستغني تشيخوف عن الإطار (ليس دائمًا، بالتأكيد، ولكن عمومًا). إن المناورة الافتتاحية التقليدية للقصة القصيرة الموروثة من بوكاتشيو ومجموعته القصصية «ديكاميرون» هي الحالة السردية لمجموعة من الأصدقاء مجتمعين، تحت سياق ما أو آخر، لتبادل القصص. يقفز تشيخوف عادة إلى قلب الأحداث –أو وسط عدمها، كما قد يقتضي الحال– واثقًا باستنباطنا المجريات من الإشارات الدقيقة التي يقدمها لنا.

يكره تشيخوف الفوضى. وفي إحدى رسائله إلى أخيه ألكسندر، كتب: «لا حاجة إلى مطاردة حشد من الشخصيات. اثنان فقط يجب أن يكونا في مركز الثقل: هو وهي»[1]. ونصيحته المعيارية في ما يخص التنقيحات هي التخلص من الصفحات الثلاث الأولى والتخلص من الكليشيهات، والتكرار، واستخدام المحسنات اللفظية بهدف. من الصعب النجاح في تحقيق الصفة الجمالية الأدنوية (Minimalist) الخاصة بتشيخوف؛ وذلك لأن المرء إذا سلك درب «الأقل أكثر»، فإن على «الأقل» أن يأخذ من مصدر معرفة عميق وواسع جدًّا. «لا يكفي صف الكلمات معًا. على المرء أن

(1) أنطون تشيخوف إلى ألكساندر تشيخوف. 18 أيار 1886.

يعرف شيئًا. عليه أن يعمل على معرفة شيء. عليه أن يدرس ويكون لديه ما يقوله عن العالم. باختصار، على المرء أن يكون عالمًا».

المعلم

ما مدى ملاءمة نصيحة شخص كتب قبل أكثر من مئة عام اليوم؟ بل –ولجعل الأمور أسوأ– شخص عاش في مكان ذي تقاليد ثقافية، وعادات قراءة، وأعراف مختلفة جدًّا عن تقاليدنا وعاداتنا وأعرافنا؟ كما حاولت أن أحاجج فإن تشيخوف لا هو قد عفَّى عليه الزمن ولا هو ضيق الأفق ثقافيًّا في موضوعه وفي شكله. إن قصصه السامية أفضل دليل على أنه –وفي مواجهة الضغوط نفسها تقريبًا، والمشتتات، والعوائق، والمخاوف التي نواجهها اليوم– كان لا يزال لديه بعض الحيل في جعبته. وتُعَدُّ تجربة حياة تشيخوف ذات فائدة خاصة لأولئك الذين يحتاجون أيضًا إلى فتح نوافذ على الكتابة في جذوع حياتنا الصلبة؛ فقد أعطته حياته المهنية المزدوجة توازنًا مثاليًّا بين العزلة، التي قد تكون خانقة والتي تتطلبها الكتابة، والاتصال المكثف والواسع النطاق مع أكثر الشخصيات والمآزق تنوعًا من خلال ممارسة الطب. بصفته طبيبًا –غير قادر على طلب أجره أو تحصيله بشكل مثير للشفقة– فقد كان على صلة دائمة بكل أشكال السلوك البشري. أصبح كل تدخل طبي مناسبة لقصة. بحلول زمن دخوله إلى المجال الطبي، كان الطب –على الأقل كما علَّمه أستاذه النظري د. كلود برنارد– قد تخلى عن صلاته الوثيقة

بالمسببات الأخلاقية. بتعبير آخر: بدلًا من إضفاء الصفة الأخلاقية صراحة أو ضمنيًّا، فإن العلوم الطبية كانت قد جعلت الحياة مرضيَّة. وطوال حياة تشيخوف، ظل الطب حليفًا قويًّا في مساعدته على تجنب الوعظ الأخلاقي التدخلي لدوستويفسكي أو تولستوي، بما يتماشى مع تفكيرنا الحالي.

وأخيرًا، نريد نصائح تشيخوف عن الكتابة لأننا معجبون به بصراحة. ليس من المفاجئ أن أفضل ما يشرح شخصية تشيخوف أتانا من مراسلاته مع الممثلة أولغا كنيبر، التي تودد إليها وتزوجها قبيل وفاته[1]. تكشف أسئلتها له عن عاداته الصحية، ولباسه، وأكله، ونومه، وعمله؛ عن عازب دلَّلته أخته وأمه العاشقتان له، وعن مضيف جماعي شديد الهوس لا يستطيع أن يرد الضيوف الذين يستنفدون قوته ووقته اللذين يحتاج إليهما للكتابة، وعن واهن عاجز عن فعل شيء إضافي بطاقته الحيوية المتبددة، وعن عاشق غيور متحفظ عاطفيًّا يكره التعبير عن مكنوناته، وعن رجل آخذ في الصلع يحارب منتصف العمر بتدليك فروة رأسه بمقويات الشعر. لم تكن الكتابة سهلة عليه في آخر سنواته عندما تحدى نفسه لكتابة مسرحيات بإيجاز الهايكو[2] من شأنها أن تُحدِث ثورة في المسرح والقصص القصيرة.

---

(1) *Dear Writer, Dear Actress: The Love Letters of Anton Chekhov and Olga Knipper*, ed. and trans. Jean Benedetti (Hopewell, N.J.: Ecco Press, 1996).

(2) الهايكو فن من الشعر الياباني يتصف بالإيجاز. (المترجم)

كان لدى تشيخوف دافع عميق وراء توجُّهه إلى تحطيم الأيقونات الجمالية؛ فقد كان يؤمن بالقوة التحويلية العميقة للفن. إن الكتابة مهمة لأنها –حسب قناعاته–تؤثر على طرق رؤيتنا للواقع، ومن ثم على الطرق التي نرسم بها العلاقات والاستجابات في حياتنا؛ ولهذا كان تشيخوف مهووسًا بالكمال، ويتأخر دائمًا في التسليم على الموعد لأنه يلهث وراء كل صفة، وفاصلة، وفاصلة منقوطة. ووفق شرحه: «في العمل الفني، غالبًا ما تلعب علامات الترقيم دور النوتة الموسيقية. إنها تتطلب غريزة وخبرة، ولا يكفيها معرفة ما في الكتب المدرسية»[1]. إذا كان معاصروه قد وجدوا عمله مربكًا ومزعجًا ومحبطًا، فلربما كان ذلك لأنه قد أجبرهم على الخوض في أرض مجهولة من مشاعر جديدة، حديثة بالكامل، أشعرتهم أنهم غير مؤهلين لدخولها. وكما كتب في دفتره: «دائمًا ما تنتج الأشكال الأدبية الجديدة أشكالًا جديدة من الحياة. وهذا سبب شدة نفور العقل البشري المحافظ منها»[2].

في النهاية، النصيحة، التي يقدمها لزملائه الكتَّاب، تأتي من «الحقيقة المحسوسة» لنضاله اليومي، دقيقة بدقيقة، لمواصلة الكتابة، وأن يكون لديه شيء يستحق أن يُقال، وأن يظل على قيد

(1) أنطون تشيخوف إلى ريمًا فاشوك–نايشتادت، 28 آذار 1879.

(2) *Note-Book of Anton Chekhov. Trans. S. S. Koteliansky and Leonard Woolf*, available at: *http://www.gutenberg.org/etext/12494&8.txt*.

الحياة في الوقت نفسه. ما يجعله بهذه الجاذبية للعب دور المرشد المعلم هو أنه يريد كل شيء: أصدقاء، صحبة جيدة، رحلات إلى الريف، سفر، مسرح، موسيقى، حوار جيد، عائلة، حب، غزل. إنه سيد تعدُّد المهام، كلاعب خفة يدير كرات الطب، وكتابة القصص القصيرة والمسرحيات والكتابات الواقعية، دون أن تقع أي كرة. وهو يلعب دورًا حيويًّا في حياة مجتمعه؛ إذ تدخَّل في أثناء تفشي وباء الكوليرا، وبنى المدارس، وتبرع بوقته وموهبته لغايات خيرية، كل ذلك وهو يعول أبويه وإخوته. هو دائمًا «في المنزل» لاستقبال الضيوف والمرضى. وبطريقة ما، حتى مع حالته الصحية الحرجة، كان يجد طريقة لصناعة فنه. إنه لا يتلوَّم ولا يتذرّ. وكما ستظهر حروف هذا المجلد مرارًا وتكرارًا، فهو يؤمن بشدة أن الممارسة المستمرة هي سبيل المثالية، وأن العادة محرك النجاح، وأن العادات الحسنة تعطي نتائج حسنة، وأن تصير كاتبًا منتجًا ليس أعقد من المحافظة على عادات النظافة والصحة: نظِّف أسنانك بالفرشاة مرتين في اليوم تحصل على فم صحي، واكتب ساعة في اليوم تحصل على كتاب.

الباب الأول: النظرية

بلا حبكة، ولا خاتمة

الفصل الأول

أسئلة عامة

لماذا الكتابة؟

لماذا أكتب

رسالة إلى مكسيم غوركي[1]، يالطا، 18 كانون الثاني 1899

كلماتك عن العربات والسكك والأنوف، التي تعلق، ساحرة، ولكنها بعيدة عن الإنصاف إلى حد كبير. إذا كانت الأنوف تعلق فليس ذلك بسبب الكتابة، بل على العكس تمامًا؛ فالكتابة هي نتيجة إقحام الأنوف وعدم وجود مكان آخر نذهب إليه.

(1) يستعير تشيخوف الكنايات التي استخدمها غوركي لوصف أوراق اعتماده الأدبية في رسالة من أوائل كانون الثاني 1899: «أنا غبي كعربة القطار؛ فمنذ كنت في العاشرة من عمري، كنت وحدي. لم يكن لديَّ وقت للدراسة. لم أفعل شيئًا سوى التهام الحياة والعمل. وفي هذه الأثناء، كانت الحياة تضربني وتشعل محركاتي وتدفعني. والآن هأنذا، أتمزق بسرعة جنونية. ولكن ليس لديَّ سكة أسير عليها، ومع أنني أرى الحياة بطريقة جديدة، قوية. فإنني لا أعرف كيف أفكر. ولذا أتوقع أنني مقبل على كارثة... ربما لن أنكب على أنفي بعد. ولكن حتى لو كان له ذلك، فإنني لست خائفًا ولا آسفًا». [ل. ل.]

رسالة إلى أليكسي سوفورين[1]، موسكو، 23 كانون الأول 1888

إن الكتابة من أجل [النقاد] بحماقة طلب شم الزهور من شخص يعاني الزكام. ثمة أوقات أشعر فيها بالإحباط حقًّا. لأجل من أكتب؟ ولأي غاية؟ أللعامة؟ ولكنني لم أرَ فعليًّا هذه العامة وإيماني بوجودها أقل من إيماني بالأشباح: العامة غير متعلمة وسيئة السلوك، وحتى في أفضل أحوالها هي تعاملنا بلا ضمير ولا صدق. لا أملك أدنى فكرة عما إذا كانت هذه العامة تحتاج إليَّ أصلًا. يقول بورينين[2] إنها لا تحتاج إليَّ وإني أضيع وقتي، بينما منحتني الأكاديمية جائزة؛ فما الذي يعنيه كل ذلك؟[3] أهو المال ما أريد؟ ولكنني لم أمتلك المال قط، ولأنني غير معتاد على امتلاكه فإني لا

---

(1) في الترويج لكتابات تشيخوف وإصدار مجموعات من قصصه، كان سوفورين، وهو مؤثر في عالم الكتابة، الدافع وراء شعبية تشيخوف بعدة طرق. وقد التقى الاثنان في عام 1885، وأصبحا صديقين مقربين، وسافرا حتى معًا في عامي 1891 و1894. وقد تعجب المعاصرون من اتحاد القطبين المضادين المتمثل في صداقة رجلين ذوي وجهتي نظر مختلفتين جذريًّا في السياسة. وقد قال أحد المتتبعين للمسألة، ويُدعى دميتري س. ميريزكوفسكي، ساخرًا: «صاحب الشيطان الرضيع». [ل. ل.]

(2) مدح فيكتور بورينين، محرر «نيو تايمز – *Novoye Vremia*»، كتاب تشيخوف «السهوب» في مراجعته. هذه النوفيلًا عمل تجريبي «خارق»، وهي تروي تجارب ووجهات نظر طفل في التاسعة من عمره يعبر السهوب إلى مدرسة داخلية. [ل. ل.]

(3) في تشرين الأول 1888، منحت الأكاديمية الإمبراطورية للعلوم تشيخوف جائزة بوشكين الرفيعة في الأدب عن مجموعته القصصية «في الشفق». [ل. ل.]

أكاد أبالي به. أنا ببساطة لا أستطيع إجبار نفسي على العمل لأجل المال. أم هو المديح ما أريد؟ لا يؤدي المديح إلا إلى مضايقتي. كال لي حشد كامل من التلاميذ والطلاب وبيفرينوف وبليشكييف والعوانس وغيرهم المديح على «انهيار عصبي» التي كتبتها، ولكن وحده غريغوروفيتش لاحظ وصفي لتساقط الثلج الأول[1]. إلخ. إلخ. فقط لو كان لدينا نقاد جديرون لكان بإمكاني أن أطمئن أنني أجمع المواد -سواء كانت جيدة أو سيئة فالأمر سيان- وأنني ضروري لأولئك الذين يندبون أنفسهم لدراسة الحياة كضرورة الكواكب لعلماء الفلك. لو كان هذا هو الحال لكنت أغرقت نفسي في عملي، ولعلمت أن له غاية. ولكن، حسب مقتضى الحال الآن، فأنت، يا مورافلين، وأرواح أخرى شبيهة، وأنا، كلنا كالمجانين نكتب كتبًا ومسرحيات لمتعتنا الخالصة[2]. إن متعة المرء بالتأكيد أمر جيد، ويشعر بها المرء ما دام يكتب، ولكن ماذا عن وقت انتهائه

---

(1) كتب تشيخوف «انهيار عصبي - *Pripadok*» في عام 1888 في ديوان لتخليد ذكرى صديقه والمعجب به فسيفولود غارشين، وهو كاتب شاب كان قد انتحر. كان أليكسي بليشكييف، وهو من المنفيين السياسيين البارزين وشاعر مدني، محرر صحيفة «نوثرن هيرالد - *Severnii Vestnik*»، التي نشر فيها تشيخوف عددًا من القصص. استخدم دميتري غريغوروفيتش بريستيجه الخاص وتأثيره الأدبي لنشر قصص تشيخوف بين محررين ونقاد بارزين. وبصفته شيخًا موقرًا، فقد واصل العرف الروسي المميز في نقل عصا «الانتخاب» الأدبي إلى أفضل من يمثل الأدب من الكتّاب الجدد. وقد ساعد تقديره تشيخوف كثيرًا في أخذ موهبته على محمل الجد. [ل. ل.]

(2) دميتري بيتروفيتش غوليتسين. من المواهب الصغيرة، وكان يكتب باسمه المستعار مورافلين. ونشر عددًا من القصص والروايات عن الأرستقراطية. [ل. ل.]

من الكتابة؟ ثم ماذا؟... اختفت شعوب بأكملها، وأديان، ولغات، وثقافات بلا أي أثر لعدم وجود مؤرخين أو علماء أحياء يسجلون وجودهم. بالطريقة ذاتها بالضبط تختفي سجلات حيوات وأعمال فنية أمام أعيننا لعدم وجود أي نقد على الإطلاق.

عن حكايات مبهجة وأخرى قاتمة

رسالة إلى ليديا أفيلوفا[1]، نيس، 6 تشرين الأول 1897

أنت تشتكين أن شخصياتي قاتمة. ولكن -للأسف- هذا ليس ذنبي! بل هذا فقط ما يصبحونه، دون فعلي ذلك عمدًا. وبينما أكتب، لا يخطر لي أبدًا أنني قد أكون كئيبًا، بل دائمًا ما أكون في مزاج جيد عندما أعمل. يُقال إن الأشخاص الكئيبين الحزينين دائمًا ما يكتبون بطريقة مبهجة، بينما يتحول الأشخاص المبتهجون إلى كتابات تحرض الكآبة. أنا -كما ترين- ذو مزاج سعيد، أو على الأقل -كما يقولون- قضيت أول ثلاثين سنة من عمري أمرح.

(1) كانت ليديا أفيلوفا كاتبة بارزة ومُدوِّنة مذكرات، وظلت علاقتها مع تشيخوف، الذي التقته في سان بطرسبرغ، غير واضحة المعالم. لم يكن لديها، وهي متزوجة وأم لأطفال، كثير من التواصل الحي المباشر مع الكاتب؛ ثمانية لقاءات قصيرة في عقد، ولكنها أعلت من شأن هذه اللقاءات كثيرًا عندما استحضرت ذكرياتها عن صداقتهما. [ل. ل.]

قوانين الطبيعة

رسالة إلى ألكساندرا خوتيانتسيفا[1]*، نيس، 26 تشرين الثاني 1897*

لقد لاحظت قانونًا آخر للطبيعة: كلما كنت أحظى بمرح أكبر، ازدادت كآبة قصصي. مكتبة سُر مَن قرأ

الرغبة في الكتابة، الرغبة في العيش

رسالة إلى ألكسندر تشيخوف، ميليخوفو15[2]*، نيسان 1894*

لا أشعر بالرغبة في الكتابة، وإلى جانب ذلك، فمن الصعب الجمع بين الرغبة في العيش والرغبة في الكتابة.

---

(1) زارت الفنانة الموهوبة ألكساندرا خوتيانتسيفا كوخ تشيخوف في مليخوفو وسحرته برسوماتها والبورتريهات التي ترسمها. وقد دعاها إلى زيارته في نيس، حيث أقامت في فندقه الروسي وأمتعته برسوم كاريكاتورية لنزلائه. [ل. ل.]

(2) عاش تشيخوف، وعمل، واستضاف الضيوف في مليخوفو، جنوب موسكو، بين 1860 و1904. في عام 1892، وبعد عودته من سخالين، اشترى عقارًا استقرت فيه عائلته كلها، وهناك كتب بعض أعماله الخالدة، كمسرحياته، في هذا الملاذ الريفي الرائع. وقد بنى مدارس نموذجية في ثلاث قرى، باذلًا بسخاء وقته، وجهده، وأمواله، وكان عضوًا في المنظمة الإدارية المحلية، وتُدعى الـ«زيمستفو»، وأصبح بكل المعاني مثالًا للوعي المدني. ولكن هذا الدور العام لم يمنعه من كونه المضيف السخي لعدد لا يُحصى من الأصدقاء، والزملاء، والمعجبين، والمتطفلين. [ل. ل.]

لمن علينا الكتابة؟

انسَ نفسك

رسالة إلى ألكسندر تشيخوف، موسكو، 20 شباط 1883

كل ما تحتاج إليه أن تكون أصدق مع نفسك: ارم بكل ثقلك في كل شيء، وفي كل مكان، ولا تجعل نفسك بطل روايتك الخاصة، انسَ نفسك، حتى لو لنصف ساعة. لقد كتبت قصة يقضي فيها زوجان شابان عشاءً كاملًا لا يفعلان فيه شيئًا سوى التقبيل، والنحيب، والحديث كالأطفال... لا يقولان أي شيء معقول، مجرد *أشياء لطيفة!* لم تكتب هذا للقارئ... بل كتبته لأنك *أنت نفسك* تتمتع بهذه الثرثرة السخيفة. أما إذا كنت لتصف العشاء؛ كيف أكلا، وماذا أكلا، وكيف كان الطاهي يبدو؛ إذا كنت أظهرت سوقية بطلك، والرضى الذي يشعر به في سعادته البليدة، وابتذال بطلتك، في سخافة حبها لذلك الزوج المفرط الحشو، المفرط التغذية، المزين كالمناديل، والذي يبدو أشبه بالإوزة... بالتأكيد، يحب الجميع أن يروا أناسًا سعداء، جيدي التغذية، ولكن لوصفهم، على المرء أن يفعل أكثر من أن يخبرنا ما الذي يتحدثون هم عنه وكم مرة يتبادلون القبل... نحتاج إلى شيء آخر هنا: أن نبتعد مسافة عن ذلك الانطباع الشخصي بالمطلق الذي تتركه سعادة العروسين على الأشخاص

الذين لم يصبحوا ساخطين متشائمين بعد... فالذاتية شيء مريع، وكفاها سببًا لذلك أنها تفضح الكاتب المبتدئ بكل نقائصه.

جمهور الكاتب

رسالة إلى أليكسي سوفورين، موسكو، 20 كانون الأول 1888

تقول إن على المرء ألا يكتب للنقاد، بل للعامة، وإنه من السابق لأوانه لي أن أبدأ بالتذمر. وإني لأحب بالطبع أن أظن أنني في الحقيقة أعمل لأجل العامة، ولكن كيف لي أن أعرف أن هذا فعلًا ما أفعله؟ فأنا نفسي لا ألقى أي رضى من عملي، ربما لأنه تافه أو لسبب آخر ما. بينما يعاملنا العامة (وأرجو أن تلاحظ أنني لم أُسمِّهم «قاعدة») بلا أمانة ولا صدق ولن يخبرونا الحقيقة أبدًا، لذا فلا سبيل لمعرفة إذا ما كانوا يحتاجون إليَّ أم لا. بينما قد يكون من السابق كثيرًا لأوانه أن أتذمر، فإن الأوان لا يكون سابقًا أبدًا لأتساءل إذا كان ما أفعله عملًا جادًا أم مجرد لعبة. لا يقول النقاد أي شيء، والعامة يكذبون، ويخبرني إحساسي الخاص أنني أضيع وقتي على الترهات. أأنا أتذمر؟ لا أذكر نبرة رسالتي، ولكن لو كنت أتذمر فأنا لا أفعل ذلك لنفسي وحسب، بل كذلك لكل إخوتنا في الكتابة، الذين أشعر تجاههم بشفقة لا نهائية.

رسالة إلى دميتري غريغوروفيتش، 12 كانون الثاني 1888

اخترت لافتتاحيتي في المجلات الأكاديمية السميكة[1] الكتابة عن السهوب، التي لم تكن قد وُصِفت منذ زمن بعيد... وقد خرجت كل صفحاتي مضغوطة، كما لو كانت مكثفة؛ تتزاحم فيها الانطباعات واحدها فوق الآخر، وتتراكم، ويعصر بعضها بعضًا؛ والمَشاهد أو –كما قد تسميها– الومضات، ملتصقة بعضها ببعض، بلا فواصل، وهي مرهقة إلى حد كبير. ليس الأثر الفعال أثر صورة، بل أثر كاتالوج جاف مُفصَّل من الانطباعات، في ما يشابه رسم الخطوط العريضة. وبدل أن أقدم للقارئ صورة فنية تكاملية للسهوب، فقد قدمت له «موسوعة عن السهوب». وقد أخفقت المحاولة الأولى. ولكن لم تثبط عزيمتي. من يدري، لربما كان حتى

---

(1) كانت «المجلات السميكة» (*tolstye zhurnaly*) مجلات دورية من أكثر من مئتي صفحة، وكانت تمثل الحياة الثقافية لروسيا الإمبراطورية. وكانت هذه المجلات الشهرية تقدم ملخصات للأدب الخيالي، وغير الخيالي، والشعر، والنقد، ومقالات عن كل شيء من الفلسفة إلى الهندسة الزراعية، وتُوزَّع للمشتركين عبر بائعي الكتب، فأتاحت مواد وموضوعات لنقاشات لا تنتهي. ومن بين أكثر المجلات السميكة تأثيرًا في القرن التاسع عشر: «هيرالد أوف يوروب – *Vestnik Evropy*» (أي مذيع أوروبا)، و«لايبراري فور ريدينغ – *Biblioteka Dlya Chteniya*» (أي مكتبة القراءة)، و«نوتز أوف ذا فاثرلاند – *Otechestvennye Zapiski*» (أي ملاحظات أرض الآباء)، و«ذا كونتيموراري – *Sovremennik*» (أي المعاصر)، و«راشان مسنجر – *Russkiy Vestnik*» (أي الرسول الروسي)، و«راشان ثوت – *Russkaya Mysl*» (أي الفكر الروسي). [ل. ل.]

للموسوعة فائدة. ربما فتحت بصائر معاصري وأرتهم الغنى وعروق الجمال السخية التي لم تُمَس بعد والمجال اللامحدود الذي لا يزال مفتوحًا أمام الفنان الروسي. إذا كانت حكايتي الصغيرة تُذكِر زملائي بالسهوب التي نسوها، حتى ولو استطاعت إحدى «الموتيفات»[1]، التي رسمت ظلالها بخفة وغموض، أن تلهم شاعرًا ما، مهما صغر، أن يفكر، فإن هذا كل ما أريده من مكافأة. أنت –أنا أعلم– ستفهم سهوبي وستسامح خطاياي، التي ارتكبتها دون عمد، برضاك. خطاياي غير مقصودة لأنني –حسب ما بدأت للتو بفهمه– *لا أعرف بعد كيف أكتب قطعًا أكبر.*

اعرف قراءك

رسالة إلى مكسيم غوركي، 27 حزيران 1899 [2]

أتنوي السير في أرجاء روسيا؟ أتمنى لك رحلة ممتعة، أرجو لك الأفضل، مع أنه يثير دهشتي؛ لأنك ما دمت صحيحًا معافى وبكامل حيويتك فقد يكون من الأفضل لك دراسة الناس الذين يقرؤون أعمالك فعلًا، بدلًا من قضاء عامين وأنت تسير أو تركب عربات

---

(1) الموتيفات، بالإنجليزية motif: موقف أو حدث قصصي أو فكرة أو صورة نمطية أو عبارة لغوية أو نمط معين من الشخصية مما نجده ماثلًا ومتكررًا في أعمال أدبية متعددة. (المترجم)

(2) Perepiska A. P. Chekhova" ("Pis'ma Chekhova"), no. 2850, p." /137, available at: http://www.dushu.com.ua

الدرجة الثالثة. إذا -بعد ذلك- ظللت تشعر أنك تريد أن تسير ذلك المسير، فافعل، بلا تردد.

الكتابة للضليعين

رسالة إلى ياكوف بولونسكي، موسكو، 18 كانون الثاني 1888

بالمناسبة، أنا الآن أعمل على قصة طويلة ستظهر غالبًا في مجلة «نورثرن هيرالد»[2][1]. وفي روايتي القصيرة[3] هذه، أصف السهوب، وسكان السهوب، وطيورها، ولياليها، وعواصفها، إلخ. إنني مستمتع بالعمل، ولكنني أخشى ألا تكون نبرتي متجانسة؛ وذلك لأنني غير معتاد على كتابة القطع الطويلة، ولأنني أُصاب بالتعب، ولا أقول كل ما ينبغي أن يُقال، ولست جادًا بما فيه الكفاية. يوجد كثير من الفقرات التي لن يفهمها نقادي وقرائي، وأخرى سيجدونها تافهة، ولا تستحق الاهتمام، ولكنني أستمتع بترقب لحظة فهم تلك الفقرات ذاتها وتقديرها من قبل اثنين أو ثلاثة من الضليعين بالأدب، وذلك سيكفيني. ولكن بالمجمل، فإن روايتي القصيرة هذه لا تلبي تطلعاتي. إنها بالية، ومملة، وموغلة في التخصص. إن موضوعًا كالسهوب، ببيئتها الطبيعية وأهلها، شديد التخصص وعديم الأهمية بالنسبة إلى قراء اليوم.

---

(1) وتعني «نذير الشمال». (المترجم)

(2) كانت «ذو نورثرن هيرالد – *Severniy Vstnik*» (أي مذيع الشمال) مجلة سميكة ليبرالية تنشر في سان بطرسبرغ من 1885 حتى 1898. [ل. ل.]

(3) أي النوفيلّا (Novella). (المترجم)

ماذا نكتب، وكيف نكتب

ما لا يجب فعله في الكتابة

من كتاب دفاتر الدكتور تشيخوف، ص. 125

أعفِني، يا إلهي، من إطلاق الأحكام أو التحدث عن الأشياء التي لا أعرفها ولا أفهمها!

بلا حبكة، ولا خاتمة

رسالة إلى ألكسندر تشيخوف، بابكينو، 16 حزيران 1887

مبارك لك افتتاحيتك في صحيفة «نيو تايمز»[1]. ولكن، أخبرني لماذا لم تنتقِ موضوعًا جادًّا؟ إن صياغتك رائعة، ولكن شخصياتك متخشبة، وموضوعك مبتذل. *أي طالب ثانوي عادي كان بوسعه فعل أفضل من ذلك*... عليك أن تأخذ شيئًا عاديًّا، شيئًا من الحياة اليومية، بلا حبكة، ولا خاتمة.

---

(1) كانت «نيو تايمز – *Novoye Vremya*» (أي الأوقات الجديدة) في سان بطرسبرغ، وهي أكبر صحيفة أخبار في روسيا، مملوكة من قبل أليكسي سوفورين، الذي كان أيضًا رئيس تحريرها. كانت الجريدة، ومع أنها مناصرة للحكومة، ويمينية، ومعادية للسامية في كثير من الأوقات، ورجعية، تعتنق سياسة تنويرية ثقافية وفعلت كثيرًا لأجل رعاية مواهب الكتّاب الشباب. [ل. ل.]

تفاهات الحياة اليومية

رسالة إلى أليكسي سوفورين، موسكو، 18 كانون الأول 1893

لاقت مسرحية بوتابينكو نجاحًا متواضعًا[1]. لا تمتلك المسرحية شيئًا محددًا، ولكن هذا الشيء ليس تائهًا في كومة العناصر السخيفة الغريبة (على سبيل المثال: الاستشارة الطبية، التي كانت غير واقعية بشكل مثير للسخرية) والخطابات ذات النكهة الشكسبيرية. الأوكرانيون عنيدون كالبغال؛ إنهم معجبون بروعة تصريحاتهم ويُقدّرون حقائقهم الأوكرانية السامية إلى درجة أنهم مستعدون للتضحية بالأرجحية الفنية وحتى الفطرة السليمة لأجلها. حتى إن ثمة قولًا يصف ذلك: «شعلة الحقيقة تحرق اليد التي تحملها». كان الفصل الثاني أنجح الفصول؛ هنا تمكنت تفاهات الحياة اليومية أخيرًا من اختراق الحقائق الأَلِقة والسامية.

القراءة، المشاهدة، الإصغاء

رسالة إلى أليكسي سوفورين، موسكو، 9 آذار 1890

في ما يخص «سخالين»... أريد أن أكتب ما لا يقل عن مئة صفحة أو مئتين، وبذلك أستطيع رد بعض ما أدين به للطب، الذي تصرفت تجاهه -كما تعلم- كالخنزير. قد لا ينتهي بي المطاف

(1) كان إغناتي نيكولايفيتش (1826 - 1929) كاتبًا مبالغًا في تقديره يكتب الأدب القصصي والمسرحيات، ومن أعماله «ابنة الجنرال» (1892)، وهو العمل الذي يشير إليه تشيخوف هنا. [ل. ل.]

بكتابة أي شيء، ولكن مع ذلك، فإن الرحلة ذاتها لن تفقد أيًّا من جاذبيتها؛ فمن خلال القراءة والمشاهدة والإصغاء، سأكتشف وأتعلم كثيرًا. إنني لم أغادر إلى الآن حتى، ولكن بفضل الكتب، التي وجب عليَّ قراءتها، تعلمت كثيرًا عن الأشياء التي يجب على من لا يعرفها أن يُعاقَب بالجلد أربعين جلدة، ولكنني للأسف كنت قد بلغت من الجهل أن لم أتعلمها قبل ذلك.

كل أشكال الموضوعات

رسالة إلى ماريا كيسليوفا[1]، موسكو، 29 أيلول 1886

اكتبي عن كل أشكال الموضوعات: المضحكة، والمثيرة للشفقة، والحسنة، والقبيحة. أرسلي [إليَّ] قصصك، ومسوداتك، ونوادرك، ودعاباتك، وتورياتك، إلخ. إلخ.

لا تُلمِّع

رسالة إلى ألكسندر تشيخوف، موسكو، 11 نيسان 1889

لا تسوِّ الحواف الخشنة، لا تُلمِّع؛ كن فوضويًّا وجريئًا. فالوجازة أخت الموهبة.

---

(1) كانت ماريا كيسليوفا واحدة من كثير من النساء المثقفات البارعات اللواتي كان تشيخوف –وهو رجل يهتم بالذكاء والجمال الأنثوي– يغازلهن بمداعبة خلال أيام عزوبيته الطويلة. وغالبًا ما كانت كيسليوفا، وهي كاتبة بارعة، تلجأ إلى تشيخوف طلبًا للنصح. [ل. ل.]

ليس ما رأيت، بل كيف رأيت

رسالة إلى سوفورين، س. س. بايكال، مضيق تارتار، 11 أيلول 1890

لقد رأيت *كل* شيء، لذا فليست مسألة *ما* رأيت، بل *كيف* رأيت.

قصقِص بلا رحمة

رسالة إلى أليكسي سوفورين، موسكو، مضيق تارتار، 6 شباط 1889

إن روحي مليئة بالكسل والشعور بالحرية؛ فها هو دمي يسارع لملاقاة الربيع، ولكن أظل أعمل. أنا أُحضِّر مواد مجلدي الثالث. أنا أقصقص بلا رحمة؛ فقد حدث شيء غريب: لقد طورت جنونًا بالإيجاز. مهما يكن ما أقرؤه –سواء كان من كتابتي أو كتابة غيري– ينتابني شعور بأن كل شيء طويل جدًّا.

شرطة الأدب

رسالة إلى ماريا كيسليوفا، موسكو، مضيق تارتار، 14 كانون الثاني، 1887

ليس ثمة قوة شرطية يمكنها أن تعد نفسها كفؤة في عالم الأدب. أنا أتفق: ماذا بشأن كل هؤلاء الأدعياء الذين يشقُّون طريقهم كالديدان إلى ميدان الأدب باستمرار؟ من المستحيل الاستغناء عن اللجام والسوط. ولكن، كيفما نظرت إلى الأمر، ليس من شرطة أدب أفضل من الناقد وضمير الكاتب.

الإيجاز

رسالة إلى ألكسندر تشيخوف، موسكو، مضيق تارتار، 4 كانون الثاني، 1886

لا تعطِ أحدًا الإذن بتقصير قصصك أو مراجعتها... من الصعب منع الإذن، ومن الأسهل بكثير أن تلجأ إلى الوسيلة المفيدة للقطع والتشذيب حتى *أقصى قدر ممكن* (باللاتينية: *ne plus ultra*) بأقصى ما تستطيع وأن تُجري مراجعاتك الخاصة. كلما قصصت أكثر نُشِرت قصصك أكثر... ولكن أهم شيء على الإطلاق أن تبقى ثاقبًا، ومتيقظًا، ومكبًّا على مهمتك بحرارة. أعد الكتابة خمس مرات إذا احتاج الأمر، وقصقِص، إلخ. وضع في اعتبارك أن كل بطرسبرغ تراقب عمل الأخوين تشيخوف.

اشهد، لا تحكم

رسالة إلى أليكسي سوفورين، سومي، 30 أيار 1888

في رأيي، ليست مهمة الكاتب أن يحل مشكلات كوجود الإله، أو التشاؤم، إلخ. تنحصر مهمة الفنان في أن يسجل من قال أو فكر عن الله أو عن التشاؤم وتحت أي ظروف فعل ذلك. وعليه ألا يصدر الأحكام على شخصياته ولا كلماتهم، بل أن يكون شاهدًا محايدًا وحسب. يتناهى إلى مسمعي روسيان يتبادلان نقاشًا مشوشًا وغير حاسم عن التشاؤم، فأكون ملزمًا بالواجب بأن أنقل هذه المحادثة بالضبط كما سمعتها. أما تقييمها فهو وظيفة هيئة القضاء،

أي القارئ. يشترط عليَّ عملي شيئًا واحدًا فقط: أن أكون موهوبًا، أي أن أميز بين الأدلة ذات الصلة، وغير ذات الصلة؛ أن أضيء الشخصيات، وأن أتحدث بلغتهم. ينتقدني شخيغلوف-ليونتييف لإنهاء إحدى قصصي بجملة: «لا يمكنك حقًّا تفسير سبب حدوث الأشياء في هذا العالم». في رأيه، يجب على الكاتب، الذي هو عالم نفس، أن يشرح، وإلا فلا يحق له أن يسمي نفسه عالم نفس. وأنا أختلف. لقد حان الوقت للكتَّاب -وخاصة للفنانين الحقيقيين منهم- أن يعترفوا أنه من المستحيل شرح أي شيء. لقد أقر سقراط بذلك منذ زمن بعيد، كما فعل فولتير. وحده الجمهور يعتقد أنه يعرف ويفهم كل ما يجب معرفته وفهمه. وكلما ازداد غباؤه، ظن أنه أكثر انفتاحًا. ولكن إذا اعترف فنان يثق به الجمهور أنه لا يفهم أي شيء مما يرى، فإن محض هذه الحقيقة ستسهم إسهامًا عظيمًا في مجال الفكر، وستشكل خطوة عظيمة إلى الأمام.

من الحلم إلى القصة

رسالة إلى أليكسي سوفورين، مليخوفو، 25 كانون الثاني 1894

ما كتبت «الراهب الأسود» تحت تأثير الكآبة، بل في حالة تأمُّل يقظ تمامًا[1]. شعرت كأني أقدم صورة عن جنون العظمة.

---

(1) في «الراهب الأسود» «Chornyj monakj, 1894»، يتوسع تشيخوف في استكشاف الكليشيهات الرومانسية، العبقري السيكوباثي المبدع! وتقدم القصة، مستفيدة من معرفة كاتبها بالعلم الطبي المعاصر، رؤية بعيدة النظر تستكشف القضايا الاجتماعية والبيئية. [ل. ل.]

راودتني صورة الراهب الذي يطفو فوق حقل في المنام، وعندما استيقظت، أخبرت ميشا[1] عنه. لذا رجاءً أخبر آنا إيفانوفا[2] أن أنطون بافلوفيتش لم يفقد بعد -ولله الحمد- عقله، وأنه يفرط في الأكل على العشاء ولذلك يرى الرهبان في أحلامه.

ليس على الفن أن يحل المشكلات

رسالة إلى أليكسي سوفورين، موسكو، 27 تشرين الأول 1888

لا تخلو عظاتي من الهرطقات، ولكنني لم أتمادَ أبدًا، ولا مرة واحدة، إلى حد إنكار أن الأسئلة الصعبة ليس لها مكان في الفن؛ ففي محادثاتي مع زملائي الكتَّاب، أصر دائمًا أنه ليس من مهمة الفنان حل الأسئلة المتخصصة الدقيقة. من السيئ للفنان أن يعالج ما لا يفهمه. لدينا أخصائيون للتعامل مع الأسئلة الاختصاصية، واتخاذ القرارات بشأن كوميونات الفلاحين، ومصير الرأسمالية، وشرور إدمان الكحول، والجِزَم، وشكاوى النساء هي وظيفتهم هم. على الفنان ألا يصدر أحكامه إلا على ما يفهمه؛ إن مجال خبرته محدود مثل أي مختص آخر، وهذا ما أكرره وأؤيده باستمرار. أي شخص يقول إن مجال الفنان لا يترك مجالًا للأسئلة، بل يتعامل حصرًا مع الإجابات، لم يقم قط بأي كتابة ولم يفعل أي شيء متعلق

---

(1) شقيق تشيخوف الأصغر، ميخائيل بافلوفيتش. [ل. ل.]

(2) زوجة أليكسي سوفورين الأولى. آنّا إيفانوفا سوفورينا (وكنيتها قبل الزواج بارانوفا، 1840 - 74) كانت كاتبة موهوبة ومترجمة لأعمال جولز فيرن (من بين آخرين). وكانت زوجته الثانية أيضًا آنا إيفانوفا (1858 - 1936). [ل. ل.]

بالتصوير. الفنان يراقب ويختار ويخمن ويرتب، وكل واحدة من هذه العمليات يسبقها فرض سؤال كنقطة انطلاق لها. إذا لم يطرح على نفسه سؤالاً في البداية، فليس لديه ما يخمنه ولا ما يختاره.

أنت محق في مطالبتك بأن يكون المؤلف مدركًا لما يفعله، ولكنك تخلط بين مفهومين: *حل المشكلة* من جهة، و*صياغة المشكلة صياغة صحيحة* من جهة أخرى. والأخير فقط هو المطلوب من الفنان. لم تُحَل ولا مشكلة واحدة في «آنا كارنينا» ولا «يفغيني أونيغين»، ومع ذلك فإن الروايتين لا تزالان ترضيانك بالكامل لأن كل المشكلات التي تطرحانها مصاغة صياغة صحيحة[1]. من واجب المحاكم أن تصوغ المشكلات صياغة صحيحة، ولكن الأمر متروك لأعضاء هيئة المحلفين لحلها، كلًّا حسب ذوقه الخاص.

رسم الحياة بصدق

رسالة إلى أليكسي بليشكييف، موسكو، 9 نيسان 1889

قفزت روايتي قفزة بارزة إلى الأمام ثم جنحت بانتظار عودة المد[2]. أنا أهديها لك، ولكنني سبق أن كتبت لك حول هذا الموضوع. كأساس لروايتي، سأقضي على حياة بعض الطيبين:

---

(1) أصبحت كل من «يوجين أونيجين – 1833» (*Evgeniy Onegin*)، رواية أ. س. بوشكين التي كتبها شعرًا، و«آنا كارنينا» (1877) لمؤلفها ليو تولستوي من الكلاسيكيات الخالدة فور صدورهما وأصبحتا المعيار للبراعة الجمالية الفنية عند ظهورهما. [ل. ل.]

(2) كان العنوان المبدئي لهذه الرواية «قصص من حيوات أصدقائي». ولكن بعد سنتين من العمل، قرر تشيخوف تدمير المخطوطة؛ خوفًا من عدم تجاوزها للرقابة. [ل. ل.]

شخصياتهم، وأفعالهم، وكلماتهم، وأفكارهم، وآمالهم. إن غايتي أن أرمي عصفورين بحجر واحد: أن أرسم الحياة بصدق وفي الوقت نفسه أن أُظهِر مدى انحراف هذه الحياة عن القاعدة. لا يمكن الوصول إلى القاعدة بالنسبة إليَّ، كما هو الحال بالنسبة إلى أي منا. نحن نعلم ما هو التصرف غير الشريف، ولكننا لا نملك أدنى فكرة عما هو الشرف ذاته. أنا أنوي أن ألتزم بإطار قريب من قلبي ومُجرَّب من أشخاص أقوى وأذكى مني.

سقراط والطباخ

رسالة إلى أليكسي سوفورين، مليخوفو، 2 كانون الثاني 1894

إن الكتابة عن سقراط أسهل من الكتابة عن سيدة شابة أو طباخ.

متى وكم نكتب؟

انتظر عامًا

رسالة إلى إلينا شافروفا[1]، مليخوفو، 28 شباط 1895

أنت محقة؛ فهو موضوع محفوف بالمخاطر[2]. لا يمكنني أن أخبرك بأي شيء قطعي، ولكن يمكنني فقط أن أنصحك أن تحبسي القصة في صندوق وتبقيها هناك عامًا، عندها فقط عليك أن تعيدي قراءتها.

مستودع الكاتب

رسالة إلى أليكسي سوفورينا، موسكو، 27 تشرين الأول 1888

يخبرني ضميري –مع أنني تلقيت الجائزة[3]– أن مسيرتي في مهنة الأدب لم تبدأ بعد حتى. تضج في رأسي حبكات خمس روايات قصيرة وروايتين طويلتين. وُلِدت إحدى الروايتين منذ زمن بعيد

(1) كوَّنت إلينا شافروفا، وهي صديقة أخت تشيخوف ماريا، إعجابًا شديدًا بالكاتب في سنوات مراهقتها. وقد عيَّن تشيخوف نفسه لكثير من السنوات قارئها وناقدها ومعلمها ومحررها و«وكيلها». وفي كتاباته، خاطبها «الزميلة فائقة الاحترام» ويوقع تحت اسم «السيد العزيز». [ل. ل.]

(2) داء الزهري (أو السفلس) هو الموضوع المعني هنا. [ل. ل.]

(3) جائزة بوشكين؛ انظر الملاحظة 4. [ل. ل.]

إلى درجة أن عدة شخصيات قد كبرت في السن ولم تعد تنتمي إلى العصر حتى قبل أن تُتاح لها فرصة اتخاذ شكلها على الورق. في رأسي، جيش كامل من الناس يتوسلون للخروج ولا ينتظرون سوى إشارتي. كل ما كتبته حتى هذه اللحظة هراء بالمقارنة مع ما كنت أود كتابته وما كانت ستشغفني كتابته... لا أحب حقيقة أنني ناجح؛ فالحبكات، التي لا تزال في رأسي، تتبرم بضيق وحسد من تلك التي كتبتها قبلها. يزعجني الاعتقاد بأن كل الترهات قد كُتِبت بالفعل بينما لا تزال المواد الجيدة جاثمة في المستودع كالمخزون غير المباع. بالطبع في تذمري كثير من المبالغة، وفيه أيضًا كثير مما لا يتجاوز كونه *انطباعي الشخصي*، ولكن فيه أيضًا حصة –حصة معتد بها– من الحقيقة. فما الذي أعنيه عندما أقول حصة معتد بها؟ إن الصور، التي تراودني، من أفضل الصور، فأحبها وأحتفظ بها بغيرة بدل أن أهدرها أو أريقها على «حفلة عيد سَمِيّ»[1] ما[2].... إذا كان حبي خطأ، فأنا مخطئ، ولكنه من الممكن تمامًا ألا يكون كذلك! إما أنني أبله وأحمق مغرور، أو أنا كائن حي قادر على أن يصبح كاتبًا جيدًا. كل ما أكتبه في الحاضر يضجرني ويجعلني غير مبالٍ، ولكن كل ما لا يزال في رأسي يهمني، ويحركني، ويثيرني.

---

(1) حفلة عيد السمي هي حفلة تُقام للأبناء في يوم القديس الذي سُمِّيَ المولود على اسمه. (المترجم)

(2) كانت «حفلة عيد السمي» «Imeniny، 1888»، التي تتردد فيها أصداء رواية تولستوي «آنا كارنينا» وتضم مقاطع سخرية ناعمة، إحدى أكثر قصص تشيخوف «العيادية» إبداعًا في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر وبدايات تسعينياته. [ل. ل.]

وقد استنتجت من كل هذا أن كل من هم سواي على المسار الخاطئ وأنني الوحيد الذي يعرف سر ما يجب أن يُفعَل. وهذا على الأرجح ما يظنه معظم الكتَّاب. على أي حال، هذا هو نوع المسائل الذي يقود الشيطان نفسه للجنون.

خمسة أيام أو ستة

رسالة إلى ألكسندر لازاريف ـ غروزينسكي[1]، موسكو، 3 آذار 1890

لكتابة قصة، تحتاج إلى خمسة أيام أو ستة، وفي أثناء هذه الفترة، عليك أن تفكر فيها كل لحظة، وإلا لن تستطيع أبدًا أن تصوغ جملًا جيدة. وعلى كل جملة، قبل أن تبلغ الصفحة، أن تمضي يومين في دماغك، تستلقي بسكون تام وتزداد وزنًا. من نافلة القول بالطبع أنني أكسل من أن أراعي قاعدتي حتى، ولكنني أوصي بها الكتَّاب الشباب، خصوصًا أني خبرت نتائجها المفيدة مباشرة وأعلم أن المسودات العريضة لكل الفنانين الحقيقيين فوضى من المحذوفات والتصحيحات، مظللة من أولها إلى آخرها برقع من الشطوب والإضافات المشطوبة بدورها والمشوهة.

(1) يذكر لازاريف ـ غروزينسكي في مذكراته مساعدة تشيخوف في نشر قصصه، وحبه لزراعة الفطر، وحس الدعابة الخبيث لديه. [ل. ل.]

سنة وستة أشهر

رسالة إلى ليديا أفيلوفا، سان بطرسبرغ، 15 شباط 1895

اكتبي روايتك. اعملي على كتابتها لعام واحد. ثم أمضي نصف شهر في قصقصتها، وبعد ذلك فقط يمكنك نشرها. أما الحال الآن فالوقت الذي قضيته في تفصيل عملك قليل جدًّا، في حين أن ما على الكاتب ليس هو أن يكتب بقدر ما أن يطرز على الورق؛ يجب أن يكون العمل شاقًّا، ومجهدًا.

المواعيد النهائية

رسالة إلى أليكسي سوفورين، موسكو، 21 شباط 1886

ما أكتبه قليل نسبيًّا: لا يتجاوز قصتين شديدتي القصر أو ثلاثًا في الأسبوع. سأجد طريقة لأتيح الوقت للكتابة لصحيفة «نيو تايمز»، ولكنني سعيد بأن التسليم على المواعيد النهائية ليس شرطًا من شروطك المسبقة لنشري في صحيفتك؛ فالمواعيد النهائية تنتج التسرع والشعور بثقل عظيم يضغط على رقبتي، وكل منهما يعترض سير كتابتي... شخصيًّا، لا تناسبني المواعيد النهائية ببساطة لأنني طبيب أمارس مهنتي... لا أستطيع أن أعد بأنني غدًا قد لا أُضطَر إلى قضاء يومي بالكامل بعيدًا عن منضدة كتابتي... ولذا الخطر قائم دائمًا بأني قد أفوت الموعد النهائي أو أتأخر عن الجدول.

رسالة إلى أليكسي بليشكييف، موسكو، 9 نيسان 1888

على أي حال، أرجو أن تعلم آنا ميخايلوفنا [إفريينوفا][1] أنني وإن لم أكن مستعجلًا في الوفاء بوعدي، فمرجع ذلك فقط إلى أنني غير راضٍ عن عملي. وسأرسله سرعان ما أكون راضيًا أو شبه راضٍ عنه... كنت لأرسل إليها القصة الآن، ولكنني حقًّا لا أظن أن الاستعجال هنا من الحكمة. أنا حذِر وشكاك بطبيعتي، فأخاف الاستعجال، وعمومًا أخاف النشر. وأخشى دائمًا من أن الناس قد يضجرون مني وأتحول إلى أحد أولئك الكتاب الذين غدوا حطبًا لنيران ياسينسكي، أو مامين، أو بازهين، إلخ. والذين –على شاكلتي– «سبق أن أوقدوا آمالًا عظيمة»[2]. إن خوفي هذا متين الأساسات؛ إذ أنشر منذ وقت طويل، بنحو مئتي رطل من القصص المطبوعة، ولكن حتى في هذا التاريخ المتأخر لا يمكنني حقًّا أن أقول إنني أعرف مكامن قوتي وضعفي.

---

(1) أصبحت آنا ميخايلوفنا إفريينوفا (1844 - ؟) لاحقًا محررة مجلة سان بطرسبرغ «نورثرن هيرالد» في فترة 1889 - 90. [ل. ل.]

(2) كان إيرونيم إيرونيموفيتش ياسينسكي (1850 - 1930) كاتبًا صغيرًا منقلب الولاء وذا ارتباطات سياسية شديدة التأرجح، وكان يكتب تحت الاسمين المستعارين م. تشونوسوف ومكسيم بيلنسكي. كتب دميتري ناركيسوفيتش مامين (1852 - 1912) روايات عن الحياة في الأورال تحت الاسم المستعار مامين-سيبيرياك. وكان نيكولاي فيدوتوفيتش بازهين (1843 - 1908) ناجحًا بعض الشيء، وهو يكتب روايات مبنية على أعمال غيره. وكان مؤرِّخًا للحياة المعاصرة على طريقة «الواقعية الواعية - Sober Realism». [ل. ل.]

الفصل الثاني

أسئلة محددة

الحقيقة

شروط ستة

رسالة إلى ألكسندر تشيخوف، موسكو، 10 أيار 1886

إن «مدينة المستقبل» موضوع (ثيمة) رائع، وجديد وشائق. إذا لم تتكاسل فأظن أنك ستكتب قصة محترمة، ولكن تبًّا، ما أكسل عظامك! يمكن أن تكون «مدينة المستقبل» تحفة فنية، ولكن بشروط، وهي أن تكون: (1) خالية من ثورات الهذر السياسي-اجتماعي-اقتصادي، (2) موضوعية بالمطلق (3) تمثيلًا صادقًا للشخصيات والأشياء، (4) موجزة بالحد الأقصى (5) جريئة وأصيلة، بلا كليشيهات (6) صادقة.

لا أخصائي تجميل ولا فنان ترفيهي

رسالة إلى ماريا كيسليوفا، موسكو، 14 كانون الثاني 1887

إن ملاحظتك بأن العالم «يعج بالأشرار والشر» صحيحة؛ فطبيعة الإنسان غير مثالية، لذا سيكون غريبًا ألا نظهر سوى العناصر الصالحة. وإن تخيُّل أن الأدب مسؤول عن انتقاء «اللآلئ» من كومة من الأوغاد بمنزلة نفي الأدب بأكمله. يُدرَج الأدب ضمن الفنون لأنه يصور الحياة كما هي بالفعل. غايته هي الحقيقة: صادقة وغير

مشروطة. ومن الخطر حصر وظيفته بشيء متخصص كالتنقيب عن «اللآلئ»؛ فالأمر أشبه بأن نطلب من ليفيتان[1] رسم شجرة دون لحائها الداكن وأوراقها المصفرة. أوافقك أن «اللؤلؤة» شيء رفيع، ولكن الكاتب، في النهاية، ليس حلوانيًّا، ولا أخصائي تجميل، ولا فنانًا ترفيهيًّا، بل هو إنسان مرتبط بعقد يلزمه أن يفي لإحساسه بالواجب وأن يتبع أوامر ضميره. ما إن يدخل حتى لا يمكنه التراجع. ومهما بلغ من ذعره عليه أن يتغلب على حساسيته وأن يستعد ليلوث خياله في مستنقع الحياة... فهو لا يختلف عن أي صحفي عادي. ماذا كنت لتقولي إذا اقتصر الصحفي -بسبب الحساسية أو الرغبة في إرضاء قرائه- على الكتابة عن السياسيين الصادقين، والسيدات الرزينات، ورجال السكك الحديدية الفاضلين؟

في عين الكيميائي، كل ما في العالم نقي. ويجب على الكاتب أن يكون موضوعيًّا كالكيميائي؛ فعليه أن يحرر نفسه من الذاتية التي ترافق الحياة اليومية، ويجب عليه أن يعرف أن الروث يؤدي أكثر أدوار الطبيعة تقديرًا، وأن عواطف الشر لا تقل عن الفضائل في كونها جزءًا من الحياة.

---

(1) كان إسحاق إيليتش ليفيتان (1860 - 1900)، وهو أحد أفضل راسمي المشاهد الطبيعية في روسيا، صديقًا مقربًا لتشيخوف وشاطره العين الحساسة للألوان والأجواء المميزة لما بين السطور. [ل. ل.]

رسالة إلى غريغوري روسوليمو، يالطا، 11 تشرين الأول 1899

ليس لديَّ أدنى شك في أن عملي الطبي كان له أثر كبير على كتابتي؛ فقد وسَّع أفق ملاحظاتي كثيرًا، وأغناني بمعارف لا يدرك قيمتها لي ككاتب سوى طبيب زميل. وقد أدى أيضًا دور المبدأ المرشد لي في الفن؛ على الأرجح أن حميميتي مع الطب ساعدتني على تجنُّب كثير من الأخطاء. ودائمًا ما أبقتني ألفتي للعلوم الطبيعية والمنهج العلمي في وضعية الاستعداد. وقد حاولت أن أظل موافقًا للبيانات العلمية بقدر ما أمكن: وحيثما كان هذا مستحيلًا، فضَّلت ألا أكتب على الإطلاق. دعني أشير -في هذا الخصوص- أن الفن لا يسمح على الدوام بالوفاق التام مع البيانات العلمية؛ لا يمكن تمثيل الموت بالسم على المسرح كما يحدث بالفعل في الحياة الحقيقية. ومع ذلك، ينبغي إدراك شيء من الالتزام بالحقائق العلمية حتى لو ضمن أُطر الأعراف الفنية. بكلمات أخرى: يجب أن يستطيع القارئ أن يدرك أن الأعراف الفنية تؤدي دورها، ولكن الكاتب أيضًا واعٍ تمامًا لحقيقة الموقف الذي يمثله.

مثال

رسالة إلى أليكسي سوفورين، موسكو، 25 تشرين الأول 1891

لو كنت أعالج الأمير آندريه[1] لكنت شفيته. أستغرب أن أقرأ أن جرح الأمير –وهو رجل ثري تحت العناية الساهرة لطبيب، كما ترعاه ناتاشا وسونيا– انبعثت منه رائحة جثة كريهة. كم كان الطب عملًا رديئًا في تلك الأيام. لا شك أن لا وعي تولستوي، وفي أثناء كتابته روايته الرائعة، كان يمتلئ بالبغض للطب.

لا تخترع عناءات لم تتجشمها بنفسك

رسالة إلى ألكسندر تشيخوف، موسكو، 6 نيسان 1886

أين وجدت الزوجين في قصتك اللذين جعلتهما يناقشان مقالات علمية على العشاء؟ وأين -بحق السماء- يُفترَض أن توجد هذه المقالات العلمية؟ بحق الله، تحلَّ ببعض احترام الذات ولا تهذر بفمك إذا كان دماغك خارجًا للغداء. لا تكتب أكثر من قصتين في الأسبوع، واعمل على اختصارهما وتشذيبهما، واجعل لعملك قيمة. لا تخترع عناءات لم تتجشمها بنفسك، ولا تصف مشاهد لم تشهدها بنفسك؛ فالزيف في القصص أبهت بكثير منه في الحديث.

---

(1) الأمير أندريه، وناتاشا، وسونيا شخصيات في رواية ليو تولستوي «الحرب والسلم»، والتي تقع أحداثها في وقت حروب نابليون. [ل. ل.]

ضع في بالك –في كل حين– أن قلمك وموهبتك سيفيدانك في المستقبل أكثر بكثير من الآن، لذا لا تدنسهما. اكتب، ولكن انظر بعين الحذر إلى كل سطر لئلا تعثر... ولاحظ أنه، نظرًا إلى تحرُّرك من عبء المواعيد النهائية، يمكنك تخصيص عدة أمسيات لقطعة واحدة صغيرة.

لا كذب في الفن

رسالة غير مؤرخة [1900؟][1]

يجب على المرء ألا يكذب أبدًا. للفن هذه الخصوصية العظيمة؛ فهو ببساطة لا يحتمل الزيف. يمكن للمرء أن يكذب في الحب، والسياسة، والطب، يمكن للمرء أن يضل العامة أو الله حتى، ولكن لا كذب في الفن مطلقًا.

لا تكذب على نفسك

رسالة إلى أليكسي سوفورين، مليخوفو، 25 تشرين الثاني 1892

تذكَّر فقط أن الكتَّاب الذين ندعوهم «خالدين» أو «جيدين» وحسب، والذين يسكروننا، يتشاركون سمة واحدة شديدة الأهمية: كلهم يتحركون باتجاه نقطة معينة ويدعوننا لنتبعهم ويجعلوننا نستوعب –ليس بعقلنا وحسب، بل بكياننا كله– أن لديهم هدفًا

(1) كما هو مذكور في - F. Malcovati, "Introduzione" in Anton Cechov, *Racconti* (Milan: Garzanti, 1996), vol. 1, p. xxv.

محددًا، تمامًا كما هو حال والد هاملت، الذي كان لدى شبحه دافع ليأتي ويثير خيال هاملت. كلًّا حسب قدرته، يمتلك بعضهم أهدافًا ملموسة للغاية: كالقنانة، أو تحرير وطنهم الأم، أو السياسة، أو الجمال، أو القودكا ببساطة كما في حالة دنيس دافيدوف[1]. بينما أهداف بعضهم الآخر أكثر تجريدًا: كالإله، والحياة بعد الموت، ورفاه الإنسان، إلخ. أفضلهم على الإطلاق هم الواقعيون الذين يصورون الحياة كما هي، ولكن لأن كل حياة يخترقها الوعي بأهدافها الخاصة، فأنت تحس بالحياة لا كما هي وحسب، بل أيضًا كما ينبغي أن تكون، وهذا يأسرك. وماذا عنا نحن؟ نحن! نصور الحياة كما هي: نقطة انتهى. اضربنا، وعذِّبنا بالسياط، ما أنت بمزحزحنا. ليس لدينا أهداف أخرى، لا قصيرة المدى ولا بعيدة: لن تجد شيئًا في أرواحنا. ليس لدينا توجهات سياسية، ولا نؤمن بالثورة، لا يوجد إله، ولا نخشى الأشباح، وبالنسبة إليَّ فأنا لا أخاف حتى من الموت أو العمى. ذاك الذي لا يريد شيئًا ولا يأمل في شيء ولا يخشى شيئًا لا يمكن أن يكون فنانًا. ربما كان هذا مرضًا، ولكن لا يهم أيًّا كان ما تدعوه. المهم أن تدرك أن هذا وضع حرج. لا أستطيع التنبؤ بما سيحدث لنا في عشر سنوات أو عشرين.

---

(1) دنيس فاسيليفيتش دافيدوف (1784 - 1839)، شاعر غنائي موهوب، وعضو في «بلياد بوشكين» (البلياد هي الثريا، ويعود المصطلح إلى زمرة سابقة من سبعة من الشعراء الفرنسيين ظهرت في القرن السادس عشر [المترجم]) وأحد أبطال حرب 1812، ويُعرَف خصوصًا بأبياته التي يمتدح فيها النبيذ والنساء والغناء. [ل. ل.]

ربما يتغير شيء ما، ولكن من الطيش أن تتوقع أي شيء ذي قيمة أصيلة منا في الوقت الراهن، مهما بلغنا من الموهبة؛ فنحن نكتب بميكانيكية، راكعين خضوعًا للنظام القديم الراسخ الذي يفرض على البعض الوظائف البيروقراطية، وعلى غيرهم التجارة، وآخرين كتابة الرسائل... تعُدُّني أنت وغريغوروفيتش[1] ذكيًا. نعم أنا ذكي، أقلُّها ذكي بما يكفي لئلا أخفي مرضي عن نفسي أو أكذب على نفسي لأستر فراغي بخِرَق الآخرين.

خلِّص نفسك من العنف والزيف

رسالة إلى أليكسي بليشكييف، موسكو، 4 تشرين الأول 1888

لست ليبراليًا، ولا محافظًا، ولا تدرُّجيًا [في سياسة التغيير]، ولا راهبًا، ولا غير مبالٍ. أود أن أكون فنانًا حرًا ولا شيء آخر، وآسَف أن الله لم يعطِني القوة لأكون كذلك. أكره الزيف والعنف بكل أشكالهما، وأكن البغض نفسه لأمناء المقاطعات، ونوتوفيتش، وغرادوفسكي[2]. لا يسود المراء والغباء والتعسف في منازل التجار

---

(1) انظر فصل «الأسئلة العامة» رقم 5.

(2) كان الكاتب أوسيب كونستانتينوفيتش نوتوفيتش (1849 - 1914)، وهو زميل في ثانوية تاغانروغ للصِّبيان لفترة قصيرة ناشرًا لصحيفة «نيو تايمز – *Novoye Vremya*» ومؤلف مسرحيات ومنشورات شبه فلسفية موجهة إلى العامة. وقد كتب الصحفي غريغوري كونستانتينوفيتش غرادوفسكي (1842 - 1915) عددًا من العروض الدرامية الشعبية تحت الاسم المستعار «غامًا» وعددا من المسرحيات الضعيفة. ولم يكن أي منهما يتميز برفعة مبادئه. [ل. ل.]

وأقسام الشرطة وحسب، بل أشهدها في العلم، في الأدب، في جيل الشباب... ولهذا السبب لا أنحاز إلى رجال الشرطة ولا الجزارين، ولا العلماء، ولا الكتَّاب، ولا جيل الشباب. إن قدس الأقداس عندي هو جسم الإنسان، والصحة، والذكاء، والموهبة، والإلهام، والحب، والحرية المطلقة: الحرية من العنف والزيف، مهما اتخذا من أشكال. هذا البرنامج الذي كنت لألتزم به لو كنت فنانًا عظيمًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الوصف

أقتصر على الوصف

رسالة إلى دميتري غريغوروفيتش، موسكو، 9 تشرين الأول 1888

لم أُكوَن بعد وجهة نظر سياسية أو دينية أو فلسفية عن العالم؛ فأنا أغير آرائي كل يوم، ولذلك لا يسعني إلا أن أقتصر على وصف أبطال روايتي وهم يحبون ويتزوجون ويتكاثرون ويموتون ويتحدثون.

حاول ألا ترهق القارئ

رسالة إلى ألكساندر زيركيفيتش[1]، مليخوفو، 2 نيسان 1895

من الأوصاف الروتينية: «تألَّق الرف[2] بالكتب». لِمَ لا نقول ببساطة «رف الكتب»؟ ثم تكتب أن مجلدات بوشكين «منفصلة بعضها عن بعض»، وأن طبعة «المكتبة الرخيصة محشورة». ما

---

(1) ألكساندر زيركيفيتش، وعلى الرغم من كونه مستهلكًا متحيزًا للأدوات الثقافية فقد كان كاتبًا متثاقلًا تمكّن مع ذلك من نشر عدد لا بأس به من القصص. لم يرفض تشيخوف قط طلبًا لمشورة، ومن ثم فقد كانت طاولة كتابته دائمًا تعج بمخطوطات الكتّاب الطموحين. [ل. ل.]

(2) بالفرنسية: *étagère*، أي الرف المعلق المزين. (المترجم)

الفائدة؟ أنت فقط تشتت القارئ وترهقه بإجباره على التوقف وإعادة بناء «الإيتاجير» المتألق ومجلد *هاملت* المحشور في مخيلته. هذه المشكلة رقم واحد. أما المشكلة اثنان فأن هذه الأوصاف كلها معقدة، ومتكلفة، ومبتذلة. في هذه الأيام، وحدهن السيدات يكتبن «أجهَر الملصق» أو «وجه مُؤطَّر بالشعر».

رائحة البايغل

رسالة إلى مكسيم غوركي، يالطا، 15 شباط 1900

إن «ستة وعشرين رجلًا وفتاة»[1] قصة جيدة، ومن أفضل ما تطبعه (الحياة *Life*)، مجلة الهواة تلك. في قصتك، يكاد المرء يشعر بالمكان، ويشم رائحة البايغل[2].

رائحة الصيف

رسالة إلى أليكسي بليشكييف، موسكو، 3 شباط 1888

انتهت كتابة رواية «السهوب» وهي في البريد. كانت تتسع بالكاد لنكلة، والآن، فجأة، ثمة ما يكاد يكفي لدولار كامل. بدأت بقصد ثلاثين أو أربعين صفحة على الأكثر، وانتهيت إلى كتابة نحو ثمانين. أشعر بالإرهاق والنصَب من الإجهاد الذي لم أعتده في

---

(1) هذه فعلًا أحد أقوى قصص غوركي وأكثرها نشرًا في المختارات القصصية المختلفة وتدور حول رجال بائسين في أماكن بائسة. [ل. ل.]

(2) Bagels: نوع من الكعك اشتُهِر لدى المجتمعات اليهودية في بولندا. (المترجم)

كتابة شيء بهذا الطول؛ كان الطريق صعبًا، وأظنني كتبت كثيرًا من الهراء.

فضلًا كن متسامحًا!

إن موضوع «السهوب» نفسه ليس مهمًّا فعليًّا؛ لو لاقت القصة نجاحًا ولو متواضعًا، فسأستخدمها أساسًا لنوڤيلا أطول بكثير وسأستمر في تطويرها. لن تجد شخصية واحدة هنا تستحق اهتمامًا بالغًا أو مزيدًا من الشرح.

بينما كنت أكتب، راودني شعور أنني أستطيع فعلًا استنشاق رائحة الصيف والسهوب. ما أحسن الذهاب إلى هناك!

... إن «السهوب»، التي كتبتها، أقرب إلى أن تكون موسوعة عن السهوب من كونها قصة.

رائحة القش

رسالة إلى دميتري غريغوروفيتش، موسكو، 12 كانون الثاني 1888

اخترت لافتتاحيتي في المجلات الأكاديمية «السميكة» الكتابة عن السهوب، التي لم تكن قد وُصِفت منذ زمن بعيد. وفيها أصف المدى، والأفق الليلكي، ورعاة الغنم،... وعواصف الليل، ونزُل عابري السبيل، وقطارات العربات، وطيور السهوب، وما إلى ذلك. كل فصل قصة قائمة بذاتها، وكل الفصول مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بعضها ببعض كالحركات الخمس في الرقصة التربيعية

(الكادريل). أحاول أن أُوحِّد نغمتها وإيقاعها، وهو ما سيكون أسهل عليَّ إذا استخدمت شخصية واحدة تتخلل جميع الفصول. أشعر أنني تمكنت من حل عدد لا بأس به من المشكلات، وثمة مقاطع فاحت منها رائحة القش.

اللمس باليدين

رسالة إلى مكسيم غوركي، يالطا، 3 كانون الأول 1898

تسألني رأيي في حكاياتك. رأيي؟ أرى أن موهبتك تجاوزت أي شك، وكذلك لا شك في حقيقة أنها موهبة أصيلة، وعظيمة. وهي تظهر بشدة جبارة في قصتك «في السهوب» مثلًا، وقد شعرت فعلًا بالغيرة لأنك كتبتها بدلًا مني. أنت فنان ورجل ذكي. لديك حس لافت في الحقيقة. أنت تشكيلي، أي عندما تصف شيئًا فأنت تراه وتلمسه فعلًا بيديك. إن هذا لهُو الفن الحقيقي.

وصف الطبيعة: التفاصيل

رسالة إلى ألكساندر تشيخوف، موسكو، 19 أيار 1886

أعتقد أن على أوصاف الطبيعة أن تكون قصيرة ومباشرة. تركز الأوصاف الشائعة مثل: «أفاضت الشمس الغاربة المستحمة في أمواج من بحور الظلمات بالذهب القرمزي»، إلخ. و«زقزقت طيور السنونو على سطح الماء بمرح». يجب القضاء على مثل هذه الأوصاف الشائعة. في وصف الطبيعة، ركِّز على التفاصيل الدقيقة

وجمِّعها بطريقة يتسنى فيها للقارئ -بعد أن ينتهي من قراءته- أن يغمض عينيه ويرى الصورة كاملة. يمكنك أن تنتج انطباع ليلة مقمرة، مثلًا، بأن تكتب أن زجاجة القنينة المكسورة تلألأت كالنجوم على سد الناعورة، وأن الظل الأسود لكلب أو ذئب مر، وهكذا. تظهر حركية الطبيعة إذا لم تخشَ استخدام المقارنات بين الظواهر الطبيعية والأفعال البشرية.

وصف الطبيعة: البساطة

رسالة إلى مكسيم غوركي، يالطا، 3 كانون الثاني 1899

إن أوصافك للطبيعة فنية؛ فأنت رسام مشاهد طبيعية أصيل. ولكن استعاراتك المكنية المتكررة لصفات البشر (أنسنة الأشياء) -البحر يتنفس، السماء تتطلع، تتشمس السهوب، تهمس الطبيعة، تتحدث، تنتحب، وإلى ما هنالك- وهذه الأشكال من التشخيص تجعل أوصافك رتيبة بعض الشيء، مفرطة الحلاوة بعض الشيء، وغامضة. عند وصف الطبيعة، فإن أفضل ما ينتج الحيوية والتعبيرية التقنيات البسيطة، مثلًا: استخدام عبارات بسيطة مثل «غربت الشمس»، «حل الظلام»، «بدأت تمطر»، وما إلى ذلك. يميز هذا النوع من البساطة عملك بدرجة كبيرة جدًّا عن بقية الكتَّاب.

وصف الطبيعة: خير الكلام أقلّه

رسالة إلى ألكساندر زيركيفيتش، مليخوفو، 2 نيسان 1895

يجب أن تبدأ القصة بجملة: «سوموف، على ما يبدو، كان منزعجًا». كل ما سبق هذه الجملة–ما ذُكِر عن سحابة تسجد لنفسها، وعن العصافير، والحقل الممتد في الأفق– كل هذه العناصر مجرد التزام بالتقاليد الروتينية. أنت تمتلك فعلًا مشاعر تجاه الطبيعة، ولكنك لا تصفها كما تشعر بها. على أوصاف الطبيعة أن تكون بصرية قبل كل شيء، بحيث يمكن للقارئ أن يغلق عينيه فيتخيل على الفور المشهد الموصوف للتو؛ إذ لا يمكن لترسانة من العناصر –كالغسق، والظل الرصاصي الرمادي، والبركة، والبلل، والحور الفضي، والأفق المليء بالغيوم، والعصافير، والغابات البعيدة– أن ترسم ولا صورة لأنني مهما جهدت في المحاولة فإنني ببساطة لا أستطيع تصوُّر الأجزاء في كلٍ واحد متناسق. أظن أن شرط كون وصف الطبيعة مناسبًا ولا يفسد الأثر في القصص الشبيهة بقصتك هو أن يساعد في نقل المزاج العام، كما تفعل موسيقى الإلقاء في الخطابة. في مقاطع كتلك التي تصف نداء الاستيقاظ العسكري وإنشاد الجنود «أبانا»، حيث يعود القائد إلى الكتيبة ليلًا، وعندما يجر الجندي صباحًا إلى عقابه؛ في تلك المقاطع، تؤدي أوصافك للمشاهد دورها بمثالية وأنت فيها أستاذ صنعتك. وصف ومضات البرق الحراري فعال، ولكن لم يكن عليك ذكرها سوى مرة واحدة

فقط، كما لو كان ذلك مصادفة، ودون لفت الانتباه إليها، وإلا فإن هذا يضعف الانطباع الذي ترسمه ويفسد مزاج القارئ.

وصف الحالات العاطفية

رسالة إلى ألكسندر تشيخوف، موسكو، 19 أيار 1886

لا بد من التفاصيل في عالم النفس. فبالله عليك أعفِنا من العادي المبتذل. والأفضل أن تتجنب وصف الحالات العاطفية لأبطال روايتك؛ فالأجدر محاولة إيضاحها من خلال أفعالهم.

تفاصيل

رسالة إلى إيلينا شافروفا، سيربوخوف، 22 تشرين الثاني 1894

إذا كانت معرفة نقاط الضعف ما تريدينه حقًّا، فاسمحي لي أن أشير إلى واحدة تكررينها في كل قصصك: تعج مقدمة أوصافك بكتلة من التفاصيل. أنت دقيقة الملاحظة، وتكرهين أن تفارقي التفاصيل، ولكن ماذا عسى المرء أن يصنع؟ على المرء أن يضحي بالتفاصيل لأجل الكل؛ وسبب ذلك فيزيائي: على المرء أن يضع في باله وهو يكتب أن التفاصيل –حتى الشائقة منها– تنهك انتباه القارئ.

نزع ربطة العنق وفك أزرار المعطف

رسالة إلى لازاريف- غروزينسكي، موسكو، 20 تشرين الأول 1888

ليس وصفك للطبيعة سيئًا على الإطلاق؛ فمن الجيد أنك تخشى كل ما هو سطحي وتقليدي. ولكنك لا تطلق العنان لأحاسيسك. ونتيجة لذلك فإن أدواتك تفتقر إلى الأصالة. صِف النساء حتى يظن القارئ أنك قد نزعت ربطة عنقك وفككت أزرار معطفك، وكذلك افعل في وصفك للطبيعة. تحرَّر بعض الشيء.

الشخصيات

عدد الشخصيات

رسالة إلى ألكسندر تشيخوف، موسكو، 19 أيار 1886

لا حاجة إلى اللهاث وراء حشد من الشخصيات. اثنان فقط يجب أن يكونا في مركز الثقل: هو وهي.

ركِّز على شخصيتين رئيستين

رسالة إلى دميتري غريغوروفيتش، موسكو، 9 تشرين الأول 1888

كل الأفكار، كل النساء، والرجال، ومشاهد الطبيعة التي جمعتها لرواية ستبقى آمنة لم تُمَس. أعدك: لن أهدرهم على شيء تافه. تغطي الرواية عدة عائلات وحيًّا: بكل غاباته، وأنهاره، ومراكبه، وسككه الحديدية. وفي الحي، سيكون التركيز على شخصيتين رئيستين: ذكر وأنثى، وسيجتمع كل البيادق الآخرين حولهم.

شخصيات زائدة

رسالة إلى إيلينا شافروفا، مليخوفو، 28 شباط 1895

القصة هزيلة بعض الشيء؛ ففيها رائحة الوعظ الفاسدة، وتفاصيلها مبعثرة في كل الاتجاهات كالزيت المسكوب، ولا يمكن تمييز الشخصيات بعضها من بعض؛ فبعض الشخصيات –كأخي البطلة، مثلًا، أو أمها– زائدة. وبعض الفصول زائدة: مثل الأحداث والمحادثات قبل الزفاف، وعلى ذكره؛ كل ما يتصل بالزفاف زائد أيضًا.

شخصيات حية

رسالة إلى ألكساندر تشيخوف، بابكينو، 2 آب 1887

كما هو حال كل شخصياتك الأنثوية، ليست «أوليا» ناجحة. من المؤكد أنك لا تعرف النساء. يا روحي وعزيزي، لا يمكنك التمسك بنوع واحد فقط من الشخصيات الأنثوية إلى الأبد. في ما عدا أيامك في الثانوية، أخبرني أين ومتى تلتقي بنساء مثل «أوليا»؟ ألم يكن من الأذكى بكثير والأكثر إبداعًا أن تُزاوِج بين ذلك «التتري» أو «البابا» وامرأة محبوبة من لحم ودم بدلًا من تلك «المانيكان» الخشبية؟ إن «أوليا» تلك التي كتبتها إهانة للوحة «المنارة» العظيمة الخاصة بك. هذا ولم نذكر بعد حقيقة أنها دمية ضحلة ومبهمة في مقابل شخصياتك الأخرى، ومثلها بصحبتهم مثل حذاء مبلل مُطيَّن بين صف من الأحذية الملمعة. بحق الله، ليس في أي واحدة من

قصصك شخصية أنثى واحدة بشرية من لحم ودم؛ فكل نسائك كأنهن أصناف حلوى واخزة يثرثرن بلغة فنانات مسرح «الفودفيل» الاستعراضي المبتدئات... راجع ولا تنشر في «نيو تايمز» حتى تتأكد أنك قد صنعت شخصيات حية وأنك لا تزيف الواقع.

أعلام وخلفيات

رسالة إلى أليكسي سوفورين، موسكو، 27 تشرين الأول 1888

أبدأ كتابة القصة في 10 أيلول بنية إنهائها قبل 5 تشرين الأول كحد أقصى. وإذا فوَّتُّ الموعد النهائي فسأكون قد حنثت بوعدي، وسيؤول بي المطاف بلا نقود. أبدأ بهدوء، دون أن أعي ذاتي، ولكنني، في مرحلة ما في منتصف الطريق، أبدأ بالتوتر والقلق من أن تكون القصة طالت أكثر من اللازم. أذكر أن «نورثرن هيرالد» لا تمتلك كثيرًا من المال، وأنني أحد أغلى المشاركين فيها. ولذا تبدو البداية دائمًا واعدة أكثر، كما لو كنت أكتب رواية، أما المتن فمضطرب خجول، والخاتمة كانفجار المفرقعات النارية، تمامًا كمسودة قصيرة. سواء أعجبك ذلك أم لم يعجبك: عندما تُركَب القصة فإن أول ما تُعنى به هو الإطار. ومن حشد من الأبطال وأشباه الأبطال، تنتقي علَمًا واحدًا -زوجة أو زوجًا- وتضعه على خلفية ثم تطوره وتبرزه. أما بقية الشخصيات فتبعثرها على الخلفية كتفاصيل مهملة الأثر، فتنتهي إلى شيء أشبه بسماء الليل: قمر واحد كبير وسط حشد من النجوم الشديدة الضآلة. ولكن القمر لا يعمل وحده لأن

وجوده ليس له معنى إلا إن كان للنجوم معنى، بينما ليست النجوم واضحة بما يكفي... لذا فما عليَّ أن أصنع؟ لا أعلم. أنا لا أعلم وحسب. وما لي سوى أن أثق بقدرة الزمن على الشفاء.

أعلام وحشود

رسالة إلى مكسيم غوركي، يالطا، 9 شباط 1900

عليك أن ترى المزيد، وتعرف المزيد، وتوسع أفق معارفك. لديك خيال طائل اليد ومتين القبضة، ولكنه كفرن كبير لا يكتفي من الإيقاد. وهذا يُفهَم من كل أعمالك، لكن من قصصك على الأخص. لديك شخصيتان أو ثلاث في قصتك، ولكنهم يقفون على صعيد مختلف عن بقية الحشد. الواضح أن هذه الشخصيات –وهي وحدها– أصبحت حية في خيالك، بينما بقي الحشد بطريقة ما دون أن يُمَس. أستثني أعمالك القرمية (مثل «صاحبي في السفر»)، حيث لا يشعر القارئ بالشخصيات الرئيسية وحسب، بل بالحشد البشري الذي خرجوا منه أيضًا، وبالجو، والخلفية، وباختصار: بالكل.

السخرية من الشخصيات

رسالة إلى أليكسي سوفورين، مليخوفو، 24 شباط 1893

باستثناء أم بازاروف المسنة... والأمهات عمومًا –وخصوصًا سيدات المجتمع اللائي، ولأجل المصادفة، يتشابهن جميعًا (أم ليزا، أم إلينا)، وأم لافريتسكي، التي كانت أَمة في صباها، وهي الفلاحة

البسيطة- فإن كل نساء وبنات تورغينيف مصطنعات بشكل لا يُطاق و -اعذرني على قول ذلك- زائفات[1]. ليست ليزا وإلينا فتاتين روسيتين، بل كأنهما راهبتان بثياديَّتان مدعيتان[2] للقداسة تفيضان بادعاءات ومظاهر تتجاوز تمامًا موقعهما في الحياة. «إيرينا» في «الدخان»، و«أودينتسوفا» في «الآباء والبنون»، وكل تلك النساء المشتعلات، الشهيات، الفجعانات، المتطلبات أبدًا؛ هراء مطلق. ما عليك إلا استحضار «آنا كارنينا» لتولستوي، فتلقي بكل نساء تورغينيف الشابات، بأكتافهن المغرية وكل شيء، في درك الجحيم. في المقابل، فإن نساء تورغينيف السلبيات -اللواتي يرسمهن بصبغة كاريكاتيرية (مثل «كوكشينا») أو يسخر منهن (كمشاهد قاعة الرقص)- أحسن بشكل لافت ولا يمكن أن يكن أكثر دقة.

(1) يشير تشيخوف هنا إلى شخصيات في روايات «المشكلة» لإيفان تورغينيف (1818 - 83): لافريتسكي وليزا من «عش اللطيفين» (1859)، وإلينا من «في العشية» (1860)، وبازاروف، وأودينتسوفا، وكوكشينا من «الآباء والبنون» (1862)، وإيرينا من «دخان» (1867). ظهرت رواية تولستوي «آنا كارنينا» في أعداد من «الرسول الروسي - راشان ماسنجر» بين عامي 1873 و1877. [ل. ل.]

(2) نسبة إلى بيثيا، وهي في الأساطير الإغريقية الكاهنة الكبرى في معبد أبولو في دلفي، وكانت تلعب دور الوساطة الروحية بين الآلهة وزوار المعبد. (المترجم)

المسؤولون المحليون

رسالة إلى مكسيم غوركي، يالطا، 3 كانون الثاني 1899

لا تكتب أبدًا عن مسؤولي «الزيمتوف»[1]، فما من أسهل من الكتابة عن المسؤولين البغيضين. يعشق القراء هذا الموضوع، ولكن فقط أكثرهم إزعاجًا، وأقلهم موهبة.

الشخصيات الأنثوية

رسالة إلى فلاديمير كورولينكو، موسكو، 9 كانون الثاني 1888

إن قصتك «طريد سخالين»[2]، حسب ظني، أبرز عمل ظهر في الفترة الأخيرة... فما أمكنك من فنك في هذا الكتاب! ومن شدة اندفاعك، تمر أبرز عيوبك مر الكرام، مع أنها كانت لتؤدي إلى إلغاء من هم أقل منك فنًّا؛ فأنا مثلًا لم أنتبه إلا مؤخرًا إلى الغياب العنيد للشخصيات الأنثوية في كتابك بأسره.

---

(1) كان الزيمستفو، أو مجلس المقاطعة المنتخب، وحدة إدارية محلية تأسست في عام 1864 كجزء من الإصلاحات المرافقة لتحرير الأقنان في عام 1861، وظلت قائمة حتى عام 1917. كانت العضوية تقتصر على طبقة النبلاء والبرجوازيين. [ل. ل.]

(2) «طريد سخالين» («Sokolinets») واحدة من سلسلة من القصص التي بنى فيها المؤلف، فلاديمير كورولينكو، على تجاربه الخاصة في المنفى في سيبيريا. وقد أدى العمل المنشور في عام 1885 دورًا أساسيًّا في تطور تشيخوف، فألهم البناء الموسيقي لعمل «السهوب» وشكّل له الدافع للانطلاق في مشروع سخالين الخاص به. [ل. ل.]

رسالة إلى إلينا شافروفا، مليخوفو، 28 شباط 1895

أظن أيضًا أن لوم الناس على مرضهم ليس من شأن الفنان. أفأُلام إذا أُصيبت بالشقيقة؟ وهل يُلام «سيدور» لإصابته بالداء س[1]، وبأنه أكثر عرضة للإصابة به من «تاراس»؟ وهل تُلام «آكولينا» على السل الذي أوهن عظامها؟ لا يمكن لأحد أن يوجه اللوم، وإن أمكن لأحد فهم مسؤولو الصحة، وليس الفنانون.

إن تصرفات الأطباء في قصتك مثيرة للاشمئزاز؛ فأنت تجعلينهم ينسون ميثاق سرية الطبيب والمريض. وبعد، فقد جعلتهم يُجبِرون مريضًا مشلولًا وشديد السقم أن يسافر إلى بلدته... وسيدات قصتك يعدُدن الداء س كما لو كان تجسيدًا للشيطان بذاته. وهذا لا يصح؛ فالداء س ليس إثمًا، وليس نتيجة سوء: إنه مرض، ويحتاج أولئك الذين يعانون منه إلى عناية دافئة، عطوفة. ومن الخطأ على الزوجة أن تهجر زوجها المريض بحجة أنه مصاب بداء معدٍ أو مثير للاشمئزاز. بالطبع يمكنها أن تعد الداء س ما تشاء، ولكن المؤلف ملزم بأن يكون إنسانيًا حتى أطراف أصابعه.

بالمناسبة، هل كنت تعلمين أن الإنفلونزا تدمر الكائن الحي بطرق أبعد ما يمكن عن كونها عرَضية؟ بل ثمة عدد لا بأس به من الأشياء المؤذية والوراثية في الطبيعة. حتى التنفس قد يكون مؤذيًا.

---

(١) الزهري (السفلس). [ل. ل.]

عن نفسي شخصيًا فأنا ألتزم بالقاعدة التالية: لا أكتب عن المرضى إلا إذا كانوا شخصيات في القصة أو كانوا يسهمون إسهامًا واضحًا في الوصف؛ فأنا أخشى إخافة الناس بالأمراض.

ناجحون وفاشلون

رسالة إلى أليكسي سوفورين، موسكو، 3 تشرين الثاني 1888

يدعو ميريجكوفسكي راهبي[1] -الذي يلحن الترانيم- فاشلًا. وكيف يكون فاشلًا؟ ليمنح الرب كلًّا حياة كحياته: كان لديه إيمان بالرب، وما يكفي قُوته، وموهبة التلحين... إن تصنيف الناس إلى فاشلين وناجحين يعني رؤية الطبيعة الإنسانية من منظار ضيق منحاز... أأنت ناجح أم لا؟ وأنا؟ وماذا عن نابليون؟ وفاسيلي الخاص بك؟[2] ما المعيار هنا؟ عليك أن تكون إلهًا حتى تستطيع تمييز الناجحين من الفاشلين دون خطأ... سأنصرف أنا إلى شأني.

---

(1) كان دميتري سيرغييفيتش ميريجكوفسكي (1866 - 1941)، وهو شاعر، وروائي، وناقد، وفيلسوف، ومترجم، أحد الشخصيات الرئيسية في عصر الحداثة الروسي الفضي، وكان لا يزال في الثانية والعشرين من عمره عندما راجع قصة تشيخوف «في ليلة الفصح» («Svyatoyu Noch'yu, 1886»)، وفيها يظهر الراهب إيرونيم. [ل. ل.]

(2) خادم سوفورين. [ل. ل.]

سكّيرون

رسالة إلى نيقولاي ليكن، موسكو، 24 كانون الأول 1886

قرأت قصة المشارك الجديد كولاكوف[1]. أرى أنه يستطيع الكتابة وأنه تخلص من عيوبه. ولكنني لا أحب بدأه بموضوع إدمان الكحول. أخبره أن وصف السكِيرين لمجرد استخدام بعض التعبيرات السكرانة فيه شيء من الاستخفاف. ما من شيء أسهل من اقتحام ميدان الكتابة على ظهور السكِيرين.

نابليون

رسالة إلى أليكسي سوفورين، موسكو، 25 تشرين الأول 1891

أصحو كل ليلة لأقرأ «الحرب والسلم». ويبلغ من فضولي ودهشتي عند قراءتها أنني أبدو كمن لم يسبق له أن قرأ شيئًا. إن رِفعتها مدهشة. ولكن، أنا لا أحب المقاطع التي يتناول فيها نابليون. فما إن يظهر نابليون حتى يتسلل شيء من التوتر إلى السرد، إلى جانب كل الخدع المستخدمة لإثبات أنه كان أغبى بكثير مما كان عليه في الواقع. كل ما يقوله أو يفعله «بيير» أو «الأمير آندريه»، أو حتى «نيكولاي روستوف» الهامشي تمامًا، خير، وذكي، وطبيعي، ومؤثر، بينما كل ما يفكر به نابليون ويفعله غير طبيعي، وغير ذكي، بل مبالغ فيه، وفاقد للمعنى أو الأهمية.

---

(1) كولاكوف هو الاسم المستعار الذي يكتب به أحد صغار المسهمين في مجلة ليكين الطريفة «شذرات» (*Oskolki*). [ل. ل.]

العواطف

ابكي ولكن دون أن يعلم القارئ أنك تبكين

رسالة إلى ليديا أفيلوفا، مليخوفو، 29 نيسان 1892

بلى، لقد كتبت لك مرة أن على المرء أن يكون محايدًا عاطفيًّا عند كتابة القصص الحزينة. ولم تفهميني فهمًا صحيحًا. قد ينحب المرء أو يئن على قصصه، وقد يعاني إلى جانب أبطال قصته، ولكنني أقترح: على المرء أن يفعل ذلك بطريقة لا يلاحظها القارئ؛ فكلما استدعيت موضوعية أكثر، كان الأثر الذي تحدثينه أقوى. وهذا ما قصدت قوله.

اعرف كيف تعاني

رسالة إلى دميتري غريغوروفيتش، موسكو، 12 كانون الثاني 1888

إن انتحار صبي في السابعة عشرة من أكثر الموضوعات إثارة للاهتمام والتي لا تُقاوَم، ولكن التطرق إليه يرعبني. مشكلة مؤلمة كهذه تتطلب ردًّا أليمًا بقدرها، ولكن هل يمتلك «محسوبك» فعلًا الموارد الداخلية الضرورية للتعامل معها؟ لا. عندما تعد بنجاح هذا المشروع فأنت تحكم وفق مواردك الخاصة. وأنت تتغاضى

عن حقيقة أن جيلك لا يعتمد على الموهبة وحدها، بل أيضًا على سعة الاطلاع والتعليم و«الفوسفور والحديد»، بينما ليس في جيلنا أي من ذلك، وعلى المرء -إن أردنا الحق- أن يفرح أننا نبتعد عن الخوض في هذه الموضوعات الجادة. ضع انتحار المراهقين، الذي تناولته، في أيديهم، وأنا أضمن لك أن «س» من الناس، بأصدق النوايا وبغفلة تامة، سيختلق كومة من الافتراء، والأكاذيب، والتجديف، أما «ص» فسيتشدق ببعض العظات الباهتة الشاحبة، و«ع» سيفسر الانتحار بالذهان. إن مراهقك محبوب، نقي، لطيف بطبعه، يبحث عن الله، وهو محب، وحساس، ويشعر بالأذى حتى نخاع كيانه. ليشعر المرء بشخص كهذا فعليه أن يعرف بنفسه كيف يعاني، ولكن شعراءنا المعاصرين لا يعرفون سوى التذمر والشكاية. بالنسبة إليَّ فأنا جميع ما سبق، إضافة إلى أنني كسول وأحمق.

كبح العواطف في الكتابة

رسالة إلى ليديا أفيلوفا، موسكو، 1 آذار 1893

أنت تحرزين تقدمًا كبيرًا، ولكن اسمحي لي أن أكرر نصحي: اكتبي بضبط أكبر للنفس. فكلما كان الموقف مشحونًا عاطفيًّا ازداد المقدار الواجب تطبيقه من كبح العواطف في الكتابة، وعندها تكون النتيجة قوية عاطفيًّا. لا داعي للفجاجة في الإيضاح.

كالمصفاة

رسالة إلى فيودور باتيوشكوف، نيس، 15 كانون الأول 1897

لقد عبَّرت في إحدى رسائلك عن رغبتك في أن أرسل إليك قصة دولية مستوحاة من الحياة في هذا الجزء من العالم. لا يمكنني كتابة قصة كهذه إلا من روسيا، من الذاكرة. لا يمكنني أن أكتب إلا من الذاكرة، ولم يسبق أن كتبت من الطبيعة مباشرة؛ فأنا أحتاج إلى استخدام ذاكرتي كمصفاة لتُصفِّي كل ما ليس مهمًّا ولا محددًا.

يجب أن يكون الموضوع جديدًا

رسالة ألكساندر تشيخوف فيودور، موسكو، 11 نيسان 1889

ضع في بالك -بالمناسبة- أن اعترافات الحب، والخيانات الزوجية، ودموع الأرامل، والأيتام، وكل الأجناس الأخرى سبق وصفها. على الموضوع أن يكون جديدًا، حتى ولو لم تكن ثمة حبكة.

ما ينبغي تجنُّبه

لن نمثل دور الدجال

رسالة إلى إيفان ليونتييف (شخيغلوف)، سومي، 9 حزيران 1888

في ما يخص نهاية قصتي «حرائق»، اسمح لي أن أخالفك[1]. ليس دور عالم النفس أن يفهم ما لا يفهمه. بل ليس عمل عالم النفس أن يتظاهر بفهم ما لا يفهمه أحد حقًّا. لن نمثل دور الدجال، بل سنعلن صراحة أن أحدًا لا يمكنه فهم معنى أي شيء في هذا العالم. وحدهم المشعوذون والحمقى يعرفون كل شيء ويفهمون كل شيء.

لا تعِظ

رسالة إلى أليكسي سوفورين، موسكو، 1 نيسان 1890

أنت تؤنبني لموضوعيتي، وتسميها لا مبالاة بالخير والشر، وغيابًا للمثل والأفكار، وما إلى ذلك. عندما أكتب عن لصوص الخيل، تريدني أن أقول إن من الشر سرقة الخيول. ولكن الكل يعرف ذلك

(1) «حرائق» «Ogni, 1888» قصة تتناول مأزق النساء في المجتمع الذي يحد خياراتهن لتحديد المصير. وتنتهي بالسطر التالي: «لا يمكنك أن تفهم أي شيء في هذا العالم». [ل. ل.]

قبل أن أقوله. دع القضاة يطلقون أحكامهم. أما أنا فعملي يقتصر على أن أُظهِر من هم لصوص الخيل أولئك. إليك ما أكتبه: نحن نتعامل مع لصوص خيل هنا، لذا فليكن في بالكم أنهم ليسوا شحاذين، بل رجال حسنو التغذية، وأنهم أعضاء طائفة، وأن سرقة الخيول ليست مجرد لصوصية بالنسبة إليهم، بل هي شغف. بالتأكيد، قد يكون من اللطيف جمع الفن والوعظ، ولكن هذا شديد الصعوبة عليَّ شخصيًّا، وهو عمليًّا شبه مستحيل؛ ففي النهاية، إذا أردت وصف لصوص الخيول في سبعمئة سطر، سيكون عليَّ أن أتكلم وأفكر كما يتكلمون ويفكرون، وإلا، إن أنا تركت نفسي للذاتية، فستنهار شخصياتي، ولن تكون القصة بالإيجاز المطلوب في كل القصص القصيرة. عندما أكتب، أعتمد بالكامل على قرائي، وآتمنهم على استيفاء العناصر الذاتية التي قد تكون مفقودة.

لا تُعلِّم

رسالة إلى أليكسي سوفورين، مليخوفو، 28 تموز 1893

لم أكتب في النهاية مسرحية مبنية على الحياة في سيبيريا، وفي الحقيقة، لقد نسيت الأمر برمته، ولكنني مضيت وسلمت قصتي «سخالين» للنشر. أنصح أن توليها اهتمامك. انسَ ما كنت قد قرأته من عملي؛ لأنه زائف. أنا أكتب منذ زمن طويل، وأشك منذ زمن بعيد أنني قد أضعت المسار الصحيح، ولكنني الآن أدركت أخيرًا أين تهت. يكمن الزيف في رغبتي الظاهرة بتعليم قرائي شيئًا من

قصتي «سخالين»، وفي الوقت ذاته، في إخفائي شيئًا ما وكبح لجام نفسي. ولكن ما إن تركت نفسي أصف مدى غرابة الأطوار التي شعرت بها في سخالين وكم كان أولئك الناس خنازير، فعندها، في تلك اللحظة، شعرت بتحسن وانطلق عنان عملي، مع أنه صار يلامس روح الدعابة.

تجاهَل ما هو عرَضي

رسالة إلى أليكسي سوفورين، مليخوفو، 26 نيسان 1893

كل شيء في العمل مرتبط بالوقت –كل تلك النعرات للنقاد والمفكرين الأحرار الرائجين، وكل الانتقادات اللاذعة التي تحاول أن تكون موجهة وفي وقتها الصحيح، وكل تلك الرؤى دعية العمق المبعثرة هنا وهناك– ما أشد ضحالة كل ذلك وسذاجته في لحظتنا الحاضرة! إن خلاصة كل ذلك: على الروائي، الذي يريد أن يغدو فنانًا، أن يتجاهل كل ما له أهمية عابرة.

تزيين الكلام

رسالة إلى أليكسي بليشكييف، سومي، 5 تموز 1888

أنا سعيد لأجل [فلاديمير] غيلياروفسكي. هو رجل صالح لا يفتقد الموهبة، وإن لم يكن مثقفًا في الأدب. يضعف ضعفًا رهيبًا أمام العاديات، أمام الكلمات المبتذلة والأوصاف الطنانة، ويظن أن المرء لا يمكنه الكتابة من دونها. لديه أنف يستطيع تمييز الجمال

في أعمال الآخرين، ويعرف أن أهم وأول امتياز للقصة يكمن في بساطتها وصدقها، ولكنه لا يستطيع أن يكون نفسه صادقًا ولا بسيطًا في قصصه؛ فهو يفتقر إلى الشجاعة اللازمة لذلك. يُذكِّرني بأولئك المؤمنين الذين لا يجرؤون على الصلاة للرب بلغتهم الروسية الأصلية بدل سلافونية الكنيسة القديمة، رغم إدراكهم أن الروسية أقرب بكثير إلى الحقيقة وإلى قلوبهم.

الرطانة

رسالة إلى أليكسي سوفورين، مليخوفو، 24 آب 1893

«بيد أن – Тем не менее» و«على مقدار – по мере того» تعبيران بيروقراطيان. أقرؤهما فأبصق. يكتبهما الجيل الجديد بلغة رثة، مبهمة، باردة، عديمة اللباقة. يكتب الأوغاد أولئك كما لو كانوا قد ماتوا وتمددوا في قبورهم.

لا تخشَ كتابة الهراء

رسالة إلى ألكساندر تشيخوف، موسكو، 11 نيسان 1889

نصيحتي: حاول أن تكون أصيلًا وأذكى ما يمكن في مسرحيتك، ولكن لا تخشَ أن تبدو غبيًّا. حرية التفكير جوهرية، ولكن لكي يكون المرء مفكرًا حرًّا، عليه ألا يخشى كتابة الهراء.

رسالة إلى إيفان ليونتييف (شخيغلوف)، يالطا، 2 شباط 1900

عزيزي جان، لا يليق بمثلك النقد الفاضح، والحقد، والغضب، وما يُدعى «استقلالاً»، أي النقد الموجه إلى الليبراليين والجيل الجديد. حباك الله قلبًا عطوفًا، لطيفًا، فاستخدمه واكتب بقلم رؤوف وقلب هادئ، ولا تُلقِ بالًا للأخطاء التي حدثت بحقك... كن موضوعيًا، وانظر إلى كل شيء بعيني الرجل الصالح، بعينيك أنت، واقعد لتكتب حكاية أو مسرحية مستوحاة من الحياة الروسية، لا نقدًا للحياة الروسية، بل ترنيمة مرحة، تغريدة حسُّون[1]، عن الحياة الروسية، وعن الحياة على عمومها، الحياة التي لا تُمنَح لنا سوى مرة واحدة فيجب ألا نبددها على فضح الزوجات الخبيثات واللجنة. عزيزي جان، كن منصفًا تجاه نفسك وهبتك. وجِّه سفينتك إلى البحار الرحبة بدل أن ترسيها في مجرى «فونتانكا» الضيق[2]. سامح كل من أهانك، وانسَ شأنهم. أعود وأكرر: اقعد واكتب.

(1) يقصد تشيخوف الإشارة إلى اسم كنية من يراسله، وهو مشتق من الكلمة الروسية «*Shchegol*»، وتعني «الحسُّون». [ل. ل.]

(2) فونتانكا نهر صغير في سان بطرسبرغ. [ل. ل.]

محبة الكتّاب

حياة اعتزال

رسالة إلى فوكول لافروف[1]، موسكو، 10 نيسان 1890

لا يستدعي النقد عادة تفنيدًا، ولكن في هذه الحالة[2] قد يكون الأدق وصفه لا بالنقد، بل بالتشهير المحض الصريح. لا أزعج نفسي عادة بالرد على التشهير، ولكن في غضون أيام قليلة سأغادر روسيا لفترة طويلة، وربما دون رجعة، وليس لديَّ القوة الكافية لأمتنع عن الرد.

لم أكُ قط كاتبًا بلا مبادئ، ولا وغدًا، وهو الشيء نفسه عمليًّا.

صحيح أن مسيرتي الأدبية اتسمت بسلسلة متواصلة من الأخطاء، بعضها فظيع، ولكن ذلك مرجعه إلى أبعاد موهبتي أكثر منه إلى

---

(1) كان فوكول لافروف مالك مجلة موسكو الأدبية اليسارية الليبرالية «الفكر الروسي» (*Russkaya Mysl*)، وناشر ومحررها. [ل. ل.]

(2) يجيب تشيخوف هنا على لمزة لافروف له في «الفكر الروسي»: «فقط بالأمس كان القديسون الرفيعون للكتابة غير الملتزمة بمبادئ، أمثال السادة ياسينسكي وتشيخوف...». وكان تشيخوف في السنوات الأربعة السابقة يتعرض لسيل من الانتقاد بسبب «لا مبالاته»، و«عدم التزامه»، و«غياب المبادئ» لديه. وقد قرر أخيرًا أن ينهي هذا الاعتراض المزمن على أعماله –النابع من إصرار ذي خصوصية روسية على أن الكتّاب يحلون مشكلات العالم– عشية مغادرته تجاه سخالين. [ل. ل.]

صلاحي وطلاحي كإنسان. لم أبتز أحدًا قط. لم أسخر من أحد ولا قذفت أحدًا. لم أطنب أحدًا ولا كذبت ولا أهنت أحدًا. باختصار، مع أنني كتبت كثيرًا من القصص والمواد التحريرية التي قد أسعد بالتخلص منها لقلة قيمتها، فإنني لا أجد سطرًا واحدًا يوجب أن أخجل منه الآن.

عشت منعزلًا حتى الآن بين هذه الجدران الأربعة. يصادف أحدنا الآخر أنا وأنت ربما مرة أو مرتين في العام. على سبيل المثال، لم أقابل السيد ماتشت في حياتي قط[1]. يكفيك هذا وحده للحكم على عدد المرات التي أخرج فيها من المنزل. لطالما عاندت في تجنب السهرات الأدبية، والحفلات، والاجتماعات، وما شاكل، ولم أظهر قط ولا في مكتب تحرير واحد دون دعوة صريحة. وقد حاولت دائمًا تقديم نفسي إلى معارفي بصفة طبيب لا رجل أدب. باختصار: كنت كاتبًا متواضعًا، والرسالة التي أكتبها للتو أول خروج لي عن التواضع في مسيرة مهنية دامت عقدًا من الزمن. أنا على أتم وفاق مع زملائي. ولم يسبق أن أخذت على عاتقي مهمة الحكم عليهم ولا على المجلات والصحف التي ينشرون فيها؛ لأنني أعد نفسي أفتقر إلى الكفاءة اللازمة للقيام بذلك، ولأنني أدرك أن كل كلمة تُقال ضد صحيفة أو كاتب -في ظل الموقف التبعي الراهن للصحافة- ليست

(1) كان غريغوري ألكساندروفيتش ماتشت (1852 - 1901)، الذي بدأ مسيرته المهنية في الأدب في سان فرانسيسكو ونشر عددًا من القطع عن الحياة في الولايات المتحدة، مسهمًا في مجلة «الفكر الروسي». [ل. ل.]

قاسية ومفتقرة إلى اللباقة وحسب، بل جرم صريح أيضًا. حتى الآن، لم أرفض من المجلات والصحف سوى ما ثبت تدني جودتها وضوحًا، وفي المناسبات، التي اضطُررت فيها إلى الاختيار بينها، دائمًا كنت أعطي الأولوية لأمسها حاجة إلى خدماتي، إما بسبب الاعتبارات المادية أو لغيرها. ولهذا السبب، لم أعمل لا مع منشوراتكم ولا مع «يوروبيان ماسنجر – European Messenger»، بل فقط مع «نورثرن هيرالد – Northern Herald»، ونتيجة لذلك، حصَّلت نصف ما كنت لأُحصِّله لو اختلفت آرائي تجاه واجباتي.

حاشية أدبية

رسالة إلى ليديا أفيلوفا، مليخوفو، 23 تموز 1898

فجأة بدأت أنفر من الكتابة، وأحار في ما أصنع بهذا الشأن. إنه ليسعدني أن أسلك مسلك الطب وأحصل على وظيفة فيه في مكان ما، ولكنني أفتقد الرشاقة البدنية لفعل ذلك. في هذه الأيام، كلما هممت بالكتابة أو التفكير في أن عليَّ الكتابة، أشعر بالنفور كما لو كنت أتناول حساء كرنب يطفو فيه صرصار. اعذريني على المقارنة. ما ينفرني ليس الكتابة ذاتها، بل كل الحاشية الأدبية التي لا يمكن الاختباء منها والتي أحملها معي أينما حللت، كما تحمل الأرض غلافها الجوي.

رسالة إلى أكاديمية العلوم، [1] *1902*

معالي أصحاب السمو الإمبراطوري!

في كانون الأول من العام الماضي، تلقيت إخطارًا بأن أ. م. بيشكوف[2] انتُخب لمنصب عضو فخري في أكاديمية العلوم. ولم أتوانَ عن مقابلة أ. م. بيشكوف الذي كان حينها مقيمًا في شبه جزيرة القرم، وكنت أول من يحمل له أنباء انتخابه، وكنت أول من يقدم له التبريكات. وبعدها بوقت قصير، ذكرت الصحافة أنه وفي ضوء التهم الموجهة ضد بيشكوف بموجب الفقرة 1035، عُدَّت النتائج الانتخابية لاغية وباطلة. علاوة على ذلك، فقد أُشير بوضوح أن هذا البيان صادر عن أكاديمية العلوم. وبقدر ما أنا أنتمي إلى العضوية الفخرية في الأكاديمية، فإن هذا التصريح يُعَدُّ صادرًا عني أيضًا. قدمت تهنئتي القلبية، وأعلنت، في الوقت نفسه، أن نتائج الانتخابات باطلة ولاغية، فكان من المستحيل عليَّ حل هذا

---

(1) اقتُبست رسالة الاستقالة هذه في رسالة إلى فلاديمير كورولينكو، يالطا، 25 آب 1902. [ل. ل.]

(2) في عام 1900، كان تشيخوف، إلى جانب تولستوي وكورولينكو، من بين الكتَّاب العشرة المختارين من قبل أكاديمية العلوم للعضوية الكاملة في قسم بوشكين المحدث للآداب الجميلة. وفي كانون الأول 1901، علم أن أ. م. بيشكوف، الذي كان يكتب بالاسم المستعار مكسيم غوركي، انتُخب في الأكاديمية. وبعد أسبوعين، سحب منه هذا الشرف تحت ضوء سجل غوركي من النشاط السياسي غير القانوني. وتحت ضغوطات من أصدقائه ومن كورولينكو، استقال تشيخوف من عضويته احتجاجًا على ذلك. [ل. ل.]

التناقض في عقلي أو التصالح معه بضميري. وبعد أن اطلعت على بنود الفقرة 1035، فشلت في الوصول إلى أي توضيح. وبعد أن تداولت هذه المسألة بكثير من الاهتمام الجاد والعميق، تمكنت من الوصول إلى القرار، وهو قرار مؤلم وشديد الصعوبة، بأن عليَّ أن أتوسل مع فائق الاحترام من أصحاب السمو الإمبراطوري لإعفائي من عضويتي الفخرية في الأكاديمية.

النخبة المثقفة

رسالة إلى إيفان أورلوف،[1] يالطا، 22 شباط 1899

ليس لديَّ ثقة في نخبتنا المثقفة؛ وذلك أنها منافقة، وغير شريفة، وهستيرية، وغير متحضرة، وكسولة. لا أومن بها حتى عندما تدَّعي أنها تعاني وعندما تحتج، وذلك لأن مضطهديها إنما خرجوا من تحت إزارها. لديَّ إيمان بالأفراد. وأرى في الأفراد –سواء المثقفون أو الفلاحون منهم– المنتشرين هنا وهناك في أرجاء روسيا الخلاصَ؛ إذ –وإن كانوا قلة– فيهم قوة حقيقية. ما كان لنبي احترامٌ في أرض

(1) كان الجراح إيفان أورلوف استثنائيًّا في سعيه إلى المثالية وكان منظمًا فعالًا للطب الريفي، وخصوصًا في ضواحي موسكو. وكانت عيادته النموذجية تُعَدُّ قبلة لأطباء الريف. عالج أورلوف عددًا من الكتَّاب والمفكرين الروس البارزين، ومن بينهم الشاعر الرمزي ألكساندر بلوك، وكان صديقًا مقربًا لتشيخوف وزميلًا له، وقد تبادلا رسائل مكثفة من عام 1889 حتى 1899. وقد كتبت رسالة تشيخوف بأكملها بأسلوب كتبي رسمي، تبعًا لرسالة أورلوف، التي تستند إلى فقرة من الكتاب المقدس لإدانة السلطات المحلية على سوء تعاملها مع ملف الخدمات الطبية في المناطق الريفية. [ل. ل.]

وطنه، والأفراد، الذين أذكرهم، كذلك؛ يلعبون دورًا يكاد يكون خفيًا في مجتمعنا. ومع أنهم لا يسودون، فإن أعمالهم ظاهرة. مهما فعلت أو قلت، فإن العلم يمضي قدمًا باستمرار، والوعي المجتمعي ينمو، والمشكلات الأخلاقية تغدو منذرة باضطراد، إلخ. إلخ. وكل هذا يحدث بلا اعتبار لوكلاء النيابة، والمهندسين، والحكام، ولا للنخبة المثقفة *بأسرها*، ورغم أنف كل شيء.

عصافير على كومة روث

رسالة غير مؤرخة [1900؟][1]

سأُوبَّخ لأنني لا أكتب إلا عن الأحداث المتواضعة، لعدم وجود أي أبطال إيجابيين.

نعيش حياة ريفية، وشوارع مدينتنا ليست مُعبَّدة حتى، وقرانا فقيرة، وشعبنا منهك. في شبابنا، كنا نغرد كسرب عصافير على كومة من روث. هرمنا حتى ونحن في الأربعين من عمرنا وبدأنا نفكر في الموت. أي أبطال نحن؟

كل ما أردت أن أُحدِّث به الناس بصدق: انظروا، انظروا ما أسوأ معيشتكم، وما أضجر حياتكم. المهم هو أن على الناس فهم هذا، فإن لم يفهموه فسيخترعون بالتأكيد حياة مختلفة وأفضل بكثير. لن يصبح الإنسان أفضل إلا عندما نُظهِره على حقيقته.

---

(1) كما ورد في Malcovati, "Introduzione" vol. 1, p. xxv.

رسالة إلى أليكسي سوفورين، نيس، 6 شباط 1898

شيئًا فشيئًا، أُقنع الناس أن «درايفوس» قد أُدين في الحقيقة على أساس وثيقة سرية لم تُعرَض عليه كمتهم ولا على محاميه[1].... أنا على علم بالمحاكمة من تقارير الصحيفة، وأفهم «زولا» بوضوح. الأمر الأكثر أهمية أنه مخلص، أي إنه يبني أحكامه فقط على ما يمكنه فعلًا رؤيته، وليس -كآخرين- على الأشباح. بالطبع، حتى المخلصون قد يرتكبون أخطاءً، ولكن أخطاءهم تسبب أذى أقل من عدم الإخلاص مع سبق الإقرار، أو التحامل، أو الدوافع السياسية. على فرض أن «درايفوس» مذنب، يظل «زولا» مصيبًا؛ لأن الاتهام والمحاكمة ليسا من مهام الكاتب، بل التصدي للدفاع حتى عن المذنبين بعد أن يُدانوا وعندما يُعاقَبون. قد يعترض الناس: «ماذا عن السياسة؟ ماذا عن مصالح الدولة؟» ولكن ينبغي على الكتَّاب والفنانين العظماء ألا يهتموا بالسياسة إلا بالقدر اللازم لحماية أنفسهم؛ فحتى من غيرهم، يظل ثمة ما يكفي من المتهمين، والمدعين، والشرطة السرية للتغطية.

---

(1) نشب بين تشيخوف وسوفورين خلاف حاد أدى إلى شرخ استمر عدة أشهر بسبب قضية الكابتن آلفرد دريفوس الذميمة، وهو ضابط في الجيش الفرنسي حُوكِم محاكمة عسكرية وحكم عليه بالسجن المؤبد في عام 1894 بسبب ادعاء تجسسه لصالح ألمانيا. وقد تتبع تشيخوف القضية عن كثب وحركت مشاعره خصوصًا الرسالة المفتوحة لإميلي زولا، «أتَّهم – بالفرنسية: J'accuse.»، وفيها اتهم الروائي الفرنسي الحكومة والمكتب الحربي بإخفاء أدلة مفتاحية تظهر براءة دريفوس. وكان سوفورين قد كتب عمودًا في «نيو تايمز» يتهم فيه زولا بالاتجار بالقضية لجذب الانتباه. [ل. ل.]

رسالة إلى نيكولاي ليكن، موسكو، 2 أيلول 1887

يجب دعم الظهور الأول للطاقات الجديدة بالكامل وتبنّيه. وهذا كان موقفي منذ القدم، وأود إعادة إعلانه في الحالة الراهنة... على هيئة التحرير –في رأيي– الاستفادة من المواهب الجديدة بتكليفها في البداية بمهام ثانوية. بقدر ما أذكر، بدأ «إيبر» بالطريقة العادية، أي بدأ صغيرًا، و«شيمودان» بدأ برسم صور لصفحة ألغاز ريبوس المصورة[1].

في ما يخص إعادة تشكيل الهيئة التحريرية، وتنشيطها من جديد، وما إلى ذلك، فقد سبق أن ناقشنا ذلك وجهًا لوجه وكتابةً. كتبت أننا، المسهمين القدامى، نعيد اجترار المُجتَر. لا، لقد بقينا على الحال نفسه تمامًا لأننا غير قادرين على تغيير جينات ملامحنا الأدبي. نحن نكتب كثيرًا ونُمضي كثيرًا من الوقت في الكتابة، وبذلك فإننا لم نستنفد جمهور قرائنا، الذي يتغير باستمرار، بل أنفسنا؛ فبعد خمس سنوات أخرى سنكون منفرين تمامًا، ولكن لأنفسنا وحسب. أعتقد أن تدفُّق الطاقات الجديدة لن يفيد الجمهور كثيرًا، ولكنه سيعم علينا بالفائدة؛ إذ سنكتسب الحق في كتابة ما يحلو لنا، وسيبدو ذلك أقرب بكثير إلى الفن من عملنا الحالي الذي صار أشبه بالعمل بالقطعة، وسنكون أسعد بكثير بأنفسنا مما نحن عليه الآن.

---

(1) أسهم كل من س. إ. إيبر وميخائيل ميخائيلوفيتش تشيمودانوف برسومات ورسوم كاريكاتورية في مجلة بطرسبرغ «شذرات - *Oskol'ki*» وقد كان تشمودانوف (1856 - 1908) مثل تشيخوف: طبيبًا ذا مهنة ثانية. (المترجم)

رسالة إلى أليكسي سوفورين، يالطا، 4 آذار 1899

هنا كما في كل مكان، يكثر الحديث عن اضطرابات الطلاب، وثمة صريخ من الاحتجاج على عدم تغطيتها في الصحف[1]. تشير الرسائل من سان بطرسبرغ أن الرأي العام إلى جانب الطلاب. لم تكن أعمدتك الصحفية عن الاضطرابات مُرضية، ولكن ما كان لها أن تكون كذلك لأن من المستحيل الحكم على أحداث البلبلة كتابةً عند منع أي ذكر للحقائق. منعتك الدولة من الكتابة؛ فهي تمنع قول الحقيقة: هذا حكم تعسُّفي، ومع ذلك فإنك تكتب بسلاسة عن حقوق الدولة وامتيازاتها في ظل هذا الحكم التعسفي. ببساطة، لا يمكن للعقل أن يفهم كل هذا. تتحدث عن حق الدولة، ولكنك لا تنظر إلى الأمر من وجهة نظر قانونية. إن مسألة حقوق الدولة وعدالتها مطابقة لحقوق أي شخص اعتباري في القانون. إذا صادرت الدولة جزءًا من أناي بغير وجه حق فيمكنني أن أقاضيها في المحكمة، وستستعيد إليَّ المحكمة حقي القانوني. ألا ينبغي أن يحدث الأمر نفسه عندما تهم الدولة بضربي بسياطها؟ إذا اعتدت عليَّ، أفلا يجب

(1) الإشارة هنا إلى موجة اضطرابات الطلاب التي اجتاحت الجامعات الروسية في شباط وآذار 1899. بدأت الاضطرابات ردًا على قمع وحشي لاحتفال سنوية جامعة في سان بطرسبرغ من قبل الشرطة الخيالة. دُعِيَ إلى إضرابات تضامنية في جامعات أخرى، وفُرِض تعتيم على التغطية الصحفية للاضطرابات في بداية شهر آذار، وبحلول منتصف الشهر أغلقت كل من جامعة موسكو وسان بطرسبرغ مؤقتًا. وقد وقفت صحيفة سوفورين، «نيو تايمز» موقفًا مناهضًا للإضرابات. [ل. ل.]

أن أكون قادرًا على الاحتجاج على انتهاك حقوقي؟ يجب أن يقوم مفهوم الدولة على علاقات قانونية دقيقة. إذا لم يكن الأمر كذلك، تكون الدولة بعبعًا، ضوضاء جوفاء تبث ذعرًا متخيلًا.

الباب الثاني

العرض
حذاء جيد ودفتر ملاحظات

الفصل الثالث

المشروع

جدِّد الهواء

سافر لتتغلب على العطالة ولا تأمل أن تكتب.

رسالة إلى أليكسي سوفورين، 9 آذار 1890

أتصور أن الرحلة ستكون عبارة عن ستة أشهر من العمل الجسدي والعقلي المستمر، وهذا بالضبط ما تحتاج إليه طبيعتي البليدة؛ فأنا أحتاج إلى الانضباط. أُسلِّم أن هذه الرحلة قد لا تكون أكثر من نزوة تافهة جامحة، ولكن أخبرني: ماذا لديَّ لأخسر؟ الوقت؟ المال؟ وما الذي قد أجنيه؟ آلكثير من المشقة؟ لا يساوي وقتي شيئًا. ليس لديَّ من المال ما يُذكَر، أما المشقة فسأقضي 25 –بل ربما ثلاثين– يومًا على ظهر الخيل، وبقية الوقت سأكون جالسًا على متن سفينة بخارية أو في غرفتي أكتب رسائلي إليك. وحتى ولو لم أجنِ شيئًا من الرحلة، فأنا لا أستطيع أن أتخيل أنني قد أقضي الرحلة دون أن أحظى بيومين أو ثلاثة ستبقى لي كذكريات سعيدة أو مريرة أو حتى لحظة في حياتي.

لا حاجة إلى الرد على النقاد. استمع إلى صوت ضميرك.

رسالة إلى إيفان ليونتييف (شخيغلوف)، 22 آذار 1890

تكتب أنك تريد تقريعي بشدة «خاصة في الأمور الأخلاقية والجمالية»، وتقول شيئًا ضبابيًا عن خطايا محددة لي تستدعي توبيخًا وديًا، بل تهددني بـ«نقاد صحفيين مؤثرين». أمن الممكن أن أخلاقي خارجة عن الحدود بالنسبة إلى آراء أشخاص أخيار مثلك، وإلى درجة أنني أستحق التقريع ولفت أنظار النقاد المؤثرين إليَّ؟... إذا كان ضميري الصحو محل ثقة فإنني لم يسبق أن اشتهيت زوجة جاري أو خدمه أو ثيرانه أو ماشيته، ولا سرقت، ولا نافقت، ولا أطريت الجبابرة ولا تزلّفت لهم، ولم أبتز أحدًا ولا عشت على حساب أحد. صحيح: لقد أضعت حياتي في الكسل. ضحكت بلا سبب، وتورطت في الشراهة، ودنّست نفسي بالسُّكْر، وقد أضعت نفسي في الزنا. ومع ذلك، كل هذا شأني الخاص، وهو لا ينتزع مني الحق باعتبار أنني لا أسمى ولا أدنى أخلاقًا من السيرورة العامة للإنسانية.

إذا كان هؤلاء النقاد، الذين تستشهد بشرعيتهم وسلطانهم، يعرفون شيئًا لا أعرفه أنا ولا أنت، فأخبرني إذن: لماذا لم يتكلموا كل هذا الوقت ليكشفوا حقائقهم وقوانينهم التي لا مُبدِّل لها أمامنا؟ صدِّقني، لو كانوا يعرفون بالفعل شيئًا من هذا القبيل فلا شك أنهم كانوا سيرشدوننا إلى جانب الصواب منذ زمن طويل، وكنا أنا وأنت سنعرف ما نفعل... ما كنا أنا وأنت في هذا الضجر الذي نحن فيه،

ولم تكن أنت لتهرب إلى المسرح ولا أنا إلى سخالين... ولكن النقاد يحتفظون بصمت موقر أو يستمرون في نثرهم العاطل. إذا وجدتهم مؤثرين فمرجع ذلك فقط إلى أنهم أغبياء، وأدعياء، وعدوانيون، وحادون: براميل فارغة تجلجل في أذنيك.

فليذهب ذلك كله إلى الجحيم. لننتقل إلى موضوع آخر. رجاءً لا تتأمل أن يخرج أي شيء فني من رحلتي إلى سخالين؛ فأنا لم أذهب بحثًا عن المشاهدات أو الانطباعات، بل لأعيش ستة أشهر كما لم أعش حتى الآن. لا تعلق آمالًا عظيمة عليَّ يا صديقي. إذا نجحت بالفعل في تحقيق شيء، فاحمد الرب، وإلا فلا تلُمني. سأغادر في الأسبوع التالي للفصح.

فضفض الأمور مع الأصدقاء

وضِّح مساحات بحثك ونطاقه في نقاشاتك مع الأصدقاء.

رسالة إلى أليكسي سوفورين، 9 آذار 1890

كلانا مخطئ تجاه سخالين، ولكنك على الأرجح مخطئ أكثر مني. أذهب إليها واثقًا بأن رحلتي لن تسهم بشيء ذي قيمة لا للفن ولا للعلوم؛ فأنا أفتقر إلى المعرفة والوقت والطموح لفعل ذلك. ليس لديَّ خطط على مستوى خطط هامبولدت أو كينان[1]. أنوي

(1) فريدريش ألكساندر فون هامبولدت (1769 - 1859)، عالم ورحالة ألماني، استكشف مناطق أقصى شرق الإمبراطورية الروسية في 1829 تحت طلب حكومة القيصر. بينما زار الصحفي الأمريكي جورج كينان (1845 - 1924) السجون السيبيرية في عام 1886 وكتب عنها في «سيبيريا ونظام النفي» (1891). [ل. ل.]

أن أكتب بين 100 و200 صفحة لأقضي بعض ديني إلى الطب الذي كنت تجاهه خنزيرًا تمامًا.

سخالين مكان فيه معاناة لا تُطاق، ما كان يمكن إلا للإنسان، حرًّا أو أسيرًا، أن يخلقها. ما فتئ الذين يعملون فيها أو حولها يحاولون إيجاد الحلول لمشكلات مريعة ثقيلة. أنا آسف لأنني لست عاطفيًّا وإلا كنت لأقول إن علينا أن نُجبَر على الحج إلى أماكن مثل سخالين كما يحج الترك إلى مكة، وإن على البحارة والخبراء في الأشغال الشاقة أن ينظروا إلى سخالين كما ينظر الجيش إلى سيفاستوبول[1]. تُفصِح الكتب، التي قرأتها والتي أقرؤها الآن، بوضوح بأننا حكمنا على ملايين البشر بالتعفن في السجون، وقد حكمنا عليهم ببربرية، بلا أي غاية على الإطلاق، ودون تفكير، وقد سقنا البشر عشرات آلاف الأميال في البرد، في الأغلال، كما تُساق الماشية، وقد أصبناهم بداء الزهري، وأفسدناهم، وضاعفنا أعداد المجرمين، ولُمنا في كل ذلك حراس السجون ذوي الأنوف الحمراء[2]. اليوم، يدرك كل الأوروبيون المتعلمون أن اللوم لا يقع على حراس السجون، ولكننا نستمر في الإصرار على أن هذا ليس

---

(1) أدى حصار سيفاستوبول، الذي امتد اثني عشر شهرًا في 1854 - 1855، والذي كان أساسيًّا في هزيمة روسيا في حرب القرم ضد القوات المتحالفة للبريطانيين والفرنسيين والبيدمونت، إلى خسائر فادحة من الجانبين. [ل. ل.]

(2) قد يكون في هذا إشارة إلى أنهم سكَيرون. (المترجم)

من شأننا ولا يمكن أن يعنينا. لم تفعل الستينيات المتبجحة[1] *أي* شيء على الإطلاق لأجل المرضى والمسجونين، ومن ثم فقد انتهت الوصية المركزية للحضارة المسيحية. يقدم عصرنا بعض المساعدة للمرضى، ولكنه لا يفعل المثل للمساجين؛ إذ لا يُعنى خبراؤنا القانونيون على الإطلاق بنظام العقوبات. لا، أنا أؤكد لك، سخالين ضروية وشائقة، الأسف الوحيد هو أنني أنا من سيذهب إليها، وليس شخصًا ذا خبرة أوسع وقدرة أكبر على إثارة الرأي العام. ففي النهاية، ما سفري إليها إلا لذريعة تافهة.

تحدَّ اللامبالاة

ادرس تلك المساحات التي لا يدرسها أحد، واذهب بنفسك لرؤية المظالم التي لا يراها أحد، قدِّر التجارب المباشرة والمعارف العملية.

أنطون تشيخوف، «من سيبيريا»، جزيرة سخالين (مذكرات سفر)، 18 أيار 1890

أنا على قناعة راسخة بأن الناس خلال مدة خمسين إلى مئة عام سينظرون إلى أحكامنا بالسجن المؤبد بنظرتنا المُحتقِرة والفزعة نفسها إلى جدع الأنوف وقطع الأصابع من اليد اليسرى. ولديَّ القناعة نفسها بأننا -رغم إقرارنا بصدق ووضوح بأن ظواهر بالية

(1) كان عقد ستينيات القرن التاسع عشر عقد إصلاحات كبرى، من بينها تحرير الأقنان، الذين كانوا يشكلون نحو 80% من التعداد السكاني في روسيا. [ل. ل.]

كالسجن المؤبد خبيثة وعفّى عليها الزمن- عاجزون تمامًا عن إيقافها. في الوقت الحاضر، نحن نفتقر إلى المعرفة، والخبرة، وربما الشجاعة لاستبدال شيء ربما يكون أكثر منطقية وعدالة بالحكم المؤبد. كل محاولاتنا لفعل ذلك خجولة ومترددة، ومن ثم لا يمكن أن تنتج سوى أخطاء خطيرة ومتطرفة، وهذا قدَر كل التعهدات غير المتأصلة في المعرفة والتجربة.

ما فتئ روادنا المفكرون في السنوات العشرين أو الثلاثين الماضية يكررون العبارة نفسها بأن المجرمين نتاج المجتمع، ومع ذلك فما أشد لا مبالاتهم تجاه هذا النتاج! ويكمن سبب هذه اللامبالاة – التي لا يمكن فهمها في ظل دولة مسيحية وفي الأدب المسيحي- تجاه المساجين والمنفيين في الضحالة الشديدة لتعليم المحامي الروسي لدينا. قليلٌ ما يعرفه. وهو مشوب بالتحيزات المهنية... ولا تُعلِّمه امتحاناته الجامعية إلا كيف يحاكم الآخرين ويحكم عليهم بالسجن أو النفي. ولكنه هو نفسه لا يملك أدنى فكرة عما يجري للمجرم بعد المحاكمة، ولماذا، ولا ما قد يكون عليه الوضع في السجن أو سيبيريا، كل ذلك وراء دائرة اهتمامه أو مجال اختصاصه. كل ذلك من شأن مواكب المرافقة وحراس السجن بأنوفهم الحمراء!

ابحث ودوّن الملاحظات، اطلب المساعدة واستعر الكتب، اقرأ كل شيء عدا ما لا يقدم الحقائق.

رسالة إلى أليكسي بليشكييف، 15 شباط 1890

ما زلت أجلس هنا طيلة يومي، أقرأ وأدون الملاحظات. لا شيء في رأسي ولا على الورق سوى سخالين. خلل عقلي. هوس *سخالينوزا*[1].

رسالة إلى أليكسي سوفورين، 23 شباط 1890

إذا صادف أن عثرت بمقالة تسيبريكوفا، فلا تتعب نفسك بإرسالها إليَّ[2]. مقالات كمقالاتها لا تقدم أي معلومات حقيقية، وهي مضيعة للوقت. أحتاج إلى حقائق. عمومًا، ثمة ندرة مريعة في الحقائق وثروة مريعة من التكهنات في روسيانا[3]، وذلك ما بدأت في إدراكه من خلال دراستي الحماسية للأدب الذي تناول سخالين.

رسالة إلى موديست تشايكوفسكي، 16 آذار 1890

---

(1) «جنون سخالين» باللاتينية Mania Sakhalinosa. [ل. ل.]

(2) كانت مارينا كونستانتينوفنا تسيبريكوفا (1835 - 1917) كاتبة بارزة، وصحفية، وناشطة لتعليم المرأة وحقوقها، وقد بدأت نشاطها الأدبي عضوًا في الجيل الملتزم سياسيًا في ستينيات القرن التاسع عشر. [ل. ل.]

(3) في الأصل، يستخدم تشيخوف الاسم القديم لروسيا (روس) لاستحضار الملاحظة الشهيرة، المدونة في «السجل التاريخي الرئيسي»، بأنه لم يكن بين القبائل السلافية الشرقية للروس نظام. [ل. ل.]

أنا منعزل في منزلي، أجلس وأقرأ عن سعر طن الفحم في سخالين وفي شانغهاي في 1883. أقرأ عن قوة الريح الشمالية الشرقية، والشمالية الغربية، والجنوبية الشرقية، والاتجاهات الأخرى التي ستهب عليَّ بينما أراقب أعراض دوار البحر الذي أُصاب به على شواطئ سخالين. أقرأ عن التربة، وباطن الأرض، والغضار الرملي، والرمل الغضاري.

رسالة إلى أليكسي سوفورين، 22 آذار 1890

أيصادف أن لديك في مكتبتك كتاب فوييكوف «مناخات أراضٍ مختلفة»[1]؟ إنه عمل ممتاز. فإذا كنت تمتلكه، أرسله إليَّ رجاءً، وإلا فلا تتعب نفسك؛ فثمنه خمسة روبلات، وهو مبلغ كبير بالنسبة إليَّ. أرسل إليَّ كتاب ماكسيموف «سيبيريا والأعمال الشاقة»[2].

---

(1) كان أ. إ. فوييكوف (1842 - 1916) عالم طقس ومناخ وجغرافيًّا بارعًا ورائدًا كان أول من قدَّم الدراسة العلمية للطقس من خلال محطات المراقبة. وكونه رحالة لا يمل، فقد أنتج سلسلة من الخرائط المناخية وأعمالًا كثيرة برز منها العمل الضخم «مناخات أراضٍ مختلفة / مناخات كوكب الأرض، بإشارة خاصة إلى روسيا» (Klimaty ra-znyx stran/Klimaty zemnogo shara, v osobennosti Rossii") المنشور عام 1884 وفي نسخة موسعة عام 1887. [ل. ل.]

(2) سيرغي ڤ. ماكسيموف (1831 - 1901)، عالم إثنوغرافيا (الأجناس البشرية)، وكاتب، وعضو أكاديمية سان بطرسبرغ للعلوم، وكان مؤلف فقرات أدبية إثنوغرافية، ودراسات ضخمة عن إثنوغرافية الشرق الأقصى لروسيا، وكتاب المجلدات الثلاث «سيبيريا والأشغال الشاقة» (*Sibir' i katorga*") (سان بطرسبرغ، 1871). [ل. ل.]

اكتب الأجزاء التي لا تعتمد على البحث الميداني، باستخدام مواد من قراءاتك، وملاحظاتك، وملخصاتك، وعد إلى الخرائط لوصف كيفية تغيُّر تصورات المنطقة عبر الزمن.

رسالة إلى أليكسي سوفورين، 22 آذار 1890

لقد بدأت في الكتابة عن سخالين، وصار عندي نحو خمس صفحات عن تاريخ الاستكشاف. وقد انتهت إلى شكل جيد، بل ربما كانت مهنية وجديرة بالثقة. حتى إنني تطرقت إلى الجغرافيا: درجات العرض والطول والتضاريس.

في حزيران 1787، رسا الملاح الفرنسي الشهير الكونت دو لا بيروز على الشاطئ الغربي لسخالين، فوق خط العرض 48، وقابل السكان الأصليين. وهناك، حسب روايته، وجد أن الآينو قد استقروا على شاطئ البحر، وكذلك الغيلياك الذين أتوا للتجارة، والذين كانت لديهم معرفة واسعة بسخالين وساحل تارتار. وبالرسم على الرمل، أوضحوا له أن الأرض، التي استقروا فيها، كانت جزيرة، وأن تلك الجزيرة تفصلها عن القارة وعن «ييزو» (اليابان) عدة مضائق... وقد توقع أنه إذا استمر في الإبحار شمالًا على امتداد الساحل الغربي فسيجد ممرًّا من بحر اليابان إلى بحر أوخوتسك، وبذلك يخفض الوقت اللازم للوصول إلى كامشاتكا بقدر جيد. ولكن، مع مضيه شمالًا، ازدادت ضحالة مياه المضيق، وانخفض العمق بنحو سبعة أقدام لكل ميل. مضى شمالًا ما سمح له مركبه، وبعد أن تقدم إلى

عمق نحو ثمان قامات، ألقى مرساته. يشير الارتفاع التدريجي والمنتظم في مستوى قاع البحر وأيضًا شبه انعدام التيار إلى أنهم دخلوا خليجًا لا مضيقًا، وأن برزخًا يربط سخالين بالبر الرئيسي. وفي دي كاستريس، عاد فقابل قبائل الغيلياك. وبينا كان يخط لهم رسمًا يُظهِر انفصال الجزيرة عن البر الرئيسي، أخذ أحد الغيلياك قلمه من يده وأشار، بتتبُّع الخط عبر المضيق، أن الغيلياك أحيانًا يجرُّون قواربهم إلى الجهة الأخرى من البرزخ، الذي، علاوة على ذلك، كان أحيانًا مغطى بالعشب، حسب ما فهمه «لا بيروز» منهم. وزاد هذا من قناعة الملاح بأن سخالين شبه جزيرة[1].

في 1710، وبأمر إمبراطور الصين، خط مبشرون من بكين خريطة لتارتاريا لم تكن إلا مبنية على الخرائط اليابانية؛ إذ كان اليابانيون وحدهم يعرفون آنذاك أن مضائق تارتار صالحة للملاحة. وقد نُقِلت هذه المعلومات إلى فرنسا ونُشِرت من خلال أطلس الجغرافي دانفيل[2].

---

(1) أضاف تشيخوف في الهامش الملاحظة التالية: «على المرء أن يلاحظ هنا ملاحظة نيفيلسكوي أن الشعوب الأصلية عادة ترسم خطًا بين الشواطئ لتشير أنه من الممكن الإبحار من شاطئ إلى آخر: أي ليشيروا إلى وجود مضيق بين الشاطئين». [ل. ل.]

(2) جان باتيست بورغينيون دانفيل (1687 - 1782) مؤلف «الأطلس الجديد للصين، وأراضي التتر الصينيين والتيبت» «(*Nouvel atlas de la Chine, de la Tartaire chinoise, et de Thibet*) 1737». [أ. ت.]

الفصل الرابع

التقرير

يُوضَع عقل العالِم دائمًا، إن صح التعبير، بين ملاحظتين: إحداهما تشكل نقطة انطلاق لإعمال العقل، والأخرى تشكل الخلاصة.

كلود برنارد

مقدمة إلى دراسة الطب التجريبي (1865)

المستلزمات

حذاء جيد

لا تسترخص في الأحذية.

رسالة إلى ماريا تشيخوفا، 14 - 17 أيار 1890

أظن أن الذهاب حافي القدمين خير من ارتداء جزمة رخيصة. لا يمكنك تخيُّل معاناتي! بين الفينة والأخرى، أزحف خارجًا من مقصورتي، وأقعي على الأرض، وأخلع حذائي لأريح عقبَيَّ. وهي متعة نادرة في البرد القارس! اشتريت في النهاية حذاءً من اللباد[1] في إيشيم... وارتديته حتى بلي من الرطوبة والطين.

انطلقنا... في الوحل، والمطر، والريح الباردة التي تقص المسمار... وجزمة لباد تغطي قدميَّ. أتعلمين ما جزمة اللباد عندما تكون رطبة؟ جيلاتين. مضينا قدمًا، وفجأة تراءت أمام عينيَّ بحيرة ضخمة ببضع رقع من اليابسة وبعض الأكمات بارزة من هنا وهناك، وهذا ما اتضح أنه المروج الطبيعية المغمورة. وعلى امتداد الأفق البعيد، تمتد ضفة نهر إيرتيش الشديدة الانحدار؛ بيضاء من الثلج...

---

(1) يُعرَف هذا النوع من الأحذية المعروف تقليديًا لدى الروس باسم «الفالينوك – valenok» وجمعها "valenki". وهو يصنع من لبّاد الصوف، ويشبه الجرموق المطاطي. ويُفضَّل ارتداء «الفالينوك» عندما يكون الطقس جافًا.

انطلقنا عبر البحيرة. وجب علينا أن نرجع، ولكن حالة من العناد انتابتني، كما في تلك المرة وسط البحر الأسود حين غطست من على اليخت وكل تلك المرات الأخرى التي جعلني فيها عنادي أرتكب كل أشكال الحماقات.

أخيرًا، وصلنا إلى جزيرة صغيرة عليها كوخ صغير بلا سقف... وفيها أحصنة مبتلة تخوض في الروث الرطب. خرج فلاح من الكوخ يحمل عصا طويلة في يده وعرض أن يدلنا على الطريق... استخدم العصا ليُقدِّر عمق الماء ويفحص مواطئ الأقدام... ليمنحه الرب الصحة.

ومضينا في سبيلنا... جزمتي أشد رطوبة من المرحاض وتصدر صوت خنفرة، كأنها جوارب تنف.

دفتر ملاحظات

أبقِ معك على الدوام دفتر ملاحظات في المتناول لتدوين الحقائق، والملاحظات، والأوصاف، ولتدوين التصريحات والمقابلات.

السجن سيئ التهوية، وحصة السجين من الهواء ضئيلة. كتبت في مدونتي اليومية: «العنبر رقم 9. حجم الهواء – 1,309 قدم مكعب. يوجد 65 سجينًا». وهذا في الصيف، حين لا يمضي سوى نصف السجناء ليلتهم في الداخل.

أخبرني [مدمن على لعب الورق] أنه حين يلعب *الشتوس*[1] يشعر «بكهرباء تسري في عروقه»، فيُشنَج التوتر يديه. وهو يحب أن يستذكر متفاخرًا كيف ربح في شبابه ساعة يد من رئيس الشرطة. يملؤه الحديث عن الشتوس بالجذل والانتشاء. أذكر كيف نطق كلمة «أضعتها!» بيأس صياد أخطأ هدفه. دوَّنت بعض تعبيراته لفائدة الهواة: «النقل انتهى! مستعد! لقِم! روبل للنقطة! صوِّب! اللون والنقشة! مدفعية: إطلاق!».

عندما وقفت أمام المحافظ العام وأوراقي بيدي، شرع يُفصِّل لي آراءه تجاه نظام سخالين الجنائي والمستعمرة، واقترح أن أدون كل ما يقوله، وهو ما وافقت عليه باندفاع بالطبع. اقترح أن أعنون الملاحظات كما يلي: «وصف لحياة التعساء». استقيت من كل ما قاله في محادثتنا الأخيرة وما أملاه عليَّ أنه - ورغم كونه إنسانًا شهمًا ونبيلًا- يعرف أقل عن «حياة التعساء» مما ينسب إلى نفسه معرفته. وهنا، على سبيل المثال، بعض أمثلة من ملاحظاته: «لا أحد محروم من أمل الحرية الكاملة، وليس من سجن مؤبد. الحكم غير المحدد حدُّه الأقصى عشرون عامًا. الأشغال الشاقة ليست قمعية. العمل القسري ليس قمعيًّا لأنه صعب جسديًّا، بل لأنه لا يمنح العامل أي مكسب شخصي. لا يوجد سلاسل، ولا حراس، ولا حلق للرؤوس».

---

(1) «شتوس» لعبة حظ تُلعَب بالورق. وقواعدها تشبه لعبة «فارو» ولا تطابقها، وهي تظهر بوضوح في الأدب الروسي في الحقبة الإبداعية (الرومانسية) في قصص شهيرة مثل قصة أ. س. بوشكين «ملكة البستوني» وقصة ميخائيل ليرمونتوف «شتوس». [ل. ل.]

كن مستعدًّا لمراجعة آرائك

كن مستعدًّا لمراجعة آرائك بناءً على القراءات والتوقعات.

كنت قد قرأت كثيرًا عن العواصف والجليد في مضيق التتار، ولذا فعلى متن *بايكال* توقعت أن أقابل صيادي حيتان فظين يبصقون عصارة التبغ مع كل كلمة يفوهون بها. في الحقيقة، كان الناس، الذين التقيتهم، متحضرين إلى حد كبير. كان السيد ل. –ربان السفينة، وهو من إحدى البلدان الغربية– قد أبحر في بحار الشمال لأكثر من ثلاثين عامًا، وقد قطعها من الضفة إلى الضفة، وقد رأى كثيرًا من الأمور العجيبة في زمنه، وهو يعرف كثيرًا، ولديه أسلوب شائق في رواية الحكايات. وبعد حياة من الإبحار حول كامشاتكا وجزر الكوريل، يمكنه أن يباري عطيل في التحدث عن «العواصف نفسها، والبحار الثائرة، والرياح الزائرة، والصخور التي تعترضها الأمواج والرمال المتراكمة»[2][1]. وأدين له دينًا معتبرًا لكثير من المعلومات في هذه الملاحظات. كان لديه ثلاثة مساعدين: السيد ب. -وهو ابن أخي عالم الفلك الشهير ب.- والسويديان إيفان مارتينيتش وإيفان فينيامينيتش، وكلاهما دمث ولطيف.

---

(1) يقدم تشيخوف ترجمة تقريبية لسطور كاسيو في الفصل 2، المشهد 1، من مسرحية شكسبير «عطيل». [ل. ل.]

(2) من ترجمة خليل مطران لمسرحية عطيل، منشورات مؤسسة هنداوي. (المترجم)

سافر

لا تُثبّطنَّ عزيمتك

لا تُثبّطنَّك مصاعب البدايات ولا الخوف من المجهول.

ولكن، عودًا إلى قصتي: مع تأخر الوقت في اليوم بينا لم أستطع إيجاد مبيت على الشاطئ، قررت أن أصعد إلى *البايكال*. ولكن ثمة عقبة واجهتني هنا أيضًا؛ فالبحر قد هاج، ورفض أصحاب قوارب الغيلياك أن يعبروا بي الآن بأي ثمن، فعدت إلى السير جيئة وذهابًا على امتداد الشاطئ مفكرًا في ما يجب فعله. كانت الشمس تغرب، واستحالت الأمواج سوداء على نهر آمور. ومن كلا الضفتين، علا نباح كلاب الغيلياك المجنون. بدأت أتساءل «الآن ما كان بالضبط سبب مجيئي إلى هنا؟»، وبدأت أظن أنها كانت حماقة خالصة أن أخوض هذه الرحلة. إن إدراكي بأن مستعمرة المحكومين باتت الآن شديدة القرب، وأنني سأصل في غضون أيام معدودة إلى سخالين دون حتى خطاب تعريف رسمي، وأن بإمكانهم أن يطلبوا مني أن أعود من حيث أتيت؛ هذا الإدراك انتابني الآن بأشد درجات الرفض. ولكن، أخيرًا وافق اثنان من الغيلياك على التجديف بي إلى الطرف المقابل لقاء روبل، ووصلت إلى *البايكال* دون أذى على طوف شد من ثلاثة ألواح.

كان [الجو] هادئًا وصحوًا، وهو شيء نادر في هذه المياه. وعلى السطح المستوي للبحر، نفثت أزواج من الحيتان نوافير من المياه عاليًا في الهواء، وأبقانا هذا المشهد الجميل الأصيل مرفهين طيلة وقت العبور. ولكن عليَّ أن أقر أن معنوياتي كانت منخفضة وتردَّت بزيادة مع اقترابنا إلى سخالين. لم أكن مرتاحًا. ذهل الضابط المرافق للجنود عند معرفته بسبب ذهابي إلى سخالين، وأصر أنني لا أملك أي حق في زيارة مستعمرة العقوبات تلك لأنني لا أمتلك أي صفة رسمية. كنت أعرف أنه مخطئ، بالطبع، ولكن كلماته نجحت مع ذلك في إحباطي، وخشيت أن تواجهني الآراء نفسها عند وصولي إلى سخالين.

... قضيت ليلتي على متن المركب. وفي الصباح الباكر، عند الخامسة تقريبًا، أيقظتني صيحات مرتفعة: «أسرع! أسرع! آخر دفعة إلى الشاطئ! العبارة ستغادر!»، وفي لحظة، صعدت إلى العبارة، واتخذت مكاني إلى جانب مسؤول شاب ذي وجه غاضب ناعس. صدر صوت صفارة، وذهبنا باتجاه الشاطئ، جارِّين وراءنا طوفين محملين بالمحكومين. كان السجناء متثاقلين ومتجهمين، مرهقين بعمل الليل وقلة النوم، فلم يتحدث منهم أحد. كانت وجوههم مغطاة بالندى. أذكر منهم عدة قوقازيين حادِّي الملامح بقبعات من الفرو منخفضة حتى حواجبهم.

في ألق الصباح الباكر، بدأ في الذوبان كل ما بدا بالأمس شديد الظلام والتهديد وما كان منذرًا بالأسوأ. كيب زونكير الثقيلة، البالية، بمنارتها، «الإخوان الثلاثة»[1]، وخط الساحل الصخري المرتفع المرئي على كلا الجانبين من مسافة عشرات الأميال، والضباب الشفاف على الجبال، والدخان المتصاعد من الحرائق؛ لم يبدُ أي من ذلك مرعبًا في نور الشمس الساطع.

لا تضع كثيرًا من الخطط

يكون أحيانًا من المفيد أن تترك الأمور للمصادفة، وخصوصًا في ظروف غير مألوفة.

على الشاطئ، كان يقف حصان أحدهم مشدودًا إلى عربة من التي تجرها الدواب بلا نوابض. وضع المحكومون حقائبي على العربة، وصعد المقصورة رجل ذو لحية سوداء يرتدي سترة فوق قميص طويل. وانطلقنا.

«إلى أين، سيادتكم؟» سألني، مستديرًا نحوي ورافعًا قبعته.

سألته إن كان يعرف شقة أو حتى غرفة للإيجار.

«بالتأكيد، سيادتكم، ثمة مكان للإيجار».

---

(1) يشرح تشيخوف في مكان آخر أن هذا كان اسم ثلاثة شعاب مدببة وراء مصب نهر دويكا. [ل. ل.]

... وأخذني السائق إلى أليكسادروفسكايا سلوبودكا، وهو حي في الضواحي، إلى منزل ب، أحد الفلاحين المنفيين. وأُخِذت إلى مكان مبيتي.

وبعد الصلوات في 8 أيلول، وهو يوم مقدس[1]، كنت أغادر الكنيسة رفقة مسؤول شاب عندما أُحضِرت جثة على نقالة. كان حاملو النعش –وهم أربعة محكومين رثُّو الثياب بوجوه خشنة دمرها تعاطي الكحول– يبدون تمامًا كالمتسولين في مدننا. تبعهم اثنان آخران، مثلهم تمامًا، كانا الحاملين الاحتياطيين، بالإضافة إلى امرأة لديها طفلان، وجورجي داكن البشرة اسمه كيلبوكياني، يرتدي ثياب رجل حر (يعمل كاتبًا ويُدعى «الأمير»)، وبدا أن كلهم على عجالة، خشية ألا يلحقوا الخوري. أخبرنا كيلبوكياني أن المُتوفَّى في الحقيقة امرأة حرة اسمها لياليكوفا، كان زوجها، وهو مقيم، قد ذهب إلى بلدة نيكولايفسك. وكان الطفلان طفليها، والآن لم يعد هو، أي كيلبوكياني، وهو نزيل عندها، يملك أدنى فكرة عما يجب أن يفعله بهما. ولعدم وجود بديل أفضل، مضيت أنا ورفيقي إلى المقبرة دون انتظار نهاية صلاة الجنازة.

(1) يُحتفَل بولادة العذراء مريم في 8 أيلول وفق التقويم الأرثوذكسي الروسي. [ل. ل.]

اذهب إلى العشاء، انتبه إلى الأثاث والطعام، وأصغِ إلى الضيوف، وشارك في الحديث.

بينما كنت أكلم الموظف، دخل علينا صاحب المتجر[1]، مرتديًا معطفًا حريريًّا وربطة عنق براقة. عرَّفنا عن أنفسنا.

دعاني قائلًا: «أيمكن أن تتفضّل عليَّ بقبول دعوتي إلى العشاء؟»

وافقت، وانطلقنا. كان يعيش حياة مريحة: أثاث من فيينا، وزهور، وغراموفون أريستون أمريكي، وكرسي هزاز من الخشب المثني يجلس عليه ل. بعد العشاء. بالإضافة إلى ربة المنزل، كان على المائدة أربعة ضيوف، كلهم مسؤولون. أحدهم -وهو رجل مسن ذو شوارب وسوالف شائبة جعلته يبدو ككاتب المسرحيات إبسن- اتضح أنه الطبيب المبتدئ في المستوصف المحلي. وآخر، وهو أيضًا متقدم في السن، عرَّف عن نفسه بأنه ضابط أركان في جيش قوزاق أورينبورغ. ومن أول عبارات تلفظ بها، ترك هذا الضابط لديَّ انطباعًا بأنه شخص لطيف جدًّا ووطني عظيم. كان وديعًا ولطيفًا في أحكامه، ولكن عندما بدأ يناقش في السياسة، خرج من قوقعته وتحدث بشغف عن قوة الجيش الروسي وبازدراء عن الألمان والبريطانيين، الذين لم يكن لديه أي خبرات شخصية معهم.

---

(1) صاحب المتجر، الذي يُدعى لاحقًا «ل.» في بقية النص. كان النبيل ك. خ. لاندسبيرغ، وهو ضابط في الحرس اتُّهم بجريمة قتل وحشية وحُكِم عليه بالأشغال الشاقة في 1879. [ل. ل.]

ذات مرة، في أثناء سفره إلى سخالين، أراد أن يشتري لزوجته شالًا حريريًّا في سنغافورة. وعندما طُلِب منه أن يُصرِّف نقوده الروسية إلى دولارات، شعر بإهانة كبيرة قائلًا: «وماذا بعد؟! أأُصرِّف أموالي الأرثوذكسية بأموال إثيوبية؟!» ولم يشترِ الشال.

تكوَّن العشاء من حساء، ودجاج، ومثلجات. وقُدِّم النبيذ أيضًا.

سألت: «متى، تقريبًا، تهطل الثلوج آخر مرة هنا؟»

أجاب ل.: «في أيار».

«خطأ. في حزيران»، قاطعه الطبيب شبيه إبسن.

قال ل.: «أعرف مقيمًا حصَّل قمحه الكاليفورني اثنين وعشرين ضعفًا. أعرفه شخصيًّا».

فاعترض الطبيب من جديد: «خطأ. حصاد سخالين صفر بالضبط. إنها أرض ملعونة».

«ومع ذلك، إن سمحت لي...» قال أحد المسؤولين، «فقد حقَّق القمح أربعين ضعفًا في عام 82. أعلم هذا واقعًا».

«لا تُصدِّقه»، التفت إليَّ الطبيب محذرًا، «إنهم يعمونك عن الحقيقة وحسب».

وفي العشاء، حُكِيَت الأسطورة التالية: عندما استحوذ الروس على الجزيرة وابتدؤوا في التضييق على الغيلياك، أحل شامان الغيلياك لعنته على سخالين وتنبأ بألا خير سيخرج منها أبدًا.

«وهذا بالضبط ما حدث»، قال الطبيب متنهدًا.

تنزّه

امشِ متنزهًا مع رفيق أو بمفردك، للتحدث في الأمور ومحاولة النظر إليها من بُعد وبحياد.

لديَّ ذكريات سعيدة من المشي حول ألكساندروفسك والمنطقة مع مدير مكتب البريد، مؤلف *سخالينو*.[1] وكانت وجهتنا المفضلة المنارة الشامخة فوق الوادي المطل على كيب زونكير. عندما ترفع نظرك إليها في وضح النهار، ترى منزلًا صغيرًا متواضعًا ذا سارية ومصباح، ولكن في الليل، حين تسطع نورًا في الظلام، تبدو عبودية الأشغال الشاقة بذاتها وكأن عينها الحمراء تحدق. كان الطريق المؤدي إلى المنارة شديد الانحدار، ويتصاعد حول الجبل مرورًا بالأرزيات أو أشجار اللاركس والشوح. كلما صعدت، زادت سعة تنفُّسك. يمتد البحر أمامك، ويمتلئ عقلك ببطء بالأفكار التي لا صلة لها بالسجن، ولا الأشغال الشاقة، ولا مستعمرة المنفيين، وتبدأ في تقدير الملل والعيشة القسرية الماثلة دونك. يتحمل المحكوم عليهم والمنفيون عقابهم يومًا تلو اليوم، بينما لا يتحدث الأحرار من الصباح إلى المساء سوى عمن تعرَّض للجلد، ومن حاول الهرب، ومن قُبِض عليه، ومن سيُجلَد. ومن العجيب أنك بعد أسبوع واحد

(1) في رسالة إلى سوفورين تعود إلى تاريخ 2 كانون الأول 1896، يُعرِّف تشيخوف صاحب البريد هذا أنه إدوارد دوتشينسكي، مؤلف شعر ونثر. وكان القصد من «ساخالينو» معارضة «بورودينو» (1837) أدبيًا بسخرية. وهي قصيدة وطنية عن معركة بورودينو عام 1812 –وهي آخر معركة خاضها نابليون على الأراضي الروسية– لكاتبها المنتمي إلى المدرسة الرومانسية ميخائيل ليرمونتوف. [ل. ل.]

فقط تجد أنك بدأت تعتاد على هذه المحادثات والاهتمامات، وأول ما تفعله عند الاستيقاظ أن تُهرَع إلى قراءة أوامر الجنرال –الصحيفة اليومية المحلية– ثم تسمع طيلة اليوم وتتحدث عمن حاول الهرب، ومن رُمِيَ بالرصاص، إلخ. ولكن، على الجبل، تجد فجأة إذ تُحيل نظرك اتجاه البحر والوديان الجميلة أن كل هذا الحديث مبتذل تمامًا ووضيع، كما هو بالفعل.

أبقِ عينيك مفتوحتين

على الطريق، انتبه إلى كل شيء.

سافرت فرستين[1] بين الميناء ومحطة ألكساندروفسك على طريق رائع. بالمقارنة مع الطرق السيبيرية، فإن هذا الطريق العام النظيف المُعبَّد –وفيه مجارٍ للمياه وأعمدة إنارة– رفاهية تامة. وعلى جانبه تمتد السكة الحديدية. ولكن اللافت للنظر في المشهد الطبيعي عريه من الأشجار والمناظر. تعج قمم الجبال والتلال المحيطة بوادي ألكساندروفسك، والتي يتدفق عبرها نهر دويكا، بجذوع الأشجار والأرزيات المتفحمة التي قتلتها الريح والحرائق كأنها أشواك قنفذ، بينما أدناه، في الوادي، الروابي والحمّيض هي كل ما تبقى من مستنقعات كان لا يمكن العبور منها في ما مضى. وتكشف مجاري المياه المحفورة حديثًا عن تربة موحلة محروقة مع نحو

(1) الفرست يُعَدُّ 3500 قدمًا، أو 1.0668 كيلومترًا. [ل. ل.]

نصف بوصة أو أقل من التربة السوداء (*الشرنوزم*)[1] لا تزال عالقة بها. لا تنُّوبة[2]، ولا بلُّوطة، ولا قيقبة تلوح في الأفق، لا يوجد سوى الأرزيات –الهزيلة، والرثة، والمتآكلة– تلك الأرزيات نفسها التي تزين حدائق روسيا وغاباتها تشير هنا إلى فقر التربة الغدقية والمناخ القاسي. محطة ألكساندروفسك -أو ألكساندروفسك اختصارًا- بلدة صغيرة جذابة من النوع السيبيري، يقطنها نحو ثلاثة آلاف نسمة. ليس فيها أبنية حجرية؛ فكل شيء –الكنيسة والمنازل والأرصفة– مصنوع من الخشب، وخاصة خشب اللاركس. هنا مبيت قائد الجزيرة، أو الكومندان، وسط مركز حضارة سخالين. يقبع السجن قريبًا من الشارع الرئيسي، ويبدو من الخارج كثكنة عسكرية، وهو سبب خلو ألكساندروفسك من الجو العام الكئيب الذي تتصف به السجون والذي كنت أتوقع أن أجده هنا.

اذهب في رحلات المسير

سِر على قدميك، ومع صحبة، وحِد عن الطريق.

في 27 آب، وصل الجنرال كونونوفيتش. وكان يصحبه مدير مقاطعة تيموفسك ومسؤول آخر شاب. وكان الثلاثة جميعهم أذكياء ومثيرين للاهتمام. مضى أربعتنا في مسير قصير، ولكن لشدة ما امتلأ بالمنغصات، بدا كأنه محاكاة ساخرة لمسير أكثر منه مسيرًا؛

---

(1) تربة سوداء خصبة. [ل. ل.]

(2) هو نوع من الشجر (التنُّوب). (المترجم)

فأولًا، كان المطر يهطل بغزارة، وكانت الأرض، التي ندوسها، موحلة وزلقة، وكان كل ما يلمسه المرء رطبًا. تسربت المياه داخل ياقاتنا نزولًا على ظهورنا. كانت جزمنا باردة ومبللة. كان إشعال سيجارة فعلًا معقدًا وصعبًا يتطلب الجهود المشتركة للمجموعة بأكملها. صعدنا إلى قارب قرب دبرينسكويه، وانطلقنا في نهر التيم... وجرى التيار رشيقًا. عمل المجدفون والموجهون الأربعة بتناسق. وبفضل سرعة النهر وانحناءاته الكثيرة، كان المشهد المحيط يتغير كل دقيقة. حُمِلنا على نهر من أنهار التايغا الجبلية، ولكن كان من دواعي سروري أن أستبدل بسحره البري، وضفافه الخضراء، وتلاله الشديدة الانحدار، والظلال الثابتة المترائية للصيادين غرفةً دافئة، وزوجًا من الأحذية الجافة، وخصوصًا أن المشهد كان رتيبًا في النهاية، ولم يقدم لي شيئًا جديدًا، وما زاد الطين بلة أنه كان مكتنفًا بالضباب الرمادي المطير. جلس أ. م. بوتاكوف أمامًا مع بندقيته، وظل يطلق النار على البط البري الذي أثرناه بمرورنا.

... وبعد ذلك بقليل، فاحت رائحة نتنة لأسماك متعفنة. كنا نقترب من قرية غيلياك أوسك-فو، التي صارت الآن تُدعى أوسكوفو. وعلى الضفة، قابلنا رجالًا من الغيلياك، وزوجاتهم، وأطفالهم، وكلابهم المقطوعة الأذناب، ولم تبدُ على أي منهم علائم الدهشة التي كان وصول بولياكوف الراحل قد أحدثها. حتى الكلاب والأطفال نظروا إلينا بلا مبالاة تامة.

... وبعد استراحة، نحو الساعة الخامسة عصرًا، انطلقنا لنعود سائرين إلى فوسكريسينسكويه. لم تكن المسافة تُذكَر؛ نحو ستة

فراست[1] إجمالاً، ولكن بسبب عدم خبرتي في المشي في التايغا، تعبت حتى من بعد الميل الأول. استمر المطر الغزير في الهطول. وبعد مغادرة أوسكوف مباشرة، اضطُررنا إلى مغالبة جدول عرضه نحو عشرة أقدام يمتد بعرضه ثلاثة جذوع ضيقة عوجاء، فنجح الجميع في العبور، ولكنني انزلقت ودخل الماء إلى جزمتي. وأمامنا، عبر الغابة، يمتد قطع مستقيم يمهد للطريق الذي سيُشيَّد في المستقبل. كان مستحيلاً أن يعبر المرء دون أن يخسر توازنه أو يتعثر؛ تلال، وحفر مليئة بالمياه، وشجيرات صلبة كالأسلاك الشائكة، وجذور تتربص تحت الماء ليتعثر بها المرء كما يتعثر على عتبة الباب، و -أسوأ كل ذلك وأكثره إزعاجًا- ما اقتلعته الرياح وأكوام الجذوع المقطوعة لتمهيد الطريق. فما إن تنتصر على كومة، غارقًا بعرقك، وتشق طريقك عبر المستنقع، حتى تلوح أمامك كومة أخرى، ولا مناص منها، وبينما تجر نفسك على جانب الطريق، يبدأ رفاقك في الصراخ بأنك تسير في الطريق الخاطئ، وعليك أن تلتف يمنة أو يسرة حول الكومة، إلخ. في البداية، حاولت أن أركز على إبقاء حذائي الآخر جافًا، ولكنني قررت بعدها أن أستسلم، وسلَّمت نفسي لأي ما كان سينالني من الحظ. أمكنني سماع التنفس المرهق للمستوطنين الثلاثة وهم ينازعون في مجاراتنا إذ يجرُّون معهم أشياءنا. كان الجو الخانق، وقصر النفس، والعطش قاهرين... ونزعنا قبعاتنا لجعل السير أسهل.

---

(1) أي نحو 6.6 كيلومترا. (المترجم)

دنا الجنرال، وهو يئز تعبًا، على جذع كبير. قعدنا إلى جانبه. عرضنا سيجارة على كل من المستوطنين، ولكنهم لم يجرؤوا على الجلوس.

«أف! ما أشق الطريق!»

«كم ميلًا بقي حتى فوسكريسينسكويه؟»

«ربما ميلان».

... وفي منتصف الطريق، لاحظنا أن الضوء بدأ يخفت، وسرعان ما صرنا في ظلام دامس. يئست من وصولي إلى نهاية المسير، وشققت طريقي متلمسًا، متخبطًا في المياه المرتفعة حتى الركبة ومتعثرًا بالجذوع. كانت ومضات تلعلع هنا وهناك وتضيء حولي وحول رفاقي، فكانت برك الماء والأشجار الضخمة المتعفنة تلمع ضوءًا فسفوريًّا، وبرقت على جزمتي لطخات متحركة تلمع كاليراعات.

أخيرًا -حمدًا لله- لاح ضوء -ليس تفسفُرًا، بل ضوءًا فعليًّا- أمامنا من بعيد. صرخ أحدهم، فصرخنا مجيبين. دخل الحارس إلى الصورة حاملًا مصباحًا. تقدم بخطى كبيرة عبر البِرك، والمياه تعكس ضوء مصباحه، وأرشدنا إلى كوخ حراسته في الطرف الآخر من فوسكريسينسكويه، التي بالكاد كانت تُرى الآن في الظلام[1].

(1) استغرقنا ثلاث ساعات لقطع أربعة أميال من أوسكوفو إلى فوسكريسنسكويه. لو كان للقراء أن يتصوروا شخصًا راجلًا مثقلًا بالطحين، واللحم المملح، والمؤن الحكومية الممنوعة، أو شخصًا مريضًا من أوسكوفو يُضطَر إلى الذهاب إلى مشفى ريكوف، لفهموا ما تعنيه عبارة «لا يوجد طريق» في سخالين. من المستحيل السفر بالعربات أو على ظهر الخيل. وقد حدث أن انتهت محاولات السفر على الأحصنة بكسر أرجل الخيل. [أ. ت.]

كان رفاقي قد أحضروا معهم بدلات لثيابهم، لبسوها ما إن وصنا إلى كوخ الحارس. ولكنني، مع أنني كنت منقوعًا حرفيًّا بالمياه حتى العظم، لم أكن أمتلك شيئًا جافًا. شربنا الشاي حتى الامتلاء، وتسامرنا، ثم نمنا الليلة. كان في الكوخ سرير واحد أخذه الجنرال، بينما تمدد بقيتنا من الفنانين على القش المتراكم على الأرضية.

اطلب المساعدة

اطلب المساعدة، وخصوصًا عندما تفتقر إلى القوة أو الموارد اللازمة لفعل شيء بنفسك.

كنت متعبًا أو ربما كنت كسولًا وحسب فلم أعمل في الجنوب بالجد نفسه الذي كنت أعمل به في الشمال. غالبًا ما أمضيت أيامي بأكملها في المسير والتنزه، ولم أعد أحبذ زيارة الأكواخ؛ لذا فمتى عرض أحدهم المساعدة بلطف لم أكن لأرفضها. أجريت أولى رحلاتي إلى بحر أوخوتسك رفقة السيد بيلي، الذي أراد أن يريني منطقته. ولاحقًا، وأنا أُجري تعدادي السكاني، كنت دائمًا برفقة مفتش المستوطنة ن. ن. يارتسيف.

كل أبواب الأبنية [في سجن ألكساندروفسك] مفتوحة على مصراعيها. أعبر أحدها إلى رواق قصير. الأبواب إلى اليمين واليسار تفيض إلى عنابر السجن، ومعلقة فوق الأبواب إشارات سوداء بأحرف بيضاء: رقم الزنزانة: س ع ص. حجم الهواء المكعب: س. عدد السجناء: س. وفي نهاية الرواق، يفضي باب إلى زنزانة صغيرة.

يسارع سجينان سياسيان يرتديان صدريتين مفتوحتي الأزرار، وأقدامهما حافية في أحذيتهما، لينفخا فرشتهما المليئة بالقش. هناك على حافة النافذة، كتيب وقطعة من الخبز الأسود. يفسر لي دليلي، قائد المقاطعة، أن هذين السجينين قد أُعطِيا إذنًا بالعيش خارج السجن، ولكنهما لم يريدا تمييز نفسيهما عن بقية المساجين واختارا ألا يستفيدا من هذا الإذن.

افعل أشياء عملية

افعل شيئًا لقضاء الوقت، أو، إذا تهيأت المناسبة لذلك، أدِّ عملًا مفيدًا. قد يساعدك ذلك في ملاحظاتك.

بسبب اضطرار *البايكال* إلى تفريغ حمولة وزنها 72 طنًّا من شحنات الحكومة، فقد أمضينا الليلة في دي كاستريس. أمضيت الوقت أنا والميكانيكي في صيد السمك من على متن السفينة، واصطدنا بعض أسماك القوبيون الضخمة الكبيرة الرأس، أسماكًا لم أصطد مثيلًا لها في البحر الأسود ولا بحر أزوف. واصطدنا بعضًا من سمك موسى المفلطح أيضًا.

إن تفريغ الحمولة مسألة تتطلب وقتًا شديد الطول هنا، ولا تُنجَز إلا بكثير من الأحقاد والضغائن... من على سطح *البايكال*، شاهدت زورق قَطْر يسحب بارجة كبيرة على متنها مئتا جندي، ورأيته يفك حبل القطر. انزلقت البارجة مبتعدة على أمواج المد متجهة مباشرة إلى سلسلة مرساة لباخرة راسية بالقرب من سفينتنا. تساقطت قلوبنا ونحن نترقب لحظة انكسار البارجة نصفين على السلسلة، ولكن

لحسن الحظ، التقط بعض الرجال الصالحين الحبل في اللحظات الأخيرة، ونجا الجنود إلا من بعض ذعر أصابهم.

بعد ذلك بقليل، أشرفت على المرضى المُسعَفين. غرفة الاستقبال تلي الصيدلية وتفوح فيها رائحة الخشب الندي والطلاء. يمثل مكتب الطبيب في قفص خشبي كالذي يكون في البنوك عادة، وهذا يضمن أن المريض لا يقترب كثيرًا من الطبيب خلال الفحص الطبي. يجلس الممرض إلى جانب الطبيب بصمت وهو يعبث بعقب قلم رصاص، كما لو كان العقب هو الذي يُفحَص.

عند مدخل الغرفة، يقف حارس مسلح على الباب مراقبًا الرجال والنساء الحائمين حول المكان. وهذا الترتيب الغريب مزعج للمرضى: أشك أن المصابين بالزهري أو النساء قد يحبذون مناقشة أعراضهم وأعراضهن بحضور الحارس الحامل لسلاحه والرجال الآخرين. أمراضهم إما *الحمى السخالينية* «*Febris sachaliensis*»[1]، أو الإكزيما، أو «أوجاع القلب»، أو أنهم متمارضون. يصطرخ المرضى المحكومون بعناد حتى يُعفَوا من الأشغال الشاقة.

دخل صبي يافع بخرَّاج على رقبته يستدعي الوخز، فطلبت مشرطًا، فانتفض الممرض ورجلان معه وسارعوا، وبعد مدة، عادوا إليَّ وأعطوني المشرط. كان مثلومًا، ولكنهم أصروا على أن هذا غير ممكن لأن الحداد صقله للتو. ومن جديد، انطلق الممرض والرجلان مسرعين، وبعد دقيقتين أو ثلاثة، عادوا بمشرط جديد.

---

(1) حمى سخالين (لاتينية). [ل. ل.]

بدأت أُحدِث الشق، ولكن نصل هذا المشرط أيضًا مثلوم، فطلبت بعض محلول حمض الفينيك، فأحضروه، ولكن بعد أن جعلوني أنتظر مدة طويلة. من الواضح أن هذا المطهر نادرًا ما يُستخدَم. لا حوض، ولا مسحات قطنية، ولا مجسات، ولا مقصات لائقة، بل ليس ثمة حتى ما يكفي من الماء.

شارك في الاحتفالات

راقب التحضيرات، والطقوس، والمشاركات، ولاحظ الجو.

كانت سخالين تستعد للزيارة القادمة للحاكم العام، وكان الجميع منشغلًا... عندما استيقظت في الصباح، ذكّرني مزيج شديد الخصوصية من الأصوات بالمكان الذي أنا فيه. خارج نوافذي المفتوحة، سار المحكومون بقرقعة السلاسل المحسوبة، وعلى الجانب المقابل لمساكننا من الشارع، في الثكنة العسكرية، كان الجنود الموسيقيون يتدربون على المواكب الموسيقية المختارة للترحيب بالحاكم العام. كان عازف الفلوت يمارس أحد المقاطع، وعازف الترومبون مقطعًا ثانيًا، وعازف الباسون ثالثًا، وكانت النتيجة فوضى تفوق التصور... كان العمال مسارعين في بناء جسر فوق دويكا. وكان الجميع ينظفون ويرسمون ويكنسون ويسيرون. عجّت الشوارع بالترويكات[1] وفرق من الخيول المطوقة بالأجراس، بينما كانت خيول أخرى تُجفَّف وتُنظَّف لقدوم الحاكم العام. لم يكن ثمة كثير من الوقت، لذا كان يجب استمرار العمل خلال أيام العطل.

(1) الترويكا زحافة روسية كالعربة تجرها ثلاثة خيول. (المترجم)

وصل البارون أ. ن. كورف، الحاكم العام لمنطقة أمور، إلى سخالين في 19 تموز على السفينة الحربية بوبر. وقدَّم مراسم الترحيب الرسمي به الحرس الشرف والمسؤولون وجماعة من المنفيين والمحكومين، وقد عُقِدت في الساحة الواقعة بين منزل الكومندان والكنيسة. أُدِيَت الموسيقى الآنفة الوصف، وعُرِض الخبز والملح على طبق فضي من الصناعة المحلية قدَّمه رجل عجوز مذهل، اسمه بوتيمكين، كان محكومًا في السابق، ولكنه الآن مقيم ثري في سخالين[1]. وقد كان مضيفي، الطبيب، في الساحة أيضًا، يرتدي معطفًا أسود كالعباءة وقبعة ويحمل بيده عريضة.

كانت هذه أول مرة أرى فيها حشدًا في سخالين، وقد صعقتني خصوصيته المتفردة بحزنها؛ إذ تكوَّن الحشد من رجال ونساء في سن العمل، ورجال عجزة وأطفال، ولكن لم يكن ثمة مراهقون على الإطلاق. بدا كما لو أن السنوات بين ثلاثة عشر وعشرين كانت ببساطة لا توجد على سخالين. لم أقاوم سؤال نفسي: «هل يعني هذا أن اليافعين ما إن يكبروا بما يكفي حتى يهربوا من هذه الجزيرة في أول فرصة تسنح لهم؟»

وفي اليوم التالي لوصوله، أخذ الحاكم العام على عاتقه فحص السجون ومستوطنات المنفيين. وحيثما ذهب، كان المنفيون، الذين انتظروه بفارغ الصبر، يدفعون إليه بالتماساتهم المكتوبة أو يوجهون

---

(1) تقديم الخبز والملح عرف تقليدي لإظهار الترحيب بالضيوف في البيوت الروسية. [ل. ل.]

إليه نداءاتهم الشفهية. تحدث البعض عن أنفسهم، وآخرون نيابة عن قرية بأسرها، وبما أن الخطابة ضرب فني مزدهر في سخالين، فقد كان ثمة عدد كبير جدًا من الخطب هذه. في ديربنسك، أشار المستوطن ماسلوف عدة مرات إلى السلطات على أنها «حكامنا الأكثر قداسة». ولسوء الحظ، لم يكن سوى جزء بسيط من الالتماسات الموجهة إلى البارون أ. ن. كورف معقولًا. وكما حدث في مناسبات مشابهة في أجزاء أخرى من روسيا، ظهر هنا أيضًا جهل فلاحينا المخيب للآمال؛ فهم لم يطلبوا المدارس ولا العدالة ولا الأجور العادلة. بدلًا من ذلك، أرادوا التنازلات الأكثر هامشية: حصص أكبر، الحق في تبني طفل ما، إلخ. بتعبير آخر: قدموا التماسات أمكن للسلطات المحلية أن تمنحها محليًا. ومع ذلك، كان أ. ن. كورف حريصًا ومتعاطفًا مع مطالبهم. من الواضح أنه تأثر بشدة بظروفهم البائسة، وقدَّم وعودًا ورفع الآمال في التحسين[1]. بعد أن أفاد مساعد المشرف في سجن أركوفو بأن «كل شيء على ما يُرام في مستوطنة أركوفو»، لفت البارون انتباهه إلى محاصيل حبوب الشتاء والربيع، وقال: «كل شيء على ما يُرام، إلا أنه لا حبوب في أركوفو». حصل سجناء ألكساندروفسك على لحم شياه طازج، بل

(1) وقد أثار أيضًا آمالًا غير واقعية بالمرة؛ ففي إحدى القرى، قال في حديثه عن حقيقة أن المنفيين من الفلاحين يحق لهم الآن العودة إلى البر الرئيسي: «ولاحقًا، يمكنكم أيضًا العودة إلى وطنكم، إلى روسيا». [أ. ت.]

حتى لحم غزلان على شرف زيارته. دار على كل الزنزانات، واستمع للالتماسات، وأمر بنزع السلاسل عن كثير من السجناء.

... في المساء، كان ثمة ألعاب نارية وأضواء. حتى وقت متأخر من الليل، طافت مجموعات من الجنود والمنفيين والمدانين في الشوارع المضاءة بمصابيح الزيت ومفرقعات الضوء البنغالي. كانت بوابات السجن مفتوحة على مصاريعها. بدا نهر دويكا -الذي عادة ما جعلته ضفتاه العاريتان يبدو تعيسًا وقذرًا- جميلًا الآن، بل ساحريًا حتى تحت ضوء المصابيح الملونة ومفرقعات الضوء البنغالي التي لمعت انعكاساتها على وجه الماء. ولكن كان ثمة شيء سخيف في الأثر بأكمله، كما لو طُلِب من ابنة الطباخ أن تلبس فستان سيدتها. كان في حديقة الجنرال موسيقى وغناء. كانت ثمة محاولة حتى لإطلاق المدفع، ولكنها انتهت بانفجار. ورغم ذلك، مع كل هذه المتع، كانت الشوارع موحشة. لا غناء، لا عزف على الأكورديون، ولا حتى سكِيرًا في الشارع؛ تحرك الناس كالأشباح وبصمت الأشباح. إن الأشغال الشاقة على ضوء الأنوار المبهرة لا تزال أشغالًا شاقة، والموسيقى البعيدة، التي يسمعها رجل منفي إلى الأبد من موطنه الأصلي، لا يمكن أن تفعل شيئًا سوى أن تصيبه بكآبة قاتلة.

اذهب إلى حفل زفاف

راقب ما يرتديه الناس، أعمارهم، طقوسهم، محادثاتهم، أدوارهم الاجتماعية، وحاول أن تكتشف ما يشعرون به.

في مساء من مساءات ألكساندروفسك، مر بنا القسيس المحلي، الأب إيغور، في زيارة قصيرة قبل الذهاب إلى الكنيسة ليشرف على مراسم زفاف. فذهبت بصحبته. وفي الكنيسة، كانت الشموع تُضاء للتو، وكان المنشدون قد تجمعوا على منصة الجوقة، وكانوا ينتظرون العروس بوجوه ضجرة. كان ثمة كثير من النساء، سواء من المحكومات أو الحرَّات، وظللن يتلفتن بفارغ الصبر نحو الباب. وفجأة، لوَّح شخص مرابط على الباب وهمس بحماس: «إنهم قادمون!» فبدأ المنشدون في التنحنح تجهيزًا لحناجرهم. اندفعت موجة من الناس عبر الباب، وصرخ أحدهم بشدة، وفي النهاية، دخل الزوجان الشابان. كان العريس مدانًا يعمل في التنضيد، ويبلغ من العمر نحو 25 عامًا، ويرتدي سترة ذات ياقة مجنحة منشَّاة حتى الصلابة وربطة عنق بيضاء. والعروس محكومة، تكبره بثلاثة أعوام أو أربعة، في فستان أزرق بدانتيل أبيض وورود في شعرها. كان على السجادة شال مفروش، وطئته العروس أولًا. كان الوصيفون، وهم منضدون، يرتدون ربطات عنق بيضاء أيضًا. خرج الأب إيغور من خلف المذبح، وأمضى وقتًا طويلًا في تصفُّح كتاب الصلاة الموضوع على المنصة. ردد: «تبارك إلهنا،...»، وبدأت مراسم الزفاف. بينما كان القسيس يضع أكاليل الزهور على رأسي العريس والعروس ويدعو الله أن يتوجهما بالشرف والمجد، كانت وجوه النساء في المصلين تُعبِّر عن مشاعر وفرح عميقين، وبدا كما لو كان الجميع قد نسي أن المراسم تجري في كنيسة سجن، في الأعمال

الشاقة، بعيدًا، بعيدًا كثيرًا، عن موطنهم الأم. تحدث القسيس إلى العريس: «نزِّه نفسك، أيها العريس، كما فعل إبراهيم،...» وما إن انتهى الاحتفال حتى فرغت الكنيسة وعبقت رائحة الشمع المذاب من الشموع المحترقة التي كان الحارس يسارع في إطفائها، وفي الحال، أصبح الجو شديد الكآبة. خرجنا إلى الرواق المعمد. كانت تمطر. قرب الكنيسة، وقد اجتمع حشد في الظلام ومثلت عربتان[1]

(1) يمكن الاطلاع على أفضل وصف لوسيلة النقل الروسية بامتياز هذه في مذكرات الكونت ك. ك. بالين لعامي 1908 - 1909 تحت عنوان «مهمة إلى تركستان»: «هل يمتلك القارئ أدنى فكرة عن العربة التي تُدعى بالروسية «تارانتاس»؟ يمكنها المشي على الصخور، والأحجار، أو، في الحقيقة، أي سطح يمكن تخيُّله، لا بد أنها اخترعت في الأيام التي لم يكن فيها طرقات أبدًا؛ فهي تتكون من عمودين طويلين ذوي نوابض، بقطر نحو أربع بوصات، موضوعين على توازٍ ويصلان بين محوري العجلتين اللذين يصلان بينهما، ويُوضَع جسم كبير من الخوص، واسع بما يكفي لاستيعاب شخصين، بين هذين العمودين في المركز بين المحورين، وأحيانًا يُثبَّت مقعد خفيف داخل الجسم، والتارانتاسات الأكثر فخامة تُزوَّد بمظلة، ويجلس سائق العربة على مقعد صغير فوق المحور الأمامي ويُربَط كل شيء بثلاثة أحصنة، ويكون أوسطها بين عمودين. عندما يوشك الركّاب على مغادرة نزل أقاموا فيه، تُوسَّد مرتبة مغطاة ببطانة من الريش على أرضية جسم العربة. وبشيء من الحظ، قد يتسنى للمرء أن يسترق بعض النوم متمددًا على الأرض إذا لم يكن الطريق وعرًا زيادة. نظريًّا، من المفترض أن تخمد الأعمدة ذات النوابض الاهتزازات، ولكنها فعليًّا تكون صلبة جدًّا وقوية لتتحمل فيهتز المرء بلا هوادة أو يرتد ذهابًا وإيابًا إذا كانت السير بوتيرة سريعة. وبسبب هذا، و بصفتي كنت عضوًا ومفتشًا في مجلس الشيوخ ومن ثم شخصًا مهمًّا؛ فقد كنت دومًا أقود بالسرعة القصوى، وكنا ندعو التارانتاس «أداة مساج كبد تعمل على الخيل»». ك. ك. بالين، «مختارات من مهمة إلى تركستان: من مذكرات الكونت ك. ك. بالين 1908 - 1909»، ترجمة ن. كوريس، يمكن مراجعتها في -www.iras.ucal gary.ca/~volk/sylvia/Pahlen.htm (آخر تحديث 14 آب، 2001). [ل. ل.]

يجرهما الخيل. جلس العروسان في إحداهما، بينما كانت الأخرى خالية.

«هنا، أبتاه!» كانت الأصوات تنادي الأب إيغور وعشرات الأيدي تمتد من الظلام كما لو أنها تريد مسكه. «من هنا، أبتاه! تفضَّل، شرِّفنا!»

صعد الأب إيغور إلى العربة بمساعدة الناس، وانطلق نحو منزل العروسين.

زُر المقابر

ادرس القبور وشواهدها، لاحظ ما نُقِش عليها، شارك في جنازة.

في مقبرة ألكساندروفسك، رأيت صليبًا أسود عليه صورة الأم المقدسة والنقش التالي: «هنا يرقد رفات الأَمة أفيميا كورنيكوفايا، تُوفِّيَت عام 1888، في الحادي والعشرين من أيار. كانت تبلغ 18 عامًا من العمر. نُصِب هذا الصليب في ذكراها ولتخليد مغادرة أبويها إلى البر الرئيسي في عام 1889، في حزيران».

كانت المقبرة تبعد نحو نصف ميل عن الكنيسة، خلف المستوطنة، قرب البحر، على تلة منحدرة. وبينما كنا نتسلق جانب التلة، تجاوزنا موكبُ الجنازة. من الواضح أن المراسم لم تستغرق أكثر من دقيقتين. ومن أعلى التلة، استطعنا رؤية التابوت وهو يترنح على نقالة وصبيًّا صغيرًا يتراجع ويبتعد عن امرأة كانت تجذبه من يده.

كانت لدينا من جهة إطلالة واسعة على المستوطنة والريف المحيط بها، ومن الجهة الأخرى رأينا البحر، هادئًا ولامعًا تحت ضوء الشمس. كان على التلة كثير من القبور والصلبان. كان ثمة صليبان كبيران يقفان جنبًا إلى جنب لتمييز قبري واحد يُدعى ميتسول والحارس سيليفانوف، الذي قُتِل على يد أحد السجناء. كانت الصلبان الصغيرة، التي وضعت على قبور المحكومين، متطابقة ومتحفظة. وبينما سيُذكَر ميتسول لوقت لا بأس به، فإن الآخرين الراقدين تحت كل تلك الصلبان الصغيرة -القتلة، الهاربون، المساجين المغلولون بالسلاسل- لا يفيدون أحدًا... ربما باستثناء شخص في السهوب الروسية، أو رجل عجوز يجلس بجانب نار المخيم في أعماق غابة ما، يحاول تسلية نفسه بسرد قصة عن رجل من قريته كان قد خاض يومًا تجربة إجرامية، فيحدق صحبه في الظلام ويرتجفون، ويصرخ طير في ظلام الليل. هذا هو أقصى ما سيُذكَرون به.

نُقِش على صليب قبر أحد المسعفين المنفيين ما يلي:

أيها المار! لتُذكِّرك هذه الأبيات

أن كل ما دون السماء فانٍ، إلخ.

وتنتهي بـ:

وداعًا، يا رفيقي، حتى ذلك الفجر السعيد!

إيغور فيدوروف

قاتل التعب الذي يرافق البحث بالتنقل.

في 10 أيلول، عدت إلى متن *البايكال*، التي أصبح القارئ يعرفها، هذه المرة لأبحر إلى جنوب جزيرة سخالين. سعدت لذهابي لأني كنت قد ضجرت من الشمال، وكنت تواقًا للحصول على انطباعات جديدة. رست *البايكال* بعد التاسعة بقليل. كان الظلام دامسًا. وقفت وحيدًا على مؤخرة السفينة، ناظرًا إلى الوراء، مودعًا العالم الصغير الكئيب الذي تحرسه من ناحية البحر صخور الإخوة الثلاثة التي بالكاد باتت تُرى الآن على سطح الماء إذ تلوح في الأفق مثل ثلاثة رهبان سود. كان بإمكاني سماع التحطم المنذر بالشؤم للأمواج على تلك الشعب المرجانية حتى من وراء ضجيج السفينة. ومع ذلك، سرعان ما ابتعدنا عن كل من زونكير والإخوة الثلاثة واختفوا وراءنا –بالنسبة إليَّ، إلى الأبد– في الظلام. تلاشى ببطء ضجيج الأمواج المضطربة، المليء بالحنين العاجز والشرير[1].

كنا قد أبحرنا نحو ستة أميال عندما اشتعلت النيران على الشاطئ: هذا كان سجن فويفودسك المرعب، وبعده بقليل، لمحنا نيران «دويه». ثم، بعد قليل، اختفى كل شيء، ولم يبقَ سوى الظلام، ومعه ذلك الوجل الذي ربما يرافق من يصحو من كابوس مشؤوم.

---

(1) في هذا التشخيص للأمواج، يحاكي تشيخوف الشاعر الروسي الرومانسي ب. إ. تيوتشيف. وخصوصًا قصيدة عام 1848 «البحر والجرف». [ل. ل.]

راقب

قم بجولات تفتيش

زُر الأماكن في أوقات مناسبة لترى سيرورة عملها المعتاد.

وصلت في تمام الخامسة صباحًا، مع استيقاظ المستوطنين. واستقبلتني رائحة نتنة، وقذارة، وازدحام! كان شعرهم أشعث كما لو قضوا الليل يتشاجرون. وكانت وجوههم، نصف النائمة، شاحبة ومريضة، وبدوا كالمجانين. كان واضحًا أنهم ناموا في ثيابهم وجزمهم، ملتصقين بعضهم ببعض في جماعات على منصة النوم[1] أو على الأرضية الترابية تحتها. أخبرني الطبيب، الذي أجرى الجولات معي ذلك الصباح، أنه لم يكن سوى سبعة أقدام مكعبة من الهواء لكل ثلاثة رجال أو أربعة. وهذا، لأجل المصادفة، كان الزمن الذي يُتوقَّع فيه انتشار الكوليرا في سخالين، وكانت فيه كل المراكب موضوعة في الحجر الصحي.

---

(1) كانت منصات النوم هذه -وتُعرَف بالروسية باسم «ناري – nary»- مناضد خشبية منخفضة تُرتَّب وسط الغرفة وتغطي نحو نصف عرضها. وعلى المحور الطولي، كانت المناضد تميل بعض الشيء باتجاه المنتصف، بحيث ينام السجناء رأسًا لرأس في المنتصف، مع وضع أقدامهم، الأخفض منهم بقليل، عند الحواف الخارجية للمناضد. [ل. ل.]

وفي الصباح ذاته، زرت سجن فويفودسك. بُنِيَ في سبعينيات القرن التاسع عشر على ضفة منحدرة من أكثر من 3360 قدمًا مربعًا كان ينبغي تسويتها قبل تشييد البناء. في الوقت الحالي، هذا هو السجن الأذيَع صيتًا من بين سجون سخالين. لقد صمد أمام كل محاولات الإصلاح، ومن ثم هو يقدم مثالًا نموذجيًّا للشكل القديم من السجون التي كانت تثير اشمئزازًا وذعرًا شديدًا في قلوب من يراها. يتكون سجن فويفودسك من ثلاثة أبنية كبيرة وبناء أصغر للزنازين الفردية. مكتبة سُر مَن قرأ

لا يمكن قول كثير عن الحجم المكعب للهواء أو التهوية هنا بطبيعة الحال. عندما دخلت السجن، كانت الأرضيات قد شُطِفت للتو، ولم يكن الهواء الرطب الكئيب قد تبدَّد بعد إذ كان هواء الليل ثقيلًا. أول ما سمعته شكاوى من بق الفراش. لا يهنأ لبق الفراش عيش؛ فقد أُبيد مرة بكلوريد الجير، وجُمِّد تارة حتى الموت في البرد القارس، ولكن حتى هذه الإجراءات لم تعد مجدية هذه الأيام. حتى عنابر حرس السجن كانت تنبعث منها رائحة المراحيض الكريهة، وحتى هناك كان المرء يسمع شكاوى عن بق الفراش.

أصغِ إلى الشائعات

أصغِ إلى النميمة وتحقَّق من المصادر لتتوثق من مصداقيتها، وحاول أن تحدد لم تحصل الشائعات الزائفة على تصديق التقارير الموثوقة نفسه.

بصرف النظر عن مستشار المحكمة (الذي يعمل مسَّاحًا في سخالين): لماذا لا يعود المستوطنون الأحرار والفلاحون الذين كانوا منفيين سابقًا إلى البر الرئيسي عندما يُتاح لهم ذلك؟ يبدو أن أحد الأسباب هو أن نجاحاتهم الزراعية أبقتهم في سخالين، ولكن من الواضح أن هذا لا يمكنه تفسير جميع الحالات؛ ففي النهاية، لا يستخدم المروج المشاعة وأرض الحراثة سوى بعض المستوطنين. فقط ثمانية مستوطنين لديهم مروج ومواشٍ، واثنا عشر لديهم أرض للحراثة؛ لذا، فكيفما نظرت إلى الأمر، ليس حجم الزراعة هنا كافيًا ببساطة لتفسير موقعها الاقتصادي الاستثنائي. لا عمال يُستأجَرون على الإطلاق، ولا حرفيون، وحده ل.، وهو ضابط سابق، لديه متجر. لا توجد بيانات رسمية قد تفسر كون سكان سخالين أثرياء، ومن ثم فإن الطريقة الوحيدة لفهم هذا الموقف هي بدراسة العامل الوحيد المتبقي: سمعتها السيئة. في الماضي، كان في سلوبودكا سوق سوداء كبيرة جدًّا للمشروبات الكحولية. أما الآن فقد أصبح استيراد المشروبات الروحية وبيعها ممنوعًا بصرامة على سخالين، ما أدى إلى ظهور نوع خاص من الاتجار في السلع المهربة. أحيانًا، كانت المشروبات الكحولية تُهرَّب إلى الجزيرة في علب من الصفيح على شكل أرغفة السكر[1]، وفي السماورات[2]، وحتى في

(1) كان السكر يُباع على شكل قباب طويلة تُدعى أرغفة حتى أواخر القرن التاسع عشر. (المترجم)

(2) السماور هو الوعاء الذي يُعَدُّ فيه الشاي. (المترجم)

الأحزمة، ولكن عادة ما كانت تُشحَن ببساطة في براميل في قواريرها المعتادة إذ كان المسؤولون الصغار يرتشون والكبار يغضون النظر.

يُحكى أن المناخ نفسه في سخالين يجعل المرأة قادرة على الإنجاب؛ فالمسنات يلدن، وحتى من كن عاقرات في روسيا وفقدن كل أمل في إنجاب الأطفال، تجدهن يحملن هنا. ويُقال إن النساء يعجلن بالتكاثر في سخالين وغالبًا ما يلدن توائم. في فلاديميروفكا، كانت امرأة في منتصف العمر لديها ابنة بالغة بدت متأكدة أنها تحمل توأمًا لأنها سمعت كثيرًا من الحديث عن هذا الموضوع، فأُصِيبت بخيبة أمل كبيرة عندما لم تنجب سوى طفل واحد. توسَّلت إلى القابلة: «ابحثي أكثر». ولكن الحقيقة أن ولادة التوائم لا تحدث بشكل أعلى من معدلها في روسيا. في فترة السنوات العشر التي انتهت في 1 كانون الثاني 1890، سجلت المستعمرة 2275 ولادة من الجنسين، بالمقارنة مع 26 مما يُدعى ولادات متعددة[1]. تكشف كل هذه الشائعات الزائفة في ما يخص الخصوبة الاستثنائية للنساء والتوائم وما إلى ذلك عن درجة الاهتمام التي ينظر بها السكان المنفيون تجاه الخصوبة وأهميتها بالنسبة إلى المنطقة.

(1) هذه الأرقام المأخوذة من سجلات المعمدانية للكنيسة لا تمثل سوى السكان الأرثوذكس. [أ. ت.]

اسأل نفسك لم يكتب الناس على المقاعد والحيطان.

على ما يبدو، كانت على جانب طريق المنارة مقاعد، ولكنها أُزيلت لمنع المحكوم عليهم والمنفيين في المنطقة من كتابة العبارات القذرة والبذيئة ونقشها عليها؛ فمن المؤكد أن كثيرًا من هواة المواد الإباحية يعيشون بحرية، ولكن عندما يتعلق الأمر بالتهكم الصرف، لا شيء يضاهي المحكومين. فهنا، ليست الرسائل المكتوبة على المقاعد وعلى أسوار الفناء الخلفي وحدها هي القذرة، بل حتى رسائل الحب مقززة. مما يلفت نظري أن من يكتب الشتائم والبذاءات على المقاعد يجب أن يشعر في الوقت نفسه بالضياع، والرفض، والتعاسة العميقة. قد يقول رجل مسن إنه سئم الحياة، وقد يشتكي أنه قد حان وقت الموت، وأن الروماتيزم يقتله، وعينيه تخذلانه، ولكن استمع فقط للحماسة التي يطلق بها سلسلة من الشتائم، واسمع كيف يُطيِّر بذاءات منتقاة وأساليب تعبيرية مزخرفة يمينًا وشمالًا كأنه يؤلف تعويذات معقدة تقي من الحمى. وإن صادف أنه يعرف القراءة والكتابة، فإنه على ما يبدو لا يستطيع كبت رغبته أو مقاومة الإغراء بأن ينقش بأظافره كلمة بذيئة على جدار المرحاض.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لاحظ إشارات الهرمية الاجتماعية

انتبه بحرص إلى الأشكال الرسمية وغير الرسمية للنداء، ورفع القبعة، واستخدام المساحة، وتفاصيل الملابس، والعلامات الجسدية.

يسمح الحراس المناوبون للسجناء بلعب الورق، ويشاركون هم أنفسهم في القمار، ويشربون مع المنفيين، ويمارسون تجارة الخمور... لا يحترمهم المنفيون وينظرون إليهم بلا مبالاة نابعة من ازدراء. يدعونهم «معاتيه» في وجوههم، ويخاطبونهم بضمائر المخاطب الفردي العادية بلا تفخيم. لا تحاول الإدارة رفع هيبتهم، وربما لشعورها بأن ذلك عديم الجدوى. يخاطب المسؤولون الحراس بلا تفخيم، ويتحدثون بإساءة إليهم أمام المحكومين... ويبحث الحراس المنتمون إلى الطبقة الأعلى، كأنهم يخجلون من وظائفهم، عن طرق لتمييز أنفسهم عن زملائهم؛ فقد يرتدي أحدهم شارة أعرض بقليل على كتفه، وقد يرتدي آخر زي الضباط الرسمي، وقد يُعرِّف آخر -إن كان يحمل صفة أمين سجل جماعي[1]- عن نفسه في الوثائق الرسمية على أنه ليس «حارسًا»، بل «مدير للعمل والعمال».

---

(1) في عام 1722، قنن الإمبراطور بيتر الأول، الأكبر، الخدمة الحكومية ووحّدها من خلال إنشاء «جدول الرتب»، الذي يتألف من أربع عشرة «درجة» في كل من الخدمات العسكرية والمدنية والمحاكم، وسن كل منها واجبات والتزامات ومزايا محددة، بالإضافة إلى أزياء موحدة مميزة لكل منها. وكان أمين السجل الجماعي في أدنى السلم البيروقراطي، أي في الدرجة الرابعة عشرة. [ل. ل.]

وبينما كنت في ألكساندروفسك، رأيت أن المسؤولين وعائلاتهم يحتلون الجزء الأمامي من الكنيسة خلال المراسم، ثم يتلوهم صف ملون من زوجات الجنود والحراس والنساء الحرائر مع أولادهن، ثم يأتي الحراس والجنود، وفي آخر المقاعد في الوراء، عند الجدار الخلفي تمامًا، كان المستوطنون بملابسهم المدنية، والعاملون المدانون. هل يمكن لمحكوم برأس محلوق، وبخط أو خطين على ظهره، مغلول، أو بسلسلة وكرة حديدية مقيدة إلى كواحله، أن يذهب إلى الكنيسة إذا رغب بذلك؟ أجابني راهب طرحت عليه هذا السؤال: «لا أدري».

في سخالين، لا يرفع المواطنون الأحرار قبعاتهم عندما يدخلون إلى الثكنة. هذا التأدب مطلوب فقط من المنفيين.

هنا يشيع تطبيق العقاب البدني بالضرب أكثر من الشمال، وأحيانًا ما يصل إلى ضرب خمسين رجلًا في وقت واحد. في الجنوب، عادة غبية واحدة ابتدأها عقيد منسي منذ زمن بعيد: عندما يصادف لك، وأنت مواطن حر، أن تلتقي بمجموعة من السجناء في الشارع أو على الشاطئ، فمن على بعد خمسين خطوة ستسمع الحارس يصرخ «انتباه! ارفعوا القبعات!» فيتقدم الرجال العاري الرؤوس، الكئيبون، أمامك مرتعشين، وكأنهم يخشون إذا انتظروا في خلع قبعاتهم إلى مسافة عشرين أو ثلاثين خطوة، بدلًا من خمسين، أنك ستضربهم بعصاك، تمامًا مثل السيد ز. أو السيد ن.

انتبه إلى أسماء الأماكن

ضع في بالك أهمية أسماء الأماكن أو الشوارع.

من العرف في سخالين تسمية الشوارع بأسامي المسؤولين الأحياء.

بالاتجاه الصاعد لنهر الدويكا، وراء ألكساندروفسك، تقع مستوطنة كورساكوفسكويه. أُسِّست في عام 1881، وسُمِّيَت على شرف م. س. كورساكوف، الحاكم العام السابق لشرق سيبيريا. من الوقائع المثيرة للتعجب أن مستوطنات سخالين تُسمَّى على أسامي الجنرالات السيبيريين، والسجانين، وحتى المسعفين، بينما تُنسى أسامي المستكشفين كنيفيلسكوي، والملاح كورساكوف، وبوشنياك، وبولياكوف، وكثيرين آخرين ممن هم في رأيي أحق بتخليد ذكراهم من شخص كذلك السجان دربين الذي قُتِل بسبب قسوته[1].

يدعو المستعمرون أنفسهم مستوطنتهم «وارسو»؛ لأن كثيرًا من سكانها من الكاثوليك.

---

(1) حتى تاريخه، الاثنان اللذان بذلا أكثر من الجميع لأجل تأسيس المستعمرة الجزائية وإدارتها بمسؤولية هما م. س. ميتسو ل وم. ن. غالكين-فراسكوي. وقد سُمِّيَت مستوطنة صغيرة فقيرة مؤقتة مكونة من عشرة بيوت تخليدًا للأول، بينما كُنِّيَت المستوطنة ذات الاسم المعروف منذ وقت طويل «سيليانتسي» باسم الأخير، ولكنها في الحقيقة لا تُعرَف باسم غالينكو-فراسكويه إلا على بعض الخرائط. وللمصادفة، مُنح اسم م. س. كوراسكوف لمستوطنة ومركز كبير لا بسبب أي من فضائله أو تضحياته بعينها، بل فقط لأنه شغل مرة منصب الحاكم العام وجعل الناس يهابونه. [أ. ت.]

سل نفسك إذا ما كان مظهر الأبنية، وأثاث البيوت، وأنماط الكلام لا يحتفظ بشيء من آثار الماضي، وعن مظاهر احتفاظه بها.

يتكون العنبر من غرفة واحدة فيها فرن روسي. صُنِعت الأرضية من الخشب. وفي الغرفة طاولة، ومقعدان أو ثلاثة، وأريكة، وهيكل سرير مع فرشة، أو تُوضَع الفرشة مباشرة على الأرض. أحيانًا لا يوجد أي أثاث على الإطلاق إلا سرير ريش في وسط الأرضية، نِيمَ عليه للتو كما هو واضح. على حافة النافذة، كوب من بقايا الطعام. تبدو قطع الأثاث منظمة الأماكن أكثر في زنزانة الحبس الانفرادي عما تكون عليه في عنبر أو غرفة. حيثما كان نساء وأطفال، مهما بلغ الفقر، يمتاز المكان بالراحة المنزلية، ويُذكِّرنا بطريقة ما بحياة الفلاحين، ومع ذلك، بالتأكيد، يشعر المرء بغياب شيء جوهري؛ إذ لا يوجد جد، ولا جدة، ولا أيقونات قديمة، ولا أثاث قديم. ليس للمنزل تاريخ ولا تقاليد. ليس فيه ركن أيقونات، أو -إن وُجِد- هو قاحل ومعتم، وخالٍ من شموع النذور والزينة. لا تقاليد. المفروشات عشوائية وتشير إلى أن العائلة متنقلة، وأنها انتقلت للتو إلى المسكن ولما تستقر بعد. لا يوجد قط، ولا صرصور يعر في ليالي الشتاء الباردة... وأسوأ من كل ذلك: لا وطن أم.

عندما تسأل مستوطنًا قديمًا إذا ما كان يذكر أي شخص صالح سبق أن عاش على الجزيرة، فسيتوقف متأملًا، كما لو كان يستذكر شيئًا حدث في قديم الزمان الغابر، وأخيرًا سيقول: «كان ثمة كل أنواع

البشر». لا يوجد مكان يُنسى فيه الماضي بسرعة نسيانه في سخالين، وهذا بسبب العابرية المتطرفة للسكان المدانين، الذين يمكن القول إنهم يتبدلون كل خمس سنوات، وبسبب عدم الاحتفاظ بسجلات دقيقة في المكاتب المحلية. كل ما حدث قبل عشرين أو 25 عامًا يُعَدُّ من التاريخ السحيق، ونسيًا منسيًّا وضائعًا في الذاكرة. كل ما يبقى بضعة مبانٍ، وميكريوكوف، ودزينتان من القصص، وبعض الإحصائيات من الماضي، ولكنها لا يمكن الوثوق بها لأن أيًّا من الأقسام لا يمتلك حتى أدنى فكرة عن عدد السجناء، والهاربين، والمُتوفِين، إلخ. الذي يمكن أن يكون على الجزيرة.

استعمل أنفك

استنشق الروائح، وتعرَّف على مصادرها، وصِفها بلغة بسيطة، وحاول أن تحدد تركيبها الكيميائي.

بعد قضاء اليوم في العمل، في طقس سيئ عادة، يعود المحكوم إلى السجن لقضاء الليل. بثياب مخترقة، وحذاء قذر، ولا يوجد مكان لتجفيف شيء، فيعلق بعض ثيابه على منصة النوم، والباقي يفترشه للنوم. تفوح من معطفه المصنوع من جلد الغنم رائحة لحم الضأن، وتنبعث من حذائه رائحة الجلد والقطران. وتُلقى ملابسه الداخلية، المشبعة بسوائل الجسم، والمبللة وغير المغسولة، في كومة مع أكياس قديمة وخرق متعفنة. لجواربه رائحة عرق خانقة. جسده غير مغسول ومصاب بالقمل وانتفاخ البطن، وهو مدمن على التبغ

الرخيص. يُوضَع في صحيفة طعامه فتات الخبز، واللحوم، والسمك المجفف -الذي يكون غالبًا قد ملَّحه بنفسه في السجن- وقطعها، وعظامها، وبقايا شوربة الشي[1]. يسحق بق الفراش بأصابعه على منصة النوم. وكل هذا يجعل هواء السجن نتنًا ورطبًا ونفاذًا. إنه مشبع بالبخار إلى درجة أنه خلال موجات الصقيع الشديد تتجمد النوافذ بطبقة سميكة من الجليد، ما يجعل المكان مظلمًا في النهار. يمتزج كبريتيد الهيدروجين والأمونيا وجميع أنواع المركبات الأخرى مع الهواء وبخار الماء، والنتيجة هي شيء -على حد تعبير أحد المفتشين- «يصيب الروح نفسها بالغثيان».

أصِخ سمعك

أصغِ إلى الضجة، والأصوات، وصوت الخلفية.

في «دويه» دائمًا هدوء. سرعان ما تعتاد الأذن على القعقعة المحسوبة للسلاسل، وهدير الموج، وطنين أسلاك التلغراف، ولا تفعل هذه الأصوات سوى تعزيز انطباع السكون الميت. ولا يخيم ختم اليأس على الأبنية المخططة وحسب؛ فإذا انفجر أحد في الشارع ضاحكًا فجأة فسيكون ذلك قاسيًا وغير طبيعي. من أقصى بداية «دويه»، أخذت الحياة هنا مساقًا لا يمكن إلا لأكثر الأصوات اليائسة وحشية وقسوة أن تُعبِّر عنه. ولا يمكن إلا للهبات الشتوية العاتية الآتية من البحر عبر الفجوة في الليالي الباردة، التي

(1) حساء الكرنب. [ل. ل.]

ترتجف لها العظام، أن تنشد ما يجب أن يُنشَد. ولهذا من الغريب جدًّا أن تسمع غناء شكانديبا، غريب أطوار «دويه»، منبثقًا من هذا الصمت؛ فهذا المحكوم عليه، الذي صار الآن عجوزًا، كان يرفض العمل منذ حط في سخالين وفشل كل شكل يمكن تصوره من الإجبار والإخضاع في وجه عناده الممتنع التام. أُبقِيَ في زنازين العزل الانفرادي، وجُلِد، ولكنه تحمل بصبر كل أشكال العقاب. وبعد انتهائه، كان يعلن في كل مرة: «لن أعمل». عانوا كثيرًا في محاولة كسر عزمه، ولكنهم استسلموا أخيرًا. والآن يتمشى وهو يغني من طرف «دويه» إلى طرفها الآخر.

ثمة ساحة كبيرة في وسط المستوطنة وتطل عليها كنيسة خشبية ما من محال تجارية حولها كما في قرانا، بل فقط هياكل سجون ومكاتب المسؤولين ومساكنهم. وعندما تعبر الساحة، تشعر كما لو كنت في معرض صاخب يضج بأصوات غجر أوسكوفو المتاجرين بالخيول، وتفوح منه رائحة نتنة من القطران والسماد والسمك المدخن، ويعج بخوار الأبقار وصرير الأكورديونات وغناء السكارى. ولكن هذا الخيال الشاعري يختفي كالهباء المنثور ما إن ينتهي إلى سمعك أول صوت منفر لجلجلة السلاسل والصوت المكتوم لسير الأقدام العارية إذ يعبر السجناء والحراس الميدان في طريق عودتهم إلى السجن.

المس

استخدم حاسة اللمس لديك.

في الحقيقة، كان الخبز فظيعًا؛ فعندما فتحته، لمعت قطرات صغيرة من الرطوبة تحت ضوء الشمس، والتصقت بأصابعي، وبدت كأنها كتلة قذرة من المخاط لمسها يثير الاشمئزاز.

تذوَّق

استخدم حاسة الذوق لديك.

أتى الشاي مع فطائر «بانكيك» مصنوعة من القمح وقشدة حامضة، وفطيرة بيض، وفطائر، وكعك حلو. كانت فطائر «البانكيك» رقيقة ودهنية، وكان مذاق الكعك ومنظره كتلك اللفافات الصفراء الإسفنجية التي يبيعها الأوكرانيون في البازارات في تاغانروغ وفي روستوف-على-نهر-الدون... إذا طلبت شيئًا دافئًا على الغداء فسيحضرون دومًا «حساء البط»، وهو حساء لزج غير مستساغ مع قطع من لحم البط البري وحوصلة الطائر كاملة بمحتوياتها الأصلية. لا يكفي القول إنه لا يفتح الشهية، بل هو مقزز تمامًا[1].

(1) Anton Chekhov, "Iz Sibiri," II (May 9, 1890), Polnoe sobranie sochinenii i pisem v trideati tomakh: Sochinenia v vosemnadcati tomakh: Toma chetyrnadcatyj—pyatnadcatyj: Iz Sibiri: OstrovSakhalin. (1890–1995) (Moscow: Nauka, 1987), available at:http://az.lib.ru/c/chehow_a_p/text_0200.shtml.

اجمع الحقائق

استشر المصادر المكتوبة

ادرس التقارير والمراسيم الرسمية، واللوائح، والتشريعات، والرسائل الخاصة، واستنتج العادات من أوامر الحظر التي تمنعها.

تقول الشائعات إن شعب سخالين يبلون حسنًا بمجرد انتقالهم إلى البر الرئيسي. وقد تمكنت من قراءة رسائلهم، ولكن لم تُتَح لي الفرصة لأرى كيف أبلوا فعلًا في أماكنهم الجديدة.

قام الأساقفة بزيارات متكررة إلى سخالين، مسافرين بالبساطة نفسها ومتحملين عناءات الطريق ومشقاته نفسها التي يتحملها الرهبان العاديون. وخلال جولاتهم، نظموا الكنائس، وباركوا أبنية مختلفة، وزاروا السجون، وقدموا كلمات العزاء والأمل للمنفيين[1]. ويمكن تقدير طبيعة خدمتهم من المقتطف التالي من قرار في رسالة كتبها «قداسته» وحُفِظت في كنيسة كوراسكوف: «بينما لا يمتلك جميع [المنفيين] إيمانًا وتوبة، فإن كثيرًا منهم يفعلون، وهذا ما تأكدت منه بنفسي؛ إذ لا شيء سوى شعورهم بالتوبة والإيمان دفعهم

(1) عن تكريس منارة كريلون من قبل الأسقف مارتيميان، انظر فلاديفوستوك، 1883، رقم 28. [أ. ت.]

إلى ذرف دموع الأسى عندما بشَّرتهم في عامي 1887 و1888. وبصرف النظر عن معاقبة المجرمين على جرمهم، فإن الحبس يهدف إلى غرس مشاعر سليمة أخلاقيًا في السجناء، وخصوصًا لمنعهم من الغرق في اليأس في ظل محنتهم».

في السجون كثير من الحراس، ولكن بلا نظام. يشكل الحراس -كما اعترف قائد الجزيرة «الكومندان» بنفسه- عبئًا دائمًا على الإدارة. ونادرًا ما يمر يوم لا تفرض فيه الأوامر اليومية عقوبة ما؛ تخفيض رتبة أو حتى عزل: واحدة بسبب عدم الموثوقية والتقصير في الواجبات، وثانية للفجور والتراخي والغباء، وثالثة لسرقة المؤن الحكومية الموكلة إلى الحارس، ورابعة لغض النظر عن الانتهاكات، وخامسة ليس فقط للفشل في المحافظة على النظام على البارجة التي تمركز عليها، بل أيضًا لتقديم مثال سيئ من خلال سرقة الجوز من المركب نفسه، وسادسة لبيع الأعمدة والمسامير من ممتلكات الحكومة، وسابعة للتراخي المزمن في إطعام العلف لمواشي الحكومة، وثامنة لإقامة العلاقات المشبوهة مع المحكومين. ومن خلال الأوامر اليومية، يمكننا أن نتعرف على أحد كبار الحراس الذي -وخلال أداء وظيفته- شرع يقتحم ثكنات النساء من خلال التسلق عبر النافذة بعد ثني القضبان الحديدية إلى الخلف، وذلك بقصد السعي وراء غاية رومانسية. وفي مناسبة أخرى، أدخل حارس أحد زملائه، برتبة جندي، إلى زنزانة لحبسه سجينات في الحبس الانفرادي في الساعة الواحدة ليلًا. ولا يحصر الحراس مغامراتهم الغرامية في النطاق الضيق لثكنات النساء والزنازين الانفرادية...

وفي الأوامر اليومية، نجد أيضًا ذكرًا للعنف، والعصيان، والوقاحة الشديدة تجاه الرؤساء في حضور المحكومين، وأخيرًا، تعرُّض السجناء للضرب بالهراوات حول الرأس وإصابتهم بجروح خطيرة.

احتفظ بالقسائم، والجداول، والمناشير

متى ما أمكن، اجمع الوثائق، والكتيبات، والإعلانات.

في الظهيرة، ذهبت في نزهة حول القرية. وعندما مررت بأطرافها، صادفت كوخًا جميلًا قدامه حديقة صغيرة وفوق بابه لوحة نحاسية صغيرة. وبجوار الكوخ، مطلًا على الفناء نفسه، متجر صغير. فذهبت لشراء الطعام. هذه «المؤسسة التجارية» و«مستودع الملتزمات التجارية» -كما تصف هذه المؤسسة المتواضعة نفسها في قوائم الأسعار المطبوعة والمكتوبة بخط اليد، والتي لا تزال بحوزتي- كانت ملكًا للمستوطن ل.، وهو ضابط سابق في الحرس حكمت عليه محكمة منطقة سان بطرسبرغ قبل 12 عامًا بالأشغال الشاقة بتهمة القتل. كان قد أتم حكمه القضائي وانخرط الآن في التجارة والإشراف على مشروعات تشييد الطرقات وما إلى ذلك. ولهذا كان يحصل على راتب مشرف كبير. وقد عملت زوجته، وهي امرأة حرة ومن طبقة النبلاء، ممرضة في مشفى السجن. كان المتجر يبيع نجومًا لتزيين الكتّافات، والحلويات التركية، ومناشير الخشب العرضية، والمناجل، و«قبعات صيفية للسيدات بأحدث الطرازات

والصيحات من أربعة روبلات و50 كوبيكًا حتى 12 روبل لكل قطعة».

قدَّم لي أحد المحكومين التماسًا بعنوان: «سري. من حفرتنا القصية التي تخلى عنها الرب. إلى الأديب العظيم والكريم، السيد تش. الذي أسعدت زيارته سخالين، هذه الجزيرة التافهة. محطة كورساكوف». هذه الأبيات، بعنوان «نبات سم الذئب»:

ينمو على ضفة النهر، بكل فخر
يحيط به الوحل في تجويف:
ورقة زرقاء جميلة وسط أكمة من القصب
إنها هالة الأعشاب الطبية.
نبتة سم الذئب،
من يد الخالق نفسه،
بجاذبيتها القاتلة
ستقتل كثيرًا من الفانين،
وسيمتلئ حضن إبراهيم[1].

(1) حضن إبراهيم إشارة إلى إنجيل لوقا الإصحاح 16 الآيتين 22 - 23، وهو مكان انتظار الصالحين يوم الدين. (المترجم)

حلِّل خرائط الأرصاد الجوية، واجمع الآراء، وانقل تجاربك الخاصة، وقارن بين المناطق المختلفة؛ لتظهر أثر الطقس على الغطاء النباتي، والحصاد، والمزاج العام.

أخبرني عمدة فلاديفوستوك مرة أن «لا شيء اسمه المناخ» في فلاديفوستوك أو أي منطقة أخرى على الساحل الشرقي. يُقال إن سخالين نفسها ليس فيها مناخ، بل طقس سيئ وحسب –الأسوأ في كل روسيا– مع أنني شخصيًّا لا يمكن أن أشهد على دقة هذه الملاحظة؛ فخلال فترة إقامتي، كان الطقس الصيفي بهيجًا، على عكس هطول الأمطار غير العادي الذي دفعتني خرائط الأرصاد الجوية إلى التنبؤ به.

الشتاء في منطقة ألكساندروفسك أقسى منه في أرخانغيلسك، الربيع والصيف كربيع فنلندا وصيفها، والخريف كخريف سان بطرسبرغ. درجة الحرارة الوسطية في السنة صفر درجة مئوية، كما في جزر سولوفيتسكي[1]. في وادي دويكا طبقة جليدية. قاسها بولياكوف بعمق 21 بوصة في 20 حزيران. في 14 تموز، سجل ثلوجًا تحت مكبات القمامة وفي التجاويف القريبة من الجبال، ولم تذب الثلوج حتى نهاية الشهر. وفي 24 تموز 1889، تساقطت

(1) تشيخوف يورد درجات الحرارة بوحدات ريامور، التي كانت قياسية في روسيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ودرجة الحرارة المكافئة وفق فهرنهايت 32 درجة. [ل. ل.] وبالدرجات المئوية صفر [المترجم]

الثلوج في الجبال، التي تُعَدُّ منخفضة الارتفاع هنا، وارتدى أهل المنطقة معاطفهم من الفرو والجلود. وعلى مدى تسع سنوات، لم يكن الجليد على نهر دويكا يذوب قبل 23 نيسان، ولا بعد 6 أيار. لم يذب الجليد مرة طيلة فصول الشتاء التسعة بأكملها. وانخفضت درجة الحرارة إلى ما دون درجة التجمد لمدة 181 يومًا في السنة، مع هبوب ريح باردة في 151 يومًا منها. ولكل ذلك مدلولات عملية مؤثرة؛ فقد أفاد غريازنوف أنه في منطقة تشيريبوفيتسكي، حيث الصيف أدفأ وأطول، لا تنضج الحنطة السوداء، ولا الخيار، ولا القمح كفاية، بينما يدَّعي مفتش الزراعة المحلي في منطقة ألكساندروفسك أنه لم يمر عام قط كان فيه عدد الأيام الحارة كافيًا لينضج الشوفان والقمح.

يجب أن تكون الرطوبة المحلية الزائدة ذات أهمية كبيرة للمهندسين الزراعيين وخبراء الحفاظ على الصحة. ثمة تساقط في ما متوسطه 189 يومًا في السنة: 107 منها تساقطات ثلجية و82 مطرية. (في منطقة تشيريبوفيتسكي تهطل الأمطار 81 يومًا والثلوج 82 يومًا). طيلة أسابيع متواصلة، تغطي السماء غيوم رصاصية، وفي نظر السكان المحليين، يبدو هذا الطقس الكئيب المستمر كأنه يمتد بلا نهاية. ويؤدي هذا النوع من الطقس إلى هيمنة الأفكار الخانقة، واليأس، والشرب. ومن يدري، لعل أثره قد أدَّى بكثير من ذوي الدم البارد إلى الوحشية، وربما فقد كثير من ذوي الأرواح الطيبة، الضعيفة، كل أمل يملكونه في حياة أفضل... كثيرًا ما يظهر الضباب، وخاصة في البحر، حيث يحل كاللعنة على البحارة، ويُقال

إن ضباب المحيط المالح ضار بالنباتات والأشجار والأعشاب على امتداد الساحل بأكمله... رأيت ذات مرة، في يوم صحو، جدارًا أبيض من الضباب قادمًا من البحر، كان بلون الحليب، وبدا كأنه ستارة بيضاء تتساقط من السماء.

أجر تعدادًا للسكان

عندما تغيب الحقائق، من المفيد إجراء تعداد سكاني، وذلك ليس للحصول على إحصاءات بقدر ما هو للوصول إلى البيوت وفرصة لقاء الناس.

خلصت إلى الطريقة الوحيدة التي يمكن بواسطتها لشخص في موقعي أن يزور كثيرًا جدًّا من المستوطنات ويتعرف إلى كيفية عيش الناس فعليًّا، فأجريت تعدادًا للسكان. في المستعمرات، زرت كل الأكواخ وأخذت أسماء أصحابها، وأفراد عوائلهم، والمستأجرين، والعمال. تلقيت عرضًا سخيًّا للمساعدة على شكل مساعدين قد يخففون عني الحمل ويوفرون الوقت، ولكن نظرًا إلى أن هدفي الرئيسي في إجراء التعداد أصلًا لم يكن الأرقام النهائية بل الانطباعات التي ستتركها العملية ذاتها، فنادرًا ما قبلت المساعدة. ومن ثم فإن هذا العمل، الذي قام به رجل واحد على مدى ثلاثة أشهر، لا يكاد يمكن أن يُسمَّى تعدادًا؛ فالنتائج ليست دقيقة ولا شاملة، ولكن حتى مع ذلك، فنظرًا إلى ندرة البيانات الموضوعية في الأدبيات وفي سجلات مكاتب سخالين الإدارية، فقد ينتهي الأمر بالاستفادة من الأرقام التي حصلت عليها.

أطِّر الأسئلة

لا تطلب إجابات موجودة مسبقًا في مصادر مكتوبة، وصُغ أسئلة تنتج إجابات واضحة، وافصل الإجابات حسب الجنس.

بغاية التعداد السكاني، طلبت طباعة بطاقات فهرسة في محل الطباعة الخاص بقسم الشرطة. تبعت الأسئلة تسلسلًا محددًا. في السطر الأول من كل بطاقة، سجلت اسم المحطة أو المستوطنة. وفي السطر الثاني، رقم المنزل كما هو مسجل في لائحة السجن للبيوت. ثم، وعلى السطر الثالث، وضع المشارك في المقابلة: محكوم، مقيم، فلاح سبق نفيه، شخص حر. سجلت فقط الأشخاص الأحرار الذين كانوا ينتسبون إلى بيت المنفي إما، مثلًا، بالزواج القانوني أو العرفي، أو كانوا من أفراد عائلته، أو أولئك الذين كانوا يسكنون مع أهل البيت كالعمال مثلًا أو المستأجرين. السطر الرابع: الاسم الأول، واسم الأب، واسم العائلة[1].... وعلى السطر نفسه، كنت أدون صلة المشارك في المقابلة برب المنزل: زوجة، ابن، أنثى مساكنة، عامل، مستأجر، ابن مستأجر، إلخ.... السطر الخامس: العمر... والسطر

(1) تعكس الأسماء الشخصية في روسيا البنية الأبوية للمجتمع؛ فكل فرد يُعرَّف باسمه الممنوح (أي ما يماثل اسمنا الأول)، يتبعه الاسم المشتق من اسم الأب –الاسم الممنوح للأب مع إضافة اللاحقة «-وفيتش» للذكور أو «-أوفنا» للإناث– وأخيرًا، الكنية (اسم العائلة). الخطاب الشخصي بالغ التعقيد في روسيا؛ إذ يمكن التعبير عن فروق طفيفة في الحالة الاجتماعية، ودرجة الحميمية، والتقدير، حسب الجزء أو الأجزاء المستخدمة من الاسم الثلاثي. وأخيرًا، تُستخدَم صيغة تودُّد، ويمكن للمتكلم أن يختار بين عشرات أنواع صيغ التودد للمخاطبة. [ل. ل.]

السادس يسأل عن الدين. السابع: مكان الولادة... السطر الثامن: سنة الوصول إلى سخالين... وعلى السطر التاسع، دونت الوظيفة الرئيسية والمهنة. على العاشر: القدرة على القراءة. يُطرَح هذا السؤال عادة على شكل: «هل أنت متعلم؟» ولكن السؤال، الذي وضعته، كان: «أيمكنك القراءة؟» وهكذا أتفادى كثيرًا من الإجابات الخاطئة بما أن الفلاحين، الذين لا يمكنهم الكتابة ولكن يمكنهم قراءة الأحرف المطبوعة، يعدُّون أنفسهم عادة أميين... [السطر الحادي عشر يُعرِّف الوضع العائلي: متزوج، أرمل، أعزب]... وأخيرًا، السطر الثاني عشر: «هل تتلقى دعمًا عامًّا من الدولة؟»... واستخدمت قلمًا أحمر لرسم خط على بطاقات المشاركات من الإناث كطريقة بسيطة للإشارة إلى الجنس.

محادثة، لا تحقيق

أجرِ محادثات مع الناس الذين تلتقي بهم في الشارع، أو في العمل، أو في زيارة لشرب الشاي.

بينما كنت أتنزه يومًا على رصيف الميناء في ألكساندروفسك، خطوت إلى مرفأ وجدت فيه رجلًا عجوزًا عمره نحو ستين أو سبعين عامًا وامرأة عجوزًا. كانا مثقلين بحقائب وحزم، كما لو كانا يُعِدَّان للانطلاق في رحلة. فبدأنا محادثة. كان الرجل المسن قد تلقى مؤخرًا حقوقه كفلاح، وهو الآن يغادر نحو البر الرئيسي مع زوجته، أولًا إلى فلاديفوستوك، وثم من هناك «إلى أين؟ الله يعلم». مما

قالاه، استنتجت أنهما لم يمتلكا المال. كان مخططًا للباخرة أن تغادر خلال يوم أو يومين، وقد أتيا إلى الميناء للانتظار، مختبئين في المرفأ مع كل ممتلكاتهما، وكانا قلقين من أن يُؤمَرا بالرجوع. تحدثا عن البر الرئيسي بحب وتوقير، واثقين في أنهما سيجدان سعادتهما هناك.

بالإضافة إلى السكة الحديدية وسلوبودكا التي وصفتها للتو، فإن المنطقة بين شاطئ البحر والمحطة فيها شيء آخر مما يلفت النظر: العبارة التي تقطع نهر الدويكا. لم يكن الجسم العائم في الماء زورقًا ولا بارجة، بل صندوقًا كبيرًا ومربعًا تمامًا. وكان قبطان هذه السفينة الفريدة محكومًا اسمه كراسيفيج، أو «وسيم»، «منسي الكنية». كان جسده، وقد بلغ الحادية والسبعين، منحنيًا، ولوحا كتفه بارزين، وضلعه مكسورًا، وإبهامه مقطوعة، وكان جسده مشوهًا من سنوات الجلد والضرب، وثيابه رثة، ووقدماه عاريتين. بدا شعره باهتًا وليس رماديًا. وكانت عيناه الزرقاوان الصافيتان تشيان بشيء من الحبور اللطيف. كان رشيقًا، وثرثارًا، وضحوكًا. في عام 1855، وبعد أن فر من الجيش «بسبب الغباء»، أصبح شريدًا، وبدأ يطلق على نفسه «منسي الكنية». وقد قُبِض عليه ونُقِل إلى تران بايكال، أو، على حد تعبيره، «إلى بلد القوزاق».

أخبرني: «حينذاك، كنت أظن الناس في سيبيريا يعيشون تحت الأرض، ولذا نهضت وهربت مباشرة مرتحلًا عن تيومين. وقد وصلت حتى كاميشلوف، وهناك لحقوا بي وحكموا عليَّ، سيادتكم، بعشرين

سنة من الأشغال الشاقة وتسعين جلدة. ثم نقلوني إلى كارا، وجلدوني، ونقلوني من مكان إلى آخر، إلى سخالين، إلى كورساكوف. شرعت بالهروب من كورساكوف بصحبة صديق لي، ولكننا لم نصل إلا إلى «دويه». فمرضت واضطُررت إلى التوقف. بينما وصل صاحبي حتى بلاغوفيشتشينسك. الآن أنا أقضي حكمي الثاني، ولي 22 سنة هنا في سخالين. وجريمتي الوحيدة كانت الفرار من الجيش».

«إذن لم أخفيت اسمك الحقيقي؟ ما النكتة؟»

«في الصيف الماضي، أعطيت اسمي الحقيقي لأحد المسؤولين».

«إذن فما الذي حدث؟»

«لم يحدث شيء. قال لي المسؤول: «بينما نُصحِّح السجل، ستكون قد مت. فابقَ كما أنت. لم تحتاج إلى اسمك على أي حال؟» وهو محق، لا ريب في ذلك... فليس لديَّ كثير لأعيشه بأي حال. ومع ذلك، سيدي الكريم، فعلى الأقل كان أقربائي ليعرفوا مكاني».

«ما اسمك؟»

«هنا أُدعى إيغناتييف، فاسيلي، سماحتكم».

«واسمك الحقيقي؟»

توقف «وسيم» للتفكير لبرهة، قبل أن يقول: «نيكيتا تروفيموف. وأعود إلى منطقة شوبينسكي، من محافظة ريازان».

دخلت هذا الصندوق لأعبر النهر. انحنى «وسيم» إلى العمود الطويل ليدفعه على قاع النهر، مجهدًا جسده الهزيل البارز العظام. لقد كان عملًا شاقًا.

«الأمر يشق عليك، أليس كذلك؟»

«إنه لا شيء، سيادتكم. لا أحد يطبق على نفَسي، فأتمهل في شأني».

أخبرني أنه طيلة 22 عامًا على جزيرة سخالين لم يُضرَب مرة ولا سُجِن.

«هذا لأنهم إذا أرسلوني لنشر الخشب، ذهبت. وإن وضعوا في يدي هذا العمود، أخذته. وعندما يأمرونني أن أشعل المواقد في المكتب، أشعلها. عليك أن تخضع. الحياة -لا حاجة إلى إغضاب الرب- جيدة. حمدًا للرب».

لا يمكن للمسافرين المارين عبر نوفو-ميخائيلوفكا تفادي لقاء الفلاح الذي كان منفيًّا بوتيمكين... وهو يدير متجرًا هنا وآخر في «دويه» حيث يدير ابنه التجارة. الانطباع، الذي يتركه، هو أنه مجتهد، وذكي، ومن أتباع «المؤمنين القدامى»[1]. غرفه نظيفة، عليها ورق جدران ومكتوب عليها عبارة: «مارينباد. استحمام في البحر قرب ليبافا». هو وزوجته المسنة كلاهما حصيف، ومراعٍ

(1) المؤمنون القدامى، أو «راسكولنيكي - Raskol'niki» كانوا طائفة روسية أرثوذكسية محافظة تشكلت في منتصف القرن السابع عشر اعتراضًا على إصلاحات في طقوس الكنيسة وعلى كتب قدَّمها وفرضها البطريرك نيكون على النموذج الأرثوذكسي اليوناني المعاصر. تراجع المؤمنون القدامى الخاضعون للاضطهاد والعزل إلى مناطق الشرق الأقصى في الإمبراطورية الروسية، وبعد ثورة عام 1917، لجؤوا إلى الصين، والأرجنتين، وكندا، والولايات المتحدة، حيث بقوا حتى يومنا هذا. [ل. ل.]

ومسايس في إسداء ملاحظاته. وفي أثناء شرب الشاي، أخبراني أنه من الممكن جني سبل العيش في سخالين، وأن الأرض خصبة. ولكن -وهنا تكمن المشكلة- الناس أصبحوا كسالى، ومدللين، ومتلقين لا فاعلين. سألت إذا ما كانت الشائعة التي تقول إنه قد قدَّم مرة البطيخ والشمام من حدائقه الخاصة لأحد الشخصيات المهمة صحيحة. فأجاب دون أن يرمش له جفن: «هذا صحيح؛ فالبطيخ ينضج هنا من حين إلى آخر»[1].

أجرِ استقصاءات

سل عن المعلومات والتفسيرات.

ألعاب الورق بالغة الشعبية في آرمودان العليا، واللاعبون المحليون مشهورون في أرجاء سخالين. ونظرًا إلى قلة أموالهم، فإن مقامري آرمودان يلعبون على رهانات ضئيلة، ولكنهم يلعبون بضراوة، وباستمرار، كما في مسرحية «ثلاثون عامًا»، أو «حياة لاعب ورق»[2]. أجريت الحوار التالي مع مستوطن يُدعى سيزوف، وهو من أكثر اللاعبين شغفًا وموهبة في المنطقة.

---

(1) كان بوتيمكين رجلًا غنيًا منذ ما قبل وصوله إلى سخالين. وقد كتب د. أوغوستينوفيتش، الذي رآه بعد ثلاث سنوات من وصوله إلى سخالين: «بيت المنفي بوتيمكين هو الأفضل». إذا كان بوتيمكين، كمحكوم عليه، قادرًا على أن يبني لنفسه بيتًا جيدًا، ويربي الخيول، ويزوج ابنته بأحد مسؤولي سخالين، إذن، حسب ما أظن، فالزراعة لا شأن لها بنجاحه. [أ. ت.]

(2) كُتبت التمثيلية العاطفية المأساوية «الميلودراما» «ثلاثون عامًا، أو حياة اللاعب - *Trente ans, ou La vie d'un jouer*» (1827) من قبل الروائي الفرنسي وكاتب المسرحيات فيكتور هنري-جوزيف برابان دو كانج (أو دوكانج) (1783 - 1833). [ل. ل.]

سألني: «لماذا، سيادتك، لا يُسمَح لنا بالذهاب إلى البر الرئيسي؟»

فشاكسته بالإجابة: «وما الذي قد تفعلونه هناك؟ لا أحد هناك لتلعبوا معه الورق».

«على الإطلاق، بل هناك تُلعَب الألعاب الحقيقية».

فسألت بعد صمت هنيهة: «أتلعب لعبة شتوس؟»

«صحيح تمامًا، سيادتك، أنا ألعب الشتوس».

لاحقًا، كنت مغادرًا لآرمادون العليا، فسألت الحوذي الذي يقود مركبي، وهو من المحكومين:

«أيلعبون على رهن؟»

«بالطبع، على رهن».

«ما الذي لديهم ليخسروه؟»

«ما الذي تعنيه بذاك؟ حصص الحكومة، الخبز -مثلًا- أو السمك المدخن. قد يخسر أحدهم أكله وثيابه، ولكنه سيظل قاعدًا هناك، على جوعه وبرده».

«ولكن ماذا عساه يأكل؟»

«ماذا؟ حسنًا، إذا ربح يأكل، وإذا لم يربح يذهب إلى سريره بأي حال، على معدة خاوية».

تحدَّث إلى الأطفال وراقب ألعابهم لتفهم -إضافة إلى أشياء أخرى- عالم البالغين.

يشاهد الأطفال عصابة من المساجين في سلاسلهم بلا مبالاة تامة. عندما يرون محكومين مغلولين يدفعون عربة يد مليئة بالرمل، يقفزون إلى ظهر العربة ويزمجرون ضحكًا. يلعبون لعبة السجناء والجنود. يجري صبي صغير إلى الشارع ويصرخ لأصحابه: «انتبه!» «إلى الوراء!» أو يحزم ألعابه وكسرة خبز ويخبر أمه: «أنا مرتحل!»، فترد عليه مداعبة: «حذارِ؛ فقد يطلق عليك أحد الجنود النار». فينطلق إلى الشارع ويتجول جيئة وذهابًا بينما يطارده أصدقاؤه، الذين يمثلون دور الجنود. يتحدث أطفال سخالين عن المشردين، وعصي الجَلد المصنوعة من البتولا، والسياط، ويعلمون أشياء كالإعدام، والمساجين المغلولين، والمساكنة.

الشخص الوحيد الذي وجدته في منزله في أحد الأكواخ التي زرتها في آرمودان العليا كان صبيًّا ذا شعر مضفور في نحو العاشرة من العمر بكتفين محدودبتين وقدمين عاريتين. كان وجهه الشاحب مليئًا بالنمش الكبير، وبدا كما لو كان قد قُدَّ من رخام.

سألته: «ما اسم أبي أبيك؟»[1]

(1) في اللغة الروسية، يُكنَّى الشخص بكنية مشتقة من اسم أبيه. مثلًا: أنطون «بافلوفيتش» تشيخوف تعني أن أباه اسمه بافلوف. فالأصل أن السؤال هنا كان عن كنية الأب هذه (patronymic). (المترجم)

فأجاب: «لا أعلم».

«ماذا تعني؟ أنت تعيش مع أبيك ولا تعرف اسمه الكامل؟ عار عليك!»

«ليس أبي الحقيقي».

«ما الذي تعنيه بقولك «ليس الحقيقي»؟»

«إنه مُساكِن أمي».

«أأمك متزوجة أم أرملة؟»

«أرملة. أتت هنا على حساب زوجها».

«ماذا تعني «على حساب زوجها»؟»

«لقد قتلته».

«أتذكُر والدك؟»

«لا. أنا ابن غير شرعي. ولدتني أمي في كارا[1]».

أطفال سخالين شاحبون، ونحيلون، وبليدون، وهم يرتدون الثياب البالية وجائعون دومًا... ويموتون عادة من أمراض معوية.

(1) على بعد نحو 1800 ميل شرق تومسك، في ترانسبايكال سيبيريا، كانت مناجم كارا، حيث كان النظام القيصري ينفي أخطر المجرمين وأكثر مرتكبي الجرائم السياسية إثارة للبلبلة. [ل. ل.]

أحصِ، قِس، زِن.

مغاتشي. عدد السكان: 38، 20 ذكرًا و18 أنثى. المزارعون: 14. العائلات: 13، منها 2 فقط شرعيتان. الأرض الصالحة للزراعة: تقريبًا 32.4 فدان، لم تُبذَر فيها الحبوب منذ ثلاثة أعوام، ولكنها زُرِعت بطاطس. 11 مزارعًا هم من المستوطنين الأصليين، وخمسة منهم مُسجَّلون رسميًّا كفلاحين. الأرباح جيدة، وهو ما يفسر عدم استعجال الفلاحين للعودة إلى البر الرئيسي. سبعة منهم يحتفظون بفرق كلاب، يستخدمونها في الشتاء لنقل البريد والركاب. وأحدهم صياد محترف. أما صيد السمك المذكور في السجلات الرسمية لإدارة السجن المركزي لعام 1890 فلا يستحق الذكر.

تانغي. عدد السكان: 19، 11 ذكرًا و8 إناث. المزارعون: 6. الأرض الصالحة للزراعة: تقريبًا 8.1 فدان، تُزرَع فيها –كما في مغاتشي حيث تعوق كثرة ضباب البحر حصاد الحبوب– البطاطس. يملك مزارعان قاربين ويصيدان السمك.

خوي. تقع على الرأس الذي يحمل اسمها نفسه والذي يبرز بوضوح في البحر ويمكن رؤيته من ألكساندروفسك. عدد السكان: 34، 19 ذكرًا و15 أنثى. المزارعون: 13. لم تبدأ خيبة الأمل هنا بعد ولا يزال القمح والشعير يُزرَعان. ثلاثة منهم صيادون.

تراماوس. عدد السكان: 8، 3 ذكور، و5 إناث. وهي مستوطنة سعيدة فيها نساء أكثر من الرجال. المزارعون: 3.

فياختي على نهر الفياختي، الذي يصل بين البحيرة والبحر؛ ولذلك يُذكِر بنهر النيفا [في البر الرئيسي لروسيا]. يُقال إن البحيرة تحتوي على السمك الأبيض وسمك الحفش. عدد السكان: 17، 9 ذكور، و8 إناث. المزارعون: 7.

فانغي أقصى المستوطنات شمالًا. عدد السكان: 13، 9 ذكور، و4 إناث. المزارعون: 8.

وفي جناح آخر وجدت محكومًا وزوجته الحرة وابنه؛ وامرأة من التتر محكومة وابنتها؛ وتتريًا محكومًا وزوجته وابنيه الصغيرين مرتديي أغطية رأس؛ ومحكومًا مع زوجته الحرة وابنه؛ ومستوطنًا – من المخضرمين في الأشغال الشاقة له خمسة وثلاثون عامًا فيها، ما زال يبدو شابًا، بشاربين أسودين فاحمين، بلا حذاء ومن ثم عاري القدمين، وهو لاعب ورق مهووس[1]– وإلى جواره على منصة النوم عشيقته المحكومة، وهي مخلوق ضئيل، نؤوم، ومثير للشفقة، وإلى جوارهما، محكوم، وزوجته الحرة، وثلاثة أطفال؛ ومحكوم أعزب؛ ومحكوم، وزوجته الحرة، وطفلين؛ ومستوطن؛ ومحكوم حسن الهيئة، بحلاقة مرتبة. يدور صغير خنزير حول الجناح بصخب، ويعلو الطابق قذارة لزجة، والهواء عفن برائحة البق وشيء حامض، ويُقال إن العيشة لا تُطاق بسبب البق المنتشر.

---

(1) سبق أن ذكرت ملاحظة تشيخوف الهامشية الخاصة بفضيلة هذا المستوطن الكلامية في قسم دفتر الملاحظات. [ل. ل.]

إن مدى سهولة أن يخطئ الطباخون في حساب عدد الحصص واضح من كميات المكونات الملقاة في قدر الطهي. في 3 أيار من عام 1890، قُدِم الطعام لـ1279 شخصًا في سجن ألكساندروفسك من قدر واحد دخل فيه: 540 رطلًا من اللحم، و200 رطل من الرز، و50 رطلًا من الدقيق لتسميك المرقة، و40 رطلًا من الملح، و960 رطلًا من البطاطس، وثلث رطل من ورق الغار، وثلثا رطل من الفلفل. وفي السجن نفسه في 29 أيلول، أُطعِم 675 سجينًا 680 رطلًا من السمك، و120 رطلًا من الجريش، و40 رطل دقيق، و20 رطل ملح، و500 رطل بطاطس، وسدس رطل من ورق الغار، وثلث رطل من الفلفل.

في فترة عشرة أعوام، سُجِّلت 170 حادثة موت من مسببات غير طبيعية بين رعية الأرثوذكس. ومن بين هؤلاء، أُعدِم عشرون شنقًا، اثنان منهما شُنِقا من أشخاص مجهولي الهوية، و27 انتحروا؛ في شمال سخالين بإطلاق النار (أحدهم في أثناء قيامه بواجب الحراسة)، وفي جنوب سخالين باستخدام نبتة سم الذئب. مات كثيرون غرقًا، وتجمُّدًا، وسحقًا بالأشجار، وأحدهم صرعه دب. بالإضافة إلى أسباب وفاة كالجلطات، والنوبات القلبية، والسكتة الدماغية، والشلل العام، إلخ. تورد سجلات الكنيسة أيضًا 17 حالة موت «مفاجئ»، أكثر من نصفها كان لأشخاص بين سن 22 و44 عامًا، وواحدة فقط لشخص فوق الخمسين.

أخذت عدة أرغفة خبز -عشوائيًا- من الأرغفة الكثيرة المحضرة للتوزيع اليومي للسجناء، ووزنتها، ووجدت أن كلًا منها يزن فوق ثلاثة أرطال بقليل.

اجرِد الموجودات

دوِّن قوائم بالأشياء والأدوات.

من هذا التقرير نفسه، نسخت مقتطفات تتناول جرد المستشفى. كان لدى جميع العيادات الثلاث ما يلي: عدة أمراض النساء عدد 1، مجموعة مناظير الحنجرة عدد 1، ميزان الحرارة العظمى عدد 2، كلاهما مكسور، ميزان حرارة «درجة حرارة الجسم» عدد 9 منها 2 مكسوران، ميزان حرارة «حمى شديدة» عدد 1، مبزل عدد 1، محاقن برافاز عدد 3، إبرة إحداها مكسورة، محاقن بيوتر عدد 29، مقص عدد 9، 2 منها مكسوران، أنابيب حقنة شرجية عدد 34، أنبوب نزح عدد 1، هاون كبير ومدقة عدد 1، مصدع، مشحذة حلاقة عدد 1، كؤوس حجامة عدد 14.

الفصل الخامس

الكتابة الفعلية

التغلب على صعوبات البدايات

لا تؤجل الكتابة

اكتب وانطباعاتك لا تزال حديثة العهد.

رسالة إلى أليكسي سوفورين، 5 آذار 1891

عملي لا يزال بعيدا جدًّا عن نهايته. وإذا أجَّلته حتى أيار فلن أشرع في مشروع سخالين حتى تموز على أقرب تقدير، وهو ما سيكون ذا تداعيات خطيرة؛ لأن انطباعاتي عن سخالين بدأت تتبخر بالفعل، وبذلك أخاطر بنسيان الكثير.

افهم أسباب عدم كتابتك

لا تعظ ولا تُخفِ الحقيقة

رسالة إلى أليكسي سوفورين، 28 تموز 1893

أشك منذ وقت طويل أنني قد أضعت المسار، ولكنني أخيرًا أدركت الآن أين أخطأت. الزيف في رغبتي الظاهرة في أن أُعلِم القارئ شيئًا من خلال «سخالين» الخاصة بي، وفي الوقت نفسه، في إخفائي شيئًا وكبحي لنفسي عن قول ما أريد. ولكن ما إن سمحت لنفسي بوصف كم شعرت أنني غريب الأطوار في سخالين وكم هؤلاء الناس خنازير، حينذاك، في تلك المرحلة، شعرت بتحسن وانطلق عملي، مع أنه صار فيه قليل من روح الدعابة.

أعطِ الكتاب شكلًا

البداية

ابدأ لحظة وصولك إلى موقع المشروع وصِف انطباعاتك الأولى.

في 5 تموز 1890، وصلت على متن باخرة إلى مدينة نيكولايفسك، إحدى أقصى مرابط بلادنا شرقًا. وهنا، وعلى بعد نحو 18 ميلًا عن البحر، نهر الآمور عريض جدًّا. هي نقطة ساحرة وجميلة، ولكن قصص ماضيها، وحكايات المسافرين عن شتائها القاسي وتقاليدها المماثلة القسوة، وقرب مخيمات السجون، والبلدة القذرة الآيلة للموت ذاتها؛ كل ذلك يقتل فورًا أي ميل إلى الاستمتاع بالمشهد.

اسرد حكاية الرحلة

احكِ قصة الرحلة من بدايتها حتى نهايتها، واصفًا الأماكن والأحداث التي شهدتها –حتى لو لم تكن لها علاقة على الإطلاق بنكتتك الرئيسية– لأن ذلك سيساعد على وضع ما تدونه من ذكرياتك في سياقه المناسب.

كان على الشاطئ عدة بيوت صغيرة وكنيسة. كانت هذه المحطة مركز قيادة ألكساندروفسك. عاش كل من «الكومندان»، ومساعده

الإداري، وعمال البرق (التلغراف) في هذا المكان. تناول معنا العشاء أحد المسؤولين المحليين، وهو رجل ممل ومملول، على متن السفينة البخارية، ولم يتوقف عن الحديث طيلة وقت العشاء، وشرب بحرًا، وأمتعنا بتلك الحكاية المشهورة القديمة عن الإوزة التي التهمت الكرز المتخمر، فوقعت سكرانة، فظن أنها ماتت، ونزع ريشها، ورُمِيَت خارج المنزل، وبعد أن استيقظت في الصباح، عادت إلى المنزل عارية حتى منقارها. حلف المسؤول على أن قصة الإوز هذه حدثت في دي كاستريز، في منزله هو.

ما من قسيس مقيم في الكنيسة المحلية. عند الحاجة، يأتي القس من مارينسكي. والطقس الجيد نادر هنا كما هو في ميكولايفسك. قيل لي إن هذا الربيع، بينما كانت بعثة استقصائية تعمل في المنطقة، لم يرَ هذا المكان شمسًا إلا في ثلاثة أيام فقط طيلة شهر أيار. حاول فقط أن تعمل بلا ضوء الشمس!

كانت سفينتان بحريتان؛ «البوبر» و«ألتونغوس»، بالإضافة إلى قاربي طوربيد راسيات. أذكر تفصيلًا آخر: كنا بالكاد قد أرسينا السفينة، عندما غشي السواد السماء، واجتمعت غيوم العواصف، وتلون البحر بلون أخضر فاتح غريب.

كانت الأيام جميلة، بسماء صافية وصفاء يُذكِّر المرء بطقس الخريف في روسيا. وكانت المساءات رائعة: أذكر الأفق الغربي وهو يشتغل، والبحر الكحلي، وبدرًا أبيض يصعد من وراء الجبال. في مساءات كهذا المساء، كنت أحب السير عبر الوادي بين المحطة

وقرية نوفو ميخائيلوفسك؛ فقد كان الطريق سلسًا وسويًّا على مسار عربات سكك حديدية صغير وخطوط البرق. وراء ألكساندروفسك، كان الوادي يضيق، والظلال أسمك، وبدت نباتات الأرقطيون العملاقة كنباتات استوائية غريبة. أحاطت الجبال المظلمة بالمكان من كل جانب، وتصاعدت ألسنة اللهب من حرق الفحم إلى السماء، ووراءها، أمكن للمرء أن يرى وهج حرائق غابات بعيدة. كان القمر يشرق. وفجأة، لفت انتباهي مظهر رائع: على طول قضبان السكة، كانت منصة صغيرة تتدحرج نحوي، وعلى ظهرها، متكئًا على عمود، ظهر شخص محكوم عليه يرتدي البياض، فتملكني القلق.

هيكِل الفصول

بعد أن تروي قصة الرحلة نفسها، عامل كل موضوع معاملة منفصلة، مُنزِلًا كل موضوع في فصله الخاص.

أصف في الفصول التالية المحطات والمستوطنات وأنواعًا مختلفة من المحكومين والمساجين بأفضل ما أُوتِيت، ضمن حدود ما تتيحه لي زيارتي القصيرة. يتخذ عمل المدانين في سخالين أكثر الأشكال تنوعًا؛ فهو لا يختص بنطاق واحد كاستخراج الذهب أو الفحم، بل يحيط بجميع عناصر الحياة، ويغطي جميع الأماكن المستوطنة على الجزيرة. قطع الغابات، والبناء، وتجفيف المستنقعات، وصيد الأسماك، والجز، وتحميل البضائع وتفريغها؛ اندمجت كل هذه الأنواع من عمل المدانين مع حياة المستعمرة

بدرجة من السلاسة لا يمكن معها أن تُعامَل كشيء مستقل عن الجزيرة إلا فقط ضمن نظرة شديدة الصرامة، كما هو الحال في التنقيب في المناجم وعمليات المصانع ضمن الأعمال الشاقة.

سأبدأ بوادي ألكساندروفسك، بالمستوطنات المتموضعة حول نهر الدويكا. اختير هذا الوادي لأول مستوطنة في شمال سخالين؛ لا لأنه أكثر ما استُكشِف بدقة واسعة، ولا لظنهم أنه يحقق أهداف الاستيطان، بل بعشوائية لأنه صادف أنه الأقرب إلى «دويه»، حيث المستعمرة الجزائية الأولى.

بعد أن أتممت مسحي السكاني للمناطق المستوطنة من سخالين، سألتفت الآن إلى تفاصيل الحياة -بعضها مهم وبعضها أقل أهمية- التي تميز المستعمرة.

أن تكون موضوعيًّا

عرِّف مصادرك

أشر إلى المعلومات التي تأتي من مصادر ثانوية أو من معاينة مباشرة. ضع ملاحظات في الهوامش تذكر المصادر، قدِّم مراجع للاستزادة من القراءة في المساحات التخصصية، ووفِّر بيانات بيوغرافية للأفراد المذكورين في النص، واجمع روايات أو تفاصيل تزيد من مصداقيتك، وقدِّم تقييمك النقدي للمصادر الثانوية.

على الشاطئ الغربي ست مستعمرات صغيرة، تمامًا فوق مصب نهر آركاي. لم أزر أيًّا منها، لذا تأتي معلوماتي من جرد بيوت المزارع وسجل المعمودية.

حتى عام 1875، احتل حراس محطة كورساكوف والحراسة العسكرية مجمع السجن الذي كان قائمًا في كوخ مظلم. وقد كتب د. سينتسوفسكي في ذلك: «ربما كان هذا النوع من الازدحام مسموحًا به كإجراء جزائي للمحكومين، ولكن حرس الجيش مسألة أخرى بالكامل، ولا يُعرَف سبب لإلزامهم بالخضوع للعقاب نفسه»[1].

(1) Sintsovsky, "Hygienic Conditions of Convicts, Correspondence (from Western Siberia) from the Island of Sakhalin," Zdorov'e, no. 16 (1875). [أ. ت.]

من وجهة نظر صيدية بحتة، توجد الفقاريات بوفرة في سخالين. أما من وجهة نظر تجارية فإن السمُّور والثعلب والدب أكثر الكائنات ذات الفراء قيمة وتوجد هنا بأكبر عدد[1].

(1) لمزيد من التفاصيل، انظر A. M. Nikol'sky, *Sakhalin Island and Its Vertebrate Fauna* (*Ostrov Sakhalin I ego fauna pozvonochnykh zhivotnykh*), supp. to vol. 9, *Zapiski im. Akademii Nauk* (St. Petersburg, 1889). [أ. ت.]

القرية الثانية هي ميتسولكا، والتي سُمِّيَت تخليدًا لذكرى م. س. ميتسول[1].

بالإضافة إلى ذلك، تعرفت هنا إلى الرائد ش.، آمر سجن كورساكوف، الذي سبق أن خدم في سلك شرطة سان بطرسبرغ

---

(1) شارك المهندس الزراعي ميخائيل سيميونوفيتش ميتسول -وهو رجل ذو التزام أخلاقي نادر، وعامل لا يعرف الكلل، ومتفائل ومثالي، وقد أُنعِم عليه بالحماس والقدرة على تحميس الآخرين- هو الآخر في الحملة الاستكشافية تحت قيادة فلاسوف التي أُرسِلت من سان بطرسبرغ عام 1870. وحينذاك كان ميتسول في منتصف الثلاثينيات من عمره، وكان ذا ضمير استثنائي يظهر في التزامه بأداء الواجبات الموكلة إليه. وعند دراسة التربة والنباتات والحيوانات في سخالين، غطى سيرًا على الأقدام كامل المنطقة التي تشمل منطقتي ألكساندروفسك وتيموفسك حاليًا، والساحل الغربي والجزء الجنوبي بأكمله من الجزيرة، وحينذاك لم تكن في الجزيرة طرق مُعبَّدة، والممرات البائسة التي كانت موجودة بالفعل هنا وهناك كانت في التايغا وفي المستنقعات، وكان أي شكل من أشكال النقل، سواء بالخيول أو سيرًا على الأقدام، دعوة حقيقية إلى الموت. كانت فكرة مستعمرة زراعية للمدانين تدهش ميتسول وتعجبه في آن معًا، وقد اعتنقها بكامل جوارحه وصار يحب سخالين. وكالأم التي لا يمكن أن يؤذيها طفلها، لم يُرعِ ميتسول انتباهًا إلى الأرض المتجمدة ونوبات الضباب التي تجتاح الجزيرة التي صارت وطنه الأم الثاني. وعوضًا عن ذلك، كان يرى جنة مزدهرة، ولم يمكن تحييده عن هذا الرأي لا بسجل الأحوال الجوية، الذي -ولأجل الإنصاف- بالكاد كان موجودًا آنذاك، ولا بالتجارب المريرة للزوار السابقين، والذي كان متشككًا بصدق شهاداتهم. فهنا، في النهاية، يمكن للمرء أن يجد العنب البري، والخيزران، والأعشاب الطويلة العملاقة... ويذكر له تاريخ الجزيرة أنه لعب دور مستشار الدولة الفعلي، باعتباره متحمسًا ولا يعرف الكلل كما كان دائمًا يتصف. وتُوفِّي في سخالين جرَّاء مرض عصبي حاد عن عمر ناهز 41 عامًا. وقد رأيت قبره. وقد أورث كتابًا «دراسة زراعية لسخالين» (1873)، وهو أنشودة مطولة في مدح خصوبة سخالين. [أ. ت.]

بإمرة الجنرال غريسر. كان ش. رجلًا طويل القامة ممتلئًا بالمشية الراسخة المهيمنة التي لاحظت أنها تميز ضباط الشرطة المحليين في المنطقة. عندما كان يخبرني عن كل الكتَّاب المشهورين في سان بطرسبرغ الذين كانت لديه علاقة طيبة بهم، كان يشير إليهم ببساطة بأسماء التحبب مثل ميشا وفانيا، إلخ. وعندما دعاني إلى تناول الغداء والعشاء، خاطبني في المرتين -بلا استئذان على الإطلاق- بصيغة المخاطبة بضمير «أنت» للشخص المألوف[1].

تحقَّق من الموثوقية

افهم حيثيات مواد المصدر أو مقدماته وتحيُّزاته.

يجمع الإحصاءات المتعلقة بالسكان الأصليين غير الروسيين موظفون بيروقراطيون لا يفتقرون فحسب إلى المؤهلات التعليمية أو المهنية اللازمة، بل إنهم أيضًا لا يتلقون أي تعليمات ولا مبادئ توجيهية حول كيفية أداء عملهم؛ فعندما شرعوا في جمع البيانات محليًّا -في مستوطنات الغيلياك مثلًا- كانوا ثقيلين وفظين ونافدي الصبر في تعاملهم مع الغيلياك الودودين، الذين لا يتسع مفهومهم للياقة لمثل الغطرسة والقوة، والذين يتطلب نفورهم من الاستطلاعات

(1) لأجل الإنصاف، يجب أن أذكر أن العمدة ش. أظهر احترامًا مثاليًّا لمهنتي الأدبية. وأنه طيلة فترة إقامتي في كورساكوف لم يألُ جهدًا لإنقاذي من الضجر. وقبل بضعة أسابيع من وصولي إلى الجنوب، بذل الجهد نفسه تجاه الإنجليزي هوارد، وهو مغامر ورجل أدب كان قد نجا من حطام سفينة يابانية [كذا] على نهر أنيفا وكتب بعض الترهات عن شعوب الآينو في كتابه «الحياة مع الهمج عبر سيبيريا». [أ. ت.]

وعمليات التسجيل بكل أنواعها مهارة ولباقة استثنائية من جانب الشخص المسؤول عن مقابلتهم.

قبل توظيفهم، لم تكن الغالبية العظمى من البيروقراطيين المكلفين بالمسؤولية عن المستعمرة الزراعية من ملاك الأراضي ولا الفلاحين، وكانوا جاهلين تمامًا بالأمور المتعلقة بالزراعة. وعند جمع التقارير، دائمًا ما كانوا يرجعون جميعًا إلى البيانات التي كان قد جمعها مفتشوهم. ومن جانبهم، كان المهندسون الزراعيون المحليون إما مفتقرين إلى التدريب ولم يفعلوا شيئًا، أو ينتجون تقارير فاضحة التحيز، أو حصروا بحثهم -مباشرة من صفوفهم الدراسية- في الجوانب النظرية والشكلية الصرفة للمسألة، أو، أخيرًا، استخدموا البيانات التي سبق أن جمعها موظفون صغار لصالح مكاتب أخرى. قد يعتقد المرء أنه من الممكن الحصول على معلومات موثوقة من الأشخاص الذين تولوا الحرث والبذار، ولكن حتى هذا المصدر اتضح عدم موثوقيته. فخوفًا من فقدان الدعم أو تهديد قدرتهم على شراء بذور الحبوب بالائتمان أو الحكم عليهم بقضاء بقية حيواتهم في سخالين، كان المنفيون عادة يقلّلون من تسجيل محاصيلهم ومساحات الأراضي المزروعة.

أجرِ المقارنات

ضع كثيرًا من مواد المصادر المتنوعة جنبًا إلى جنب للمقارنة، بما فيها تجاربك الخاصة.

يتضمن تقرير المفتش الزراعي جدولًا عن محاصيل الحصاد للسنوات الخمس الماضية مبنيًا على بيانات يعدُّها «كومندان» جزيرته «تزييفًا بحتًا». تشير الأرقام أن وسيط محصول الحبوب هو ثلاثة إلى واحد لكل وحدة من الأرض المحروثة. ويمكن دعم هذا برقم آخر: في عام 1889، بلغ متوسط محصول الحبوب نحو 440 رطلًا لكل شخص بالغ، وهو ثلاثة أضعاف عدد الحبوب المزروعة.

عندما لامس حوارنا هذه المسألة، أكَّد السيد كامورسكي، مفتش السجن في منطقة آمور، أن ليس للإدارة الحق في الاحتفاظ بالمنفيين تحت مسمى مستوطنين لأكثر من عشر سنوات، أو أن يجعلوا منح لقب فلاح مشروطًا بأي شروط كانت. ومع ذلك، أُتيحت لي الفرصة في سخالين لمقابلة رجال كبار في السن قضوا أكثر من عشر سنوات من حياتهم في المستوطنات ولما يحصلوا بعد على مكانة فلاح. ولكنني لم أستطع التحقق من ادعاءاتهم بمقارنتها بالسجلات الرسمية، ولذلك لا أستطيع أن أشهد لدقة تلك الادعاءات.

في عام 1872، حظر سينلنيكوف المحافظ العام لسيبيريا الشرقية استعمال المجرمين خدمًا. ومع ذلك، ومع أن هذا الحظر لا يزال ساريًا قانونيًا، فقد التُفَّ على هذا الحظر بأكثر الطرق صفاقة؛ فأمين السجل الجماعي يعين تحت إمرته نصف دزينة من المحكومين للعمل خدمًا شخصيًا له، وعندما ينظم نزهة، يرسل قبلها عشرة من المحكومين لإعداد جميع اللوازم. كافح كل من الجنرال

جينتسه والجنرال كونونوفيتش، كومندانا الجزيرة، هذه الانتهاكات، ولكن ليس بالقوة الكافية. لم أجد سوى ثلاثة أوامر -كأقصى حد- تثير مسألة الخدم، وحتى هذه الأوامر كانت مكتوبة بطريقة يمكن لأي شخص إذا عمد إليها خصوصًا أن يفسرها حسب مصلحته بسهولة... على أي حال، عندما كنت في سخالين عام 1890، استغل جميع المسؤولين -حتى من ليس لهم صلة بإدارة السجن (كمدير مكتب البريد والبرق مثلًا)- بفجاجة عمل المحكومين لفائدتهم الخاصة. وعلاوة على ذلك، فإن رواتب هؤلاء الخدم من المحكومين وإطعامهم كان على حساب خزينة الدولة.

إذا أردنا اعتماد أرقام مشرف الاستيطان في ما يخص لائحة المزارع، فقد نميل إلى استنتاج أن كل [مستوطنات] آركوفو الثلاث قد خطت خطوات هائلة في الزراعة في فترة وجيزة من إقامتها... ولكن -للحقيقة- الحال مغاير لذلك؛ فكل من [مستوطنات] أركوفو الثلاث من بين أفقر المستوطنات في شمال سخالين. ربما كانت تمتلك أرضًا صالحة للزراعة، وربما امتلكت الماشية أيضًا، ولكنها ما زالت لم تحصد ثمارها.

اشرح الفجوات بين الأسئلة وإجاباتها

أحيانًا، قد تكون أكثر الإجابات إثارة للاهتمام هي تلك الإجابات الخاطئة أو التقريبية، أو حتى اللاإجابات أصلًا.

عادة ما يجيب المستوطن على سؤال «ما أنت؟» بأنه «رجل حر». بعد عقد أو -عند توافر الظروف الموائمة؛ حسب تعريف التشريع الخاص بالنفي- بعد ست سنوات، يتغير وضع المستوطن إلى «فلاح، منفي مسبقًا». وعلى السؤال نفسه، يجيب الفلاح بكرامة، كأنه يجب ألا يُجمَع مع أي من الآخرين وكما لو كان مميزًا بطريقة ما: «أنا فلاح». ولكنه لا يضيف المؤهل «منفي مسبقًا».... وباستثناء الجنود، لا أحد [من المنفيين مسبقًا] -سواء كانوا برجوازيين صغار، أو أصحاب دكاكين أو رجال دين- يُعرِّف عن وضعه الأخير طوعًا، كما لو كان منسيًّا أصلًا، وعوضًا عن ذلك، يُعرِّفون عن وضعهم السابق بكلمة واحدة: «حر». وإذا سُئِلوا عن ماضيهم فإنهم عادة ما يستهلون إجابتهم بعبارة: «عندما كنت حرًّا»... أحيانًا، عندما يُسأل فلاح روسي أرثوذكسي 100% عن اسمه فإنه يجيب، وبكل جدية: «كارل». قد يتضح أنه مشرد استعار اسمه من ألماني ربما كان قد التقاه على الطريق. وقد دونت حالتين من هذا القبيل: كارل لانغر وكارل كارلوف... تواجه النساء بعد سن الأربعين صعوبة في التصريح بأعمارهن، ويفكرن كثيرًا قبل أن يجبن. والأرمنيات من مقاطعة بيريفان لا يعرفن أعمارهن مطلقًا. قالت لي إحداهن: «ثلاثون، أو ربما حتى خمسون الآن». في حالات كهذه، كان عليَّ تقدير العمر حسب المظهر، ثم التحقق منه بالمقارنة مع السجل. عادة ما تقول اليافعات في عمر 15 عامًا أو أكبر إنهن أصغر. المخطوبات الشابات أو اللواتي مضى على عملهن

في البغاء وقت لا بأس به يقلن مع ذلك إن أعمارهن لا تزال 13 أو 14 عامًا فقط. وسبب ذلك أن العوائل الفقيرة تتلقى حصصًا من الحكومة للأطفال والمراهقين دون سن الخامسة عشرة؛ لذا تدفعهم المصلحة الشخصية إلى الكذب... السطر الثامن: «في أي سنة وصلت إلى سخالين؟» نادرًا ما كانت تُعطى هذه الإجابة دون تفكير مستفيض. لطالما كانت سنة قدوم الناس إلى سخالين سنة محنة فظيعة؛ فدائمًا ما كان ثمة احتمال عدم معرفتهم السنة أو ربما نسيانها. إن سألت عجوزًا من المحكومات عن تاريخ قدومها إلى سخالين فستجيب بعدم اكتراث، دون أن تلقي للأمر بالًا حتى: «من يعلم؟ لا بد أنني أتيت في سنة 83». فيقاطع زوجها أو عشيقها: «بِمَ تهذرين؟ لقد أتيتِ في سنة 85»، فتتنهد: «حسنًا إذن، ربما كانت سنة 85». نبدأ بإجراء الحسابات، فيتضح أن الرجل كان على حق. ليس الرجال بلا مبالاة النساء، ولكنهم يحتاجون إلى وقت طويل في استحضار إجابة؛ فهم يتفكرون ويشاور بعضهم بعضًا.

أسأل أحد المستوطنين: «في أي سنة أحضروك إلى سخالين؟»

فيجيب، غير واثق من نفسه، وباحثًا في وجوه أصحابه عن الإجابة: «كنت في قافلة غلادكي نفسها».

أتى غلادكي مع القافلة الأولى، وقد أتت القافلة الأولى، أي أول (*دوبروفوليت*– [1])(*Dobrovolets*) إلى سخالين في 1879. دوَّنت

(1) متطوع. [ل. ل.]

ذلك التاريخ. أو تكون الإجابة كما يلي: «أمضيت ست سنين في الأعمال الشاقة الإجبارية، وأنا الآن في عامي الثالث كمستوطن... إذن، احسبها أنت».

«بمعنى آخر: أمضيت في سخالين تسعة أعوام؟»

«مستحيل. لقد أمضيت سنتين في السجن المركزي قبل أن آتي إلى سخالين».

وهكذا. أو إليكم إجابة أخرى: «أتيت في العام الذي قُتِل فيه ديربين». أو: «أتيت عندما مات ميتسو»... «أنى لنا أن نعرف؟ ماذا تظننا؟ باحثين؟!» ولا يعترفون إلا بعد مكابدة طويلة معهم: «حسنًا، كنت أستطيع أن أقرأ المكتوب، ولكن الآن، كما تعرف، نسيت كيف أفعلها. نحن ثلة من الجهلة، فلاحون». فالعميان أو أشباه العميان يدعون أنفسهم أيضًا أميين.

استشهد بالوثائق

على سبيل المثال، انسخ الوثائق المكتوبة أو أعد إنتاجها.

يُكلَّف حارس، وعادة ما يكون عضوًا أمِّيًا، ذا مرتبة دنيا من القيادة المحلية، في كل مستوطنة. وهو يُبلِّغ المسؤولين الزائرين باستتباب الأمن، ويراقب المستوطنين، ويتأكد من عدم مغادرتهم دون إذن أو تخلُّفهم عن عملهم الزراعي. وهو أقرب ما يكون إلى المسؤول في المستوطنة، وغالبًا ما يكون القاضي الوحيد، وتوفر

تقاريره للإدارة وثائق حاسمة تُستخدَم في تقييم سلوك المستوطن بصفته مزارعًا ومستوطنًا. إليكم أدناه مثالًا عن تقرير حارس:

لائحة سكان قرية آرمودان العلوية المتهمين بارتكاب إساءات:

ملاحظة عن السبب المحدد	*الكنى والأسماء الأولى*
لص	*إيزدوغين، أناني*
مثله	*كيسيليف، بيوتر فاسيليف*
مثله	*غليبين، إيفان*
مهمل للمنزل ومتعنت	*غالينسكي، سيمون*
مثله	*كازانكين، إيفان*

لا تُلقِ المواعظ

قل الأشياء كما هي، دوّن الحقائق لكي يستطيع القراء تشكيل آرائهم الخاصة ويصلوا إلى استنتاجاتهم الخاصة.

وفقًا لكومندان الجزيرة: «... أُجرِيَت التحقيقات على أسس غير كافية، وأُجرِيَت بطريقة غير أخلاقية وغير كفؤة، والمشتبه بهم يُحتجَزون بلا مبرر». يُوضَع المشتبه بهم أو المتهمون تحت الحراسة ويُسجَنون. وعندما قُتِل مستوطن في غولي ميس، اعتُقِل أربعة رجال واحتُجِزوا في زنازين مظلمة وباردة[1]. وبعد عدة أيام،

(1) وفقًا «للتعليمات عن المنفيين»، فإن السلطات ليست مقيدة باتباع المراسيم التنفيذية المنصوص عليها في «قوانين الإجراءات القانونية» عند اعتقال مدان منفي؛ إذ يمكن للأخير أن يُعتقَل في أي وقت بمجرد الاشتباه في كونه قد ارتكب جرمًا. [أ. ت.]

أُطلِق سراح ثلاثة منهم، واحتُجز واحد. وُضِع في الأغلال، وكانت تُقدَّم له وجبة ساخنة واحدة كل ثلاثة أيام. ثم، وردًّا على شكوى أحد الحراس، جُلِد مئة جلدة بالسوط، وأُبقِيَ في الظلام، مرهبًا، ومحرومًا من الطعام حتى اعترف. وخلال هذا الوقت، كانت امرأة حرة، واسمها غارانينا، أيضًا في السجن للاشتباه بقتلها زوجها. وقد حُبِست هي الأخرى في زنزانة مظلمة وأُعطِيَت وجبة ساخنة كل ثلاثة أيام. وعندما كان أحد المسؤولين يستجوبها بحضوري، اشتكت أنها مريضة منذ زمن طويل ولكن لسبب ما لم يُسمَح لها بزيارة طبيب. وعندما سأل المسؤول الحارس الموكل بالزنازين لماذا لم يكلف نفسه عناء استدعاء طبيب، كان هذا رده حرفيًّا: «لقد أبلغت هذا لسيادة آمر السجن، ولكنه قال: «لتنعق كما تشاء»».

إن عدم القدرة هذا على التمييز بين الاحتجاز الأولي (في نظارة السجن الجنائي، لا أقل) والحبس، أو على التمييز بين المواطنين الأحرار والمحكومين أذهلني أكثر بكثير؛ لأن قائد المنطقة المحلي كان خريج كلية الحقوق، بينما كان مأمور السجن عضوًا سابقًا في قسم شرطة سان بطرسبرغ.

وفي مرة أخرى، في الصباح الباكر، كنت أنا وقائد المنطقة نزور زنازين السجن عندما أُطلِق سراح المنفيين الأربعة المشتبه في ارتكابهم جرائم قتل من زنزاناتهم. وقد كانوا يرتجفون من البرد. كانت قدما غارانينا مغطاتين بجوارب، بلا حذاء، وكانت فرائصها ترتعد وعيناها مبهورتين لرؤية الضوء. أمر قائد المنطقة أن تُنقَل إلى

زنزانة مضيئة. وبالمصادفة البحتة، لاحظت رجلًا، جورجيًّا، يحوم خارج أبواب الزنزانة كالظل. كان ماكثًا هناك، في ممر مظلم، منذ خمسة أشهر، وقد اعتُقِل باشتباه تسميمه شخصًا، وكان ينتظر إتمام تحقيق لم يبدأ بعد حتى.

وللإيفاء بالتزاماتها وحماية مصالح الشركة، فإن الخزينة تحتفظ بسجنين غير بعيدين عن مناجمها، واحد في «دويه» والآخر في فويفودسك، وتُموِّل الوجود العسكري لـ340 رجلًا، بكلفة سنوية تُقدَّر بنحو 150 ألف روبل... من جهتها، على الشركة أن تفي بثلاثة التزامات جادة: عليها أن تطور مناجم «دويه» وتوفر الدعم لمهندس مناجم ليشرف على استغلال المناجم استغلالًا صحيحًا، وعليها أن تقدم دفعات نصف سنوية للفحم ولاستئجار العمالة من المحكومين، وعليها أن تستفيد حصريًّا من العمال المحكومين في كل جوانب عملياتها التنقيبية. وهذه الالتزامات الثلاثة لا توجد إلا على الورق، ويبدو أنها نُسِيَت مذ ذاك منذ أمد بعيد.

اصدع بآرائك

إذا كان شيء ما لا يعجبك فقل ذلك.

يكاد يكون من المستحيل إيراد أي شيء إيجابي في حق زنزانات السجن المحلية الجماعية. لا يشكل نزلاء زنزانة السجن الجماعي «كوميونة» أو تعاونية من الأعضاء ذوي الالتزامات الفردية، بل هم عصبة غوغاء لا يتحمل فيها أي فرد مسؤولية عن المساحة،

ولا نزلائها ولا ممتلكاتهم. من المستحيل تمامًا منع النزلاء من جر الطين والقذارة بأحذيتهم، أو البصق على الأرضية، أو نشر القمل. إذا ظهرت في الزنزانة رائحة نتنة، أو تفشَّت السرقة أو الغناء البذيء، فالجميع يتحملون الإثم، وهذا مكافئ لقول: لا يقع اللوم على أحد. سألت أحد المحكومين ممن كانوا مواطنين صالحين في ما سبق: «لِمَ تبدو هيأتك رثة هكذا؟» فأجاب: «لأن لا فائدة من أن أبدو أنيقًا هنا». وبالفعل، لِمَ يكون نظيفًا إن أحضروا في الغداة مجموعة جديدة من المحكومين إلى الزنزانة وكان رفيقه الجديد تغزوه الحشرات وتفوح رائحته النتنة حتى سماء الله؟

تحرم الزنزانة الجماعية النزلاء من خصوصية الصلاة أو التفكير أو التأمل التي تُعَدُّ -وفقًا لمناصري نظام العقوبات- جوهرية لتحقيق أهداف إصلاح المجرمين. ولكن بدل ذلك، يظل العامل المنهك مستيقظًا طوال الليل بسبب ألعاب الورق العنيفة التي يتغاضى عنها الحراس الفاسدون، فتفور أعصابه من كثرة اللعان، والقهقهة، والنميمة، وصفق الأبواب، وقعقعة الأغلال، وهي أصوات تستمر طيلة الليل فلا يملك جهازاه الهضمي والعصبي إلا أن يعانيا. إنها لحقيقة مؤكدة أن أثر هذا الوجود الوحشي على طريقة البهائم -بانحرافاته الفجة ومع التأثير الضار الحتمي للفاسد على الصالح- يُضعِف حتى أعلى معنويات النزلاء. وشيئًا فشيئًا، يؤدي إلى تآكل قدرة النزيل على الحياة المنزلية، تلك السمة الأعز التي على السجين أن يحافظ عليها في حال أُريد له أن يغدو، بعد إطلاق سراحه، عضوًا

قائمًا ومكتفيًا بذاته في المستعمرة الذي فرض عليه القانون وتحت طائلة العقوبة أن يحل فيها ربَّ منزل صالحًا ورجل عائلة طيبًا من أول أيام إقامته.

فمن هذه المباني الهمجية وترتيبات السكن العملية، تُجبَر فتيات في عمر 15 و16 عامًا على النوم بجانب المدانين. يمكن للقارئ أن يستخلص استنتاجاته الخاصة تجاه الازدراء وعدم الاحترام اللذين يخضع لهما النساء والأطفال الذين يتبعون طوعًا أزواجهن وآباءهم إلى خدمة الأعمال الشاقة، وتجاه النظرة الدونية إليهن وإلى أطفالهن، وشبه انعدام التفكير برفاه المستعمرة الزراعية!

أن تكون صادقًا

بورتريهات

صِف أشكال الناس.

من بين النساء المُحتفَظ بهن في الحبس الانفرادي، تجذب واحدة الانتباه خصوصًا نحوها. صوفيا بلوفشتاين، وهي امرأة سيئة السمعة، المعروفة بلقب «اليد الذهبية الصغيرة»، وقد حُكِم عليها بثلاث سنوات من الأشغال الشاقة لأنها حاولت الهرب من سيبيريا. هي ضئيلة الحجم، ونحيفة، وشائبة، وفي وجهها من التجاعيد ما لدى العجائز. يداها مقيدتان إحداهما إلى الأخرى. وعلى سريرها الخشبي، يؤدي جلد شاة رمادي هزيل دور معطفها وفراشها معًا. تقيس زنزانتها بخطواتها جيئة وذهابًا، وتبدو كأنها تستنشق الهواء باستمرار، كالفأر في الفخ. حتى تعبيرات وجهها فيها شيء من الفئران. يصعب على الناظِر إليها أن يصدق أنها كانت حتى وقت قريب من الجمال ما يُمكِنها من سحر سجانيها، كما حدث في سمولينسك، مثلًا، حيث لم يكتفِ الحارس أن ساعدها على الهروب، بل هرب معها.

في ميتسولكا، تعيش تانيا ابنة الأعوام الستة عشر، وهي «غريتشن»[1] الخاصة بسخالين، وابنة المستوطن نيكولاييف من محافظة بسكوف. شقراء ورشيقة، بملامح رقيقة، وناعمة، وراقية. وقد خطبها أحد الحراس لتتزوجه. متى صادف أن مررت عبر ميتسولكا دائمًا ما أراها جالسة على شبَّاكها، تفكر. ما عسى هذه الفتاة الشابة، اللطيفة، والتي ألقى بها الدهر في سخالين أن تفكر به؟ بماذا عساها تحلم؟ الله وحده يعلم.

حُكِم على نجل القُمُّص ك. بتهمة القتل، فهرب إلى روسيا، وارتكب هناك جريمة قتل أخرى، وأُعيد إلى سخالين. وقد ألقيت نظرة عليه ذات صباح وسط حشد من المدانين، وكان يتجول حول مدخل المنجم. كان هزيلًا هزالًا مرعبًا، أحدب، وعيناه سارحتان، مرتديًا سترة صيفية قديمة وسراويل ممزقة ارتداها مقلوبة، بطانتها في الخارج، وكان يرتعد بردًا في صقيع الصباح، وقد مشى نحو الحارس الذي كان يقف إلى جانبي، ورفع قبعته عن رأسه الذي بدأ الصلع يغزوه، وبدأ يسأل عن شيء ما.

---

(1) يشير تشيخوف إلى شخصية مارغريت/غريتشن، البريئة المحبوبة التي أُغرِيَت وهُجِرت في عمل يوهان فولفغانغ فون غوته «فاوست» (1806 - 1832). [ل. ل.]

المكان

أعد استحضار الموقف كاملًا، مع الشخصيات، والأجواء، والخلفية.

عندما كنت في دبرينسكويه، كان المحكومون في الخارج يصيدون السمك للسجن. فأمر الجنرال كونوفيتش، كومندان الجزيرة، المستوطنين بالاجتماع ووبَّخهم على بيع السجن أسماكًا غير صالحة للأكل. قال لهم: «المحكوم أخوك وابني. عندما تغش الخزينة فإنك تغش أخاك وابني». أومأ المستوطنون كأنهم موافقون، ولكن وجوههم أنبأت بأن الأخ والابن سيعودان العام المقبل لتناول السمك الفاسد.

وفي كوخ آخر، شاهدت المشهد التالي: محكوم شاب، شعره غامق اللون، يرتدي قميصًا أنيقًا وبتعبير وجه حزين أكثر من المعتاد كان يجلس إلى الطاولة مطرقًا رأسه بين يديه. بينما كانت مدبرة المنزل، وهي مدانة أيضًا، تجمع السماور والأكواب. وعندما سألته عن حالته الاجتماعية، أجابني الشاب أن زوجته وابنته قد أتيتا بعده طواعية إلى سخالين، ولكنهما غادرتا قبل شهرين إلى نيكولايفسك ورفضتا العودة مع أنه كتب إليهما كثيرًا من البرقيات. فأضافت المدبرة إلى ذلك قولها: «لن تعود أبدًا. هي شابة، وحرة. فماذا ينتظرها هنا؟ لقد أقلعت، مثل طائر، وذهبت، بجسدها وروحها وما

حملت[1]، ليس مثلنا أنا أو أنت. لو لم أقتل زوجي ولو لم تشعل الحرائق، لكنا أيضًا حرين، أنا وأنت. ولكن، ها نحن ذا، ويمكنك أن تظل جالسًا هنا منتظرًا الرياح أن تحمل إليك زوجتك الصغيرة وتعيدها إلى كنفك، ويمكنك أن تُغرِق قلبك في الأسى...» الرجل الشاب يعاني. ويبدو أن حملًا عظيمًا يثقل روحه، ولكن المدبرة لا ينحيها ذلك عنه، فتخِز قلبه وتُصدِّع رأسه بإزعاجها.

شاركت في رحلة صيد في السجن بدبرينسكويه في 25 آب. أضفى المطر المستمر سحرًا حزينًا على الطبيعة، وكان من الصعب السير على طول الضفة الزلقة. في البداية، توقفنا عند سقيفة يُملَح تحتها 16 مدانًا الأسماك تحت إشراف فاسيلينكو الذي كان يعمل صيادًا في تاغانروغ. كانوا قد وضعوا 150 برميلًا، أو نحو 40 طنًّا. ويمكن للمرء أن يظن أن فاسيلينكو لو لم ينتهِ إلى السجن لما عرفوا ما يصنعون بالسمك. وعلى المنحدر بين السقيفة والضفة، كان ستة من المدانين يستخدمون سكاكين حادة للغاية لتنظيف أحشاء السمك، ثم يلقونها في النهر، فكان الماء أحمر وعكرًا، وأُثقِل الهواء برائحة السمك والطين والدم. وإلى جانب النهر، كان مجموعة من المحكوم عليهم، غارقين في البلل، حفاة الأقدام أو يرتدون قباقيب، يلقون بشبكة صغيرة.

(1) التعبير الأصلي «ذهب القفل والكعب والماسورة»، وهي أجزاء السلاح كله.

كيف يأكل السجناء؟ لا توجد قاعات طعام، بل يصطف نزلاء السجن عند الظهيرة بجوار الثكنات أو كوخ الطهي كما لو كانوا يشترون تذاكر قطار، ويحمل كل منهم وعاءً ما. بحلول هذا الوقت، يكون الحساء مطهيًّا جيدًا ويبقى على نار هادئة في أوانٍ كبيرة مغطاة. ويستخدم الطباخ عصا طويلة قد ربط مغرفة إلى نهايتها كملعقة لتوزيع حصص الطعام: حصتان من اللحم دفعة واحدة أو لا شيء على الإطلاق، كما يشاء هو. إلى أن يصل آخر شخص في الدور إليه، لا يعود من الممكن تمييز المغرفة. كل ما يتبقى منها كرة صمغية فاترة في قعر القدر يجب تخفيفها بالماء لاستخدامها. وبعد تلقي حصصهم، يتفرق السجناء؛ فيأكل بعضهم واقفًا، ويقعد آخرون إلى الأرض أو على منصات نومهم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أدخل نفسك في المشهد

علّق على ما يحدث

ليكن في بالك أن المحقق هو أيضًا موضوع ملاحظة.

«انتباه! وقوف!» يصرخ الحارس.

نخطو إلى داخل الزنزانة. تبدو واسعة، حجمها نحو 1400 قدم مكعب، والنور يعمُّها. النوافذ مفتوحة، والجدران غامقة، غير مدهونة، ومليئة بالتشققات، والبلوط يحشو الصدوع بين الجذوع، وحدها المدافئ المبلطة بيضاء. الأرضية مصنوعة من الخشب المجفف غير المطلي. على طول الزنزانة، توجد منصة للنوم ينحدر جانبها نحو المنتصف لاستيعاب النائمين في صفين متقابلين رأسًا لرأس. ليست مساحات المحكومين مُعلَّمة بأرقام أو بأي طريقة، ما يجعل من الممكن وضع أي عدد بين 70 و170 سجينًا. لا يوجد فراش، بل ينام الرجال على الخشب العاري أو على أكياس أو ملابس قديمة ممزقة، أو أي خرقة بالية مقرفة متعفنة بأنواعها. وتتبعثر على منصة النوم القبعات، والأحذية، وقطع الخبز، وزجاجات الحليب الفارغة المغطاة بقطع من الورق أو الخرق، ومساند الأحذية، والمساحة تحت المنصة محشوة بصناديق الصغيرة، وأكياس قذرة وحزم وأدوات وخرق قديمة. تتنزه قطة سمينة حول المنصة، وتتدلى

الأواني والملابس والأدوات من الجدران والأرفف المليئة بأباريق الشاي والخبز ونوع ما من صناديق التخزين.

ذرعنا الزنزانة بطولها، دون أن ننزع قبعاتنا، بينما وقف النزلاء باستعداد وتفحصونا بصمت. ونحن صامتون أيضًا ونتفحصهم، ويكاد يبدو أننا أتينا لنشتريهم.

يدير المتجر هنا رقيب متقاعد كان يعمل سابقًا مفتش مقاطعة في مقاطعة تيموفسك، ويبيع مواد البقالة، ويحمل أيضًا أساور نحاسية وسردينًا معلبًا. لا بد أنه حسبني مسؤولًا بالغ الأهمية؛ لأنه في لحظة دخولي إلى المتجر فجأة ودون أي إشارة مني اعترف أنه تورط في ما سبق بأمور مريبة، ولكنه خرج منها تائبًا، وسرعان ما أخرج لي شهادات على هذا الأمر، من بينها رسالة من جنرال يُدعى شنايدر، كان ختامها، حسب ما أتذكر، الجملة التالية: «وعندما يصبح الجو أدفأ، سخِّن الثلج الذائب». ثم، وليثبت أنه لا يدين بشيء لأحد، بدأ الرقيب يفتش بين وثائقه عن الإيصالات، التي لم يجدها في النهاية، فغادرت المحل على قناعة تامة ببراءته وبحوزتي رطل من سكاكر الكراميل السادة، تقاضى مني ثمنها خمسين كوبيكا، وهو سعر جائر.

عند وصف حدث شاركت فيه، صِف المشاعر التي انتابتك.

شهدت حادثة جَلد في «دويه». كان المتشرد بروخوروف، واسمه في الأصل ميلنيكوف، رجلًا يبلغ من العمر نحو خمسة وثلاثين أو أربعين، قد هرب من سجن فوييفودسك، وصنع لنفسه طوفًا صغيرًا، وانطلق نحو البر الرئيسي. ولكن أحدًا رآه من الشاطئ، وأرسل مركبًا لاعتراضه فورًا وإعادته. وبدأ التحقيق في هربه. وبعد الرجوع إلى السجلات الرسمية، ظهر فجأة أن بروخوروف هذا، الذي كان يُدعى ميلنيكوف، قد أُدين بتهمة قتل رجل قوزاقي واثنين من بنات إخوته قبل عام، وقد حكمت عليه محكمة مقاطعة خاباروفسك بتسعين جلدة والجر مقيدًا إلى عربة[1]. ولكن هذا الحكم لم يُنفَّذ سهوًا. ولو لم يركب بروخوروف رأسه عازمًا الهرب، لربما لم يكن أحد ليكتشف هذا السهو، وربما وفَّر على نفسه الجَلد والقيود، ولكن لا مفر من العقاب الآن. وفي صبيحة اليوم المحدد، 13 آب، سلك آمر السجن، والطبيب، وأنا طريقنا إلى المكتب. كان بروخوروف، الذي أُعلِن عن وصوله قبلها بيوم، جالسًا على الشرفة، تحت الحراسة،

(1) كان الجر بعربة اليد شكلًا قاسيًا من العقاب يُقيَّد فيه السجين إلى عربة خشبية تزن حتى 175 رطلًا. لم يكن شيء يُنقَل على عربة اليد، وكان المحكوم المقيد هكذا لا يشتغل في الأعمال الشاقة. وكان هذا الشكل من العقاب يُترَك للهاربين، والعائدين، والمحكومين بالإعدام الذين قد عُفِيَ عنهم. [ل. ل.]

غافلًا عما كان ينتظره. ولكن عندما وقعت عيناه علينا، نهض واقفًا، وربما أدرك ما سيحدث لأن وجهه ابيضَّ من الخوف.

أمره آمر السجن: «إلى المكتب!»

دخلنا إلى المكتب، وأُحضِر بروخوروف. أمره الطبيب، وهو ألماني شاب، بنزع ثيابه، وأصغى إلى قلبه ليحدد كم ضربة يمكن لهذا السجين أن يتحمل. فاعتمد قراره في أقل من دقيقة، ثم قعد بطريقة رجال الأعمال ليدون تقريره.

تمتم متأسيًا بلغة روسية مشوبة بلكنة ألمانية ثقيلة: «آه، المسكين!» وغمس قلمه في المحبرة. «الأغلال ثقيلة جدًا عليك! لِمَ لا تطلب من السيد الآمر وسيأمر بنزعها عنك؟»

لم يقل بروخوروف شيئًا. شفتاه بيضاوان وترتجفان.

تابع الطبيب: «لا فائدة من عقابك. لا أمل منك كلك. هكذا ناس لا يمكن الاعتماد عليهم في روسيا! آخ أيها المسكين، المسكين!»

اكتمل التقرير، وأُضيف إلى ملف التحقيق في الهروب. أطبق صمت ثقيل على المكان. الموظف يكتب، والطبيب والآمر يكتبان... ما زال بروخوروف لا يملك أدنى فكرة عن السبب الحقيقي لإحضاره إلى هنا: على خلفية محاولته الهرب، أم بسبب الأمر القديم، أم بسبب كليهما؟ وهذا الشك يُشعِره بالضيق.

سأله الآمر أخيرًا: «بماذا حلمت في الليلة الماضية؟»

«نسيت، نيافتكم».

فقال له الآمر وهو ينظر إلى الأوراق الرسمية بطرف عينه: «اسمعني الآن، في اليوم الفلاني من السنة الفلانية، حكمت عليك محكمة مقاطعة خاباروفسك بتسعين جلدة لقتل قوقازي... واليوم هو يوم تنفيذ هذا الحكم».

ثم ألقى على السجين محاضرة، صافعًا إياه على جبهته:

«لِمَ كل هذا ضروري؟ لماذا؟ لأنك أنت، يا بليد الرأس، تريد أن تكون أذكى مما أنت عليه حقًّا. تظل تحاول الهرب، تظن أن الأمور ستتحسن، ولكن يتضح أنها أسوأ حتى مما كنت فيه».

سرنا جميعًا إلى المحرس، وهو بناء قديم رمادي يشبه الثكنات، فتكلم مسعف الجيش الجالس عند الباب بصوت متوسل، كما لو كان يسأل الصدقة:

«نيافتكم، لو سمحتم، أيُؤذَن لي أن أرى كيف يعاقبون السجين؟»

في منتصف المحرس، مقعد منحنٍ بفتحات لتثبيت الذراعين والساقين، فيومئ الجلاد تولسيخ[1] –وهو رجل طويل ممتلئ له بنية رافع أثقال ممن يعملون في السيرك، ويرتدي قميصًا وصدرية مفتوحة الأزرار– برأسه لبروخوروف، الذي استلقى بصمت. أخذ تولستيخ وقته في سحب بنطال السجين بصمت إلى ركبتيه وبدأ ببطء في تثبيت ساقيه وذراعيه إلى المقعد. حدق آمر السجن من

(1) حُكِم على [تولستيخ] بالأشغال الشاقة لقطع رأس زوجته. [أ. ت.]

النافذة بهدوء، بينما كان الطبيب يسير ذهابًا وإيابًا، حاملًا في يديه قارورة من أحد أنواع القطرات الطبية.

سأل: «ربما تريد كأس ماء؟»

«حبًّا بالرب، نعم سيدي، نيافتكم».

أخيرًا، أُوثِق بروخوروف. التقط الجلاد السوط ذا الذيول الجلدية الثلاثة ونشره ببطء.

قال له بصوت رقيق: «تحزَّم!» ودون حتى أن يُرجِع ذراعه إلى الوراء، كما لو كان فقط يسدد نحو هدفه، ينزل بالسوط على ظهر السجين.

«و.. ا.. ح.. د!» قالها الآمر بصوت شمَّاس يتلو صلواته.

لأول لحظة، كان بروخوروف صامتًا دون تغيير في تعابير وجهه، ثم سرت رعشة من الألم على امتداد جسده بأكمله، تلاها صوت ليس بصرخة، بل أشبه بزعقة.

«اثنان!» صرخ الآمر.

وقف الجلاد إلى جانبه وضرب بطريقة يهبط فيها السوط على عرض الجسم. وبعد كل خمس جلدات، كان يتحرك ببطء إلى الجانب المقابل ليعطي السجين استراحة مدتها نحو نصف دقيقة. كان شعر بروخوروف ملتصقًا بجبهته، ورقبته متورمة، وبعد أول خمس أو عشر جلدات، تحول جسده، المليء أصلًا بالندوب من

مرات الجلد السابقة، إلى اللون الأرجواني والأزرق، وكان جلده يتشقق مع كل ضربة.

«نيافتكم!»... اخترقت الكلمات العويل والزعيق. «نيافتكم! رحماكم، سيدي!»

وبعد عشرين أو ثلاثين جلدة، بدأ بروخوروف يئن كمن هو في حالة سُكر أو هذيان: «أنا بائس تعيس، أنا رجل محطم... لِمَ تضربونني؟»

ثم مط رقبته بغرابة، وصدرت أصوات تهوُّع... لم يقل بروخوروف شيئًا، ولكنه كان يشهق ويئن وحسب. بدا كما لو مر دهر منذ بدء الجلد، ولكن الآمر استمر بالصراخ: «اثنان وأربعون! ثلاثة وأربعون!» لا تزال التسعون بعيدة. خرجت من المكان. كان الشارع صامتًا، وبدا لي أن الأصوات المفزعة من داخل المحرس كان يمكن أن تُسمَع في كل ركن من «دويه». مر بجانبي أحد المحكومين مرتديًا ثياب رجل حر، واختلس نظرة إلى المحرس، ثم نطقت كل ملامح وجهه وحتى مشيته بالرعب. عدت إلى المحرس، ثم خرجت من جديد، ولا يزال الآمر يعد السياط.

أخيرًا: تسعون. حُلَّ وثاق بروخوروف بسرعة عن المقعد وأُنهِض. امتلأت أجزاء جسمه، التي نزلت عليها السياط، بالكدمات والنزيف. وكانت أسنانه تصطك، ووجهه أصفر ورطبًا، وعيناه تتقلبان في محجريهما. وعند إعطائه القطرات الطبية ليشربها، عض بتشنُّج على الكأس... بُلِّل رأسه، وسيق إلى المستوصف.

أخبروني ونحن عائدون إلى المنزل: «هذه كانت عن جريمة القتل. وسيُجلَد أخرى لقاء هربه».

صاح مسعف الجيش مرحًا: «أحب مشاهدة الجلد!» وكان مسرورًا جدًّا بنفسه إذ أقر عينيه بهذا المشهد البغيض. «أحب ذلك! يا لهم من أوغاد، من حثالة... يجب أن يُشنَقوا!»

قدِّم نتائج استطلاعك

إن أهمية الاستطلاع تتمثل في الانطباعات التي تجمعها في أثناء عملية قيامك به. ومن الطرق الجيدة لتقديم النتائج التي حصلت عليها أن تصف كيف تطور الاستطلاع.

ذهبت من كوخ إلى كوخ دون رفيق، ولكن في بعض الأحيان، كان ينضم إليَّ أحد المحكومين أو المستوطنين، بدافع الملل المطلق، آخذًا على عاتقه أداء دور الدليل ليرشدني. أحيانًا، كان يرافقني كظلي، سواء من قريب أو بعيد، حارس مسلح. كان مكلفًا بتتبعي فقط في حال احتجت إلى استيضاح شيء ما. وكلما التفتُّ إليه بسؤال، تصببت جبهته عرقًا في لحظة وأجابني: «كيف لي أن أعرف ذلك، سيادتكم؟» عادة ما كان يسير رفيقي هذا أمامي، عاري الرأس وحافي القدمين وحاملًا دواتي، ويفتح الأبواب محدثًا جلبة، ويسارع ليهمس بشيء ما في أذن رب المنزل، على الأرجح أنه كان يهمس افتراضاته بشأن أهداف استطلاعي.

ظنّني السكان المحكومون مسؤولًا حكوميًا، وعدُّوا إحصائي السكاني شيئًا آخر يُضاف إلى قائمة الرسميات الشكلية التي كانت شائعة جدًّا في المنطقة ونادرًا ما أفضت إلى أي شيء. وبالمناسبة، فإن حقيقة عدم كوني محليًّا -أي لست من مسؤولي سخالين- أثارت شيئًا من الفضول بين المحكومين، فكانوا يسألونني: «لأي شيء تدون هذه المعلومات؟»

خرجوا بكل أشكال التفاسير، فظن بعضهم أن المسؤولين «فوق» يبحثون طرقًا لتوزيع المعونات على المحكومين، بينما تكهن آخرون أن القرار قد اتُّخذ أخيرًا لنقل الجميع إلى البر الرئيسي (فوفقًا للاعتقاد السائد والراسخ المتداول في الجزيرة، فإن السلطات كانت على وشك نقل المستعمرة الجنائية والمستوطنين إلى البر الرئيسي)، بينما قالت مجموعة أخرى -الذين يدَّعون أنهم مشككون- إنهم لم يعودوا يأملون في أي شيء إيجابي لأنفسهم لأن الله نفسه قد أدار لهم ظهره، ولكن السبب الرئيسي في قولهم هذا هو لكي أعارضهم. وبعد ذلك، علا صوت مليء بالإرهاق والملل والضيق ربما من المدخل أو من أعلى الموقد[1]، لكنه بدا ساخرًا من كل هذه الآمال والتكهنات: «يستمرون بالكتابة، ثم الكتابة، ثم الكتابة، يا أم الرب المقدسة!»

(1) كان كوخ الفلاحين الروسي فيه فرن كبير، عالٍ، وعادة ما يكون مبلطًا، وكان قسمه العلوي يُستخدَم منصة للنوم. [ل. ل.]

اجمع روايات الناس عن سيرهم الذاتية، واختر واحدة لتعيد إنتاجها كمثل على كيفية رواية هذه الحكايات، وأعطِ أمثلة على الأسئلة المطروحة، وصِف السياق الذي حُكِيَت فيه هذه القصص وأُجرِيَت فيه هذه المحادثات.

أحيانًا، بينما أقرأ أو أكتب، أسمع فجأة صوتًا يشبه الحفيف والأزيز، وكنت أشعر بشيء ثقيل يتحرك تحت مكتبي إلى جانب قدميَّ. كنت أتطلع فأرى إيغور، حافي القدمين، يلتقط قصاصات الورق تحت المكتب أو يكنس الأرض. في أواخر الثلاثينيات من عمره، كان شخصًا مربكًا وصعب المراس -أخرق ساذج، باختصار- ذا وجه بسيط يبدو غبيًّا من النظرة الأولى وفم بعرض فم سمكة البربوط. كان شعره أحمر، ولحيته كالقش، وعيناه صغيرتين. لم يكن يجيب على الأسئلة مطلقًا قبل أن يلقي نظرة جانبية عليك أولًا ويسأل: «كيف هذا؟» أو «من هذا؟». كان يخاطبني بلقب «نيافتك»، ولكنه يستخدم ضمير «أنت» الخاص بنداء القريب. لم يكن قادرًا على القعود لأكثر من دقيقة، وكان دائمًا يعمل ويجد لنفسه ما يفعله. كان مثلًا يتكلم معك، ولكن عينيه تجولان طيلة الوقت في المكان باحثتين عن شيء لتنظيفه أو إصلاحه. في الليل، لم ينم قط أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات؛ لأنه ليس لديه وقت للنوم. عادة ما كان يتمركز في العطل على ناصية شارع، مرتديًا قميصًا

أحمر ومعطفًا، ويُخرِج بطنه ويغرس قدميه في الأرض مباعدًا بينهما في وقفة عريضة. كانت هذه طريقته في «الخروج في المدينة».

هنا، في الأشغال الشاقة، كان قد بنى لنفسه كوخًا، وصنع دلاءً، وطاولات، وجذوعًا غير محفورة للجلوس. كان يمكنه صنع كل أنواع الأثاث، ولكن فقط «لنفسه»، أي: لاستخدامه الخاص. لم يدخل قط في قتال ولم يُضرَب قط، إلا في تلك المرة عندما كان طفلًا وجلده أبوه لأنه سمح للديك بالدخول إلى حقل البازلاء الذي كان يُفترَض أن يراقبه.

في أحد الأيام، كان لنا الحديث التالي:

سألته: «لم أرسلوك إلى هنا؟»

«ماذا، نيافتك؟»

«لِمَ أُرسِلت إلى سخالين؟»

«بتهمة القتل».

«أخبرني بالقصة، من بدايتها».

انحنى إيغور على الباب، ووضع يديه خلف ظهره، وبدأ حكايته.

كتابة النصائح

اكتب كما لو كنت ترسم

تصوَّر أنك ترسم لوحة بكل تفاصيلها وألوانها.

لو كان لرسام مشاهد طبيعية أن يأتي لزيارة سخالين، فأنصحه أن يقوم بنزهة في وادي أركوفو؛ فبالإضافة إلى الموقع الجميل، هذه البقعة غنية غنى فريدًا بالألوان إلى درجة أن من الصعب وصفها دون اللجوء إلى ذلك التشبيه البالي بالسجادة الملونة أو المشكال. تخيَّل صورة حقل هائل خصب تنمو فيه عشبة الأرقطيون المتلألئة بندى الأمطار الأخيرة، وخلفها، في قطعة أرض صغيرة لا يتجاوز عرضها 21 قدمًا، تخضر سنابل الجاودار، وبعدها حقل من الشعير، ثم الأرقطيون من جديد، ثم حقل آخر مليء بالشوفان، ثم صف من البطاطس، ثم زهرتان من عبَّاد الشمس منتصبتان ورأساهما متدليان، يتلوهما فالق من القنَّب الأخضر الغني، وهنا وهناك، تلقي نباتات المظلة بأغصانها بفخر كأذرع الشمعدان، وتنتشر في كل مهرجان الألوان هذا رقع من نباتات الخشخاش بألوانها الوردية، والقرمزية، والزنجفرية. وعلى الطريق، تمر بفلاحات يلتففن بأوراق أرقطيون كبيرة لتحجب عنهن المطر فيبدون كخنافس خضراء ضخمة. وعلى كل من الجانبين، ترى الجبال، ليست كجبال القوقاز، الحق يُقال، ولكنها تظل جبالًا.

هو أوكراني من حيث الولادة، وهو طالب حقوق سابق من حيث التدريب. هو شاب، ودون سن الأربعين، وهو، بالمناسبة، العمر الوسطي لمسؤولي سخالين. لقد تغير الزمن؛ فمسؤولو النظام الجزائي الروسي في هذه الأيام يميلون إلى الصغر في السن بدل الكبر بحيث -إذا افترضنا- لو كان فنان يريد رسم جلد متسول، لكان عليه أن يستبدل الشكل التقليدي للنقيب العجوز المدمن على الكحول بأنفه البنفسجي فيرسم بدلًا منه رجلًا شابًا يرتدي زيًّا موحدًا أنيقًا جديدًا.

استخدم الصور الفوتوغرافية

عند وصف مكان، أو موقف، أو شخص، احتفظ بصورة فوتوغرافية أمامك.

رأيت من السجناء المسنين من يسارع لإخفاء قيوده تحت ثنايا معطفه في حضور الغرباء. لديَّ صورة لمحكومين مقيدين في عصبة عمل من «دويه» وفويفودسك تُظهِرهم وهم يحاولون الوقوف بطريقة لا تظهر معها السلاسل في الصورة.

سجِّل المحادثات

استخدم الخطاب المباشر لتسجيل المحادثات.

حدثت هذه الواقعة عند حلول الظلام: كان اثنان من الغيلياك، أحدهما ذو لحية صغيرة، والآخر ذو وجه وقور ممتلئ بالحيوية، مستلقيين على العشب أمام كوخ أحد المستوطنين. كنت مارًّا

بالمكان، فناديانى وشرعا في مناشدتي للذهاب إلى الكوخ واستعادة المعطفين اللذين تركاهما مع المستوطن في وقت سابق من اليوم؛ إذ كانوا يخشون الدخول بأنفسهما. فأشرت أنه ليس لديَّ أيضًا الحق في دخول منزل شخص غريب في غياب مالكه، فلاذا بالصمت.

«أأنت سياسي؟ (يعني «معتقلًا سياسيًّا»)؟» هكذا سألني الغيلياكي ذو الوجه الوقور.

«لا».

«إذن فأنت كتبتب (يعني «كاتبًا»)؟» سألني، ناظرًا إلى الورقة التي أحملها.

«أجل أنا أكتب».

«وكم تجني من المال؟»

كنت أجني نحو ثلاثمئة روبل في الشهر، وهذا هو الرقم الذي أخبرتهما به. ومن لم يكن حاضرًا فاته الانطباع المنزعج، بل الأليم، الذي سببته إجابتي. قبض كلاهما على بطنيهما فورًا، وقفزا على الأرض، وبدآ يتلويان كما لو كانا مصابين بألم مريع في المعدة، وقد أسفر وجهاهما عن يأس عميق.

ما فهمته من كلامهما المبهم وسط كل هذا التلوي: «أوه، لماذا تتكلم هكذا؟ لماذا عساك تقول شيئًا مريعًا كهذا؟ أوه، كم هذا سيئ! فلتكف عن ذلك!»

فسألتهما: «ولكن ما الذي قلته وكان بهذا السوء؟»

«بوتاكوف، المشرف الإقليمي، وهو عظيم الشأن، يحصل على مئتين، ولكن أنت -أنت لست مشرفًا، بل مجرد كتبتب صغير- وتحصل على ثلاثمئة! ما أسوأ ما قلت! يجب أن تكف عن ذلك!»

فبدأت أشرح أن المشرف الإقليمي قد يكون فعلًا عظيم الشأن، ولكنه يحصل على مئتين فقط لأنه يقضي كل وقته جالسًا في مكان واحد، أما أنا، ومع أنني كتبتب تافه، فقد أتيت من مكان بعيد، بعيد جدًّا، أبعد من سبعة آلاف ميل، وكانت نفقاتي أكبر بكثير من نفقات بوتاكوف، ولذلك كان عليَّ أن أجني مالًا أكثر بكثير. بدا أن هذا التفسير هدَّأ روع الغيلياكيين، فتبادلا النظرات، وتشاورا قليلًا بلغتهما الأم، واسترخيا. وأظهر وجهاهما أنني الآن قد اكتسبت ثقتهما التامة.

قال الغيلياكي الملتحي باقتضاب: «صادق بما فيه الكفاية، صادق بما فيه الكفاية». «حسنًا الآن. امضِ لشأنك».

فأومأ الآخر قائلًا: «صادق بما يكفي. فلتمضِ قدمًا».

احكِ القصص كما رُوِيَت

احكِ القصص، التي رُوِيَت لك، بكلمات المتحدثين الأصليين، أو حاول المداورة بين كلامهم وكلامك.

عشية الإعدام، يسهر القس مع الرجل المحكوم عليه؛ ليجهزه لرحلته الأخيرة طول الليل. ويتكون التجهيز من اعتراف ومحادثة. أخبرني أحد القساوسة ما يلي:

«ذات مرة، في بدايات رحلتي التبشيرية، وعندما كنت لا أزال في الخامسة والعشرين، أُرسِلت إلى سجن فويفودسك لتجهيز رجلين محكومين بالإعدام شنقًا. كانا قد قتلا مستوطنًا لأجل روبل واحد و44 كوبيكا. ذهبت إلى زنزانتهما، ولأنني جديد على الوضع فقد فقدت أعصابي. طلبت إلى الحارس أن يُبقي الباب مفتوحًا ويقف خارجًا. ولكنهما قالا: «لا تقلق، أيها الموقر. لن نقتلك. اقعد، لو سمحت».

فسألتهما: «وأين عساي أقعد؟» فأشارا إلى منصة النوم. فجلست على برميل الماء، ثم -مستدعيًا شجاعتي- انتقلت للجلوس على المنصة بين المجرمَين. سألتهما عن المحافظة التي أتيا منها، وسألت عن هذا وذاك، ثم وصلت إلى التحضيرات. ولكن بينما كنت وسط جلسة الاستماع لاعترافاتهما، نظرت إلى النافذة ورأيت رجالًا يحملون أعمدة للشنق وما إلى ذلك.

«ما ذاك؟» سأل السجينان.

«ذاك...» كما أخبرتهما، «لا شك أنه شيء يبنونه لآمر السجن».

«لا أيها الموقر، بل هو لشنقنا. ماذا تقول، أيها الموقر؟ هل لنا ببعض الفودكا؟»

«لا أدري» قلت لهما، «سأذهب وأكتشف».

ذهبت إلى الكولونيل ل. وأخبرته أن المدانين يريدان مشروبًا، فأعطاني الكولونيل زجاجة، وأشار للسجان أن يزيل الحارس لئلا

يكون ثمة كلام. أخذت زجاجة من المخفر، وذهبت عائدًا إلى السجينين في الزنزانة. وملأت كوبًا.

«لا، أيها الموقر» قالا، «أنت أولًا، أو لا نشرب».

كان عليَّ أن أشرب، ولكن لم يكن ثمة ما يدفعني إلى ذلك.

«حسنًا» قالا، «الفودكا تصفي الذهن».

وبعد ذلك، مضيت في التحضيرات. تكلمت معهما لساعة تلو أخرى. فجأة، أتى الأمر: «أخرِجهما!»

بعد ذلك، بعد أن شُنِقا، كنت خائفًا -لانعدام الخبرة- كنت أخشى بعدها دخول غرفة مظلمة لفترة طويلة، طويلة جدًّا».

كان صباحًا باكرًا في تشرين الأول؛ رماديًّا، وباردًا، ومظلمًا. اصفرَّت وجوه المحكوم عليهم من الذعر واقشعر شعر رؤوسهم. ارتجف الكاتب هائجًا وتلعثم لأنه بالكاد يستطيع أن يرى حتى يقرأ كلمات حكم الموت على الملأ. وكان الكاهن، مرتديًا رداءً أسود، يحمل صليبًا أمام كل من الرجال التسعة ليُقبّله ثم يلتفت إلى قائد المقاطعة، هامسًا: «لأجل الرب، دعني أذهب، لا يمكنني...»

كان الإجراء طويلًا ومعقدًا. على كل رجل أن يرتدي الكفن أولًا قبل أن يُقاد إلى منصة المشنقة. وعندما يُرفَع التسعة على حبالهم، تبدو المجموعة -حسب تعبير قائد المقاطعة عندما وصف لي الإعدام- كأنها «إكليل كامل» معلق في الهواء. عندما أُنزِل المحكوم عليهم عن المشانق، اكتشف الأطباء أن أحدهم كان لا يزال على

قيد الحياة. وقد كان لهذه الحادثة معنى خاص جدًا؛ فكل فرد من أفراد السجن يعلم أسرار كل الجرائم التي ارتكبها كل سجين. في هذه الحالة، كان القائم على الإعدام ومساعدوه مدركين أن الناجي كان في الحقيقة بريئًا من الجريمة التي يُعدَم لأجلها.

«علِّقوه مرة أخرى». أنهى قائد المقاطعة أخيرًا حكايته. «وبعدها، ما استطعت النوم شهرًا كاملًا».

قارن بين الماضي والحاضر

عند وصفك مكانًا ما، أخبر بما كان عليه في الماضي وكيف تغير، معتمدًا على مذكرات الرحالة وذكريات السكان القدامى.

يكفي المرء أن يقرأ وصف بولياكوف لوادي ألكساندروفسك ويقارنه بالموجود الآن، حتى يُقدِّر ما بذل من عمل ثقيل، معذب حقًا، في حرث هذه المنطقة؛ فقد كتب بولياكوف: «من مرتفعات الجبال المجاورة، يبدو وادي ألكساندروفسك مكتسيًا بالغطاء النباتي، مظلمًا، وشجيرًا... تغطي غابة صنوبرية هائلة جزءًا كبيرًا من قاع الوادي». ويصف السبخات، والمستنقعات المستعصية على المشي، والتربة البغيضة، والغابات حيث «بالإضافة إلى الأشجار العملاقة النابتة من جذور عارية، تتناثر على الأرض جذوع الأشجار العملاقة المتعفنة التي أسقطها التقدم في العمر أو أوقعتها الرياح، وتخرج بروزات طحلبية تشبه التلال من كرات جذور الأشجار التي وقعت على امتداد الأخاديد والوديان». ولكن الآن، وبدلًا

من التايغا والأخاديد والوديان، نجد مدنًا بأكملها، وقد عُبِّدت الطرقات، والمروج، وحقول الجاودار والخضروات كلها تخضر بالنبت الجديد، وقد بدأ الناس يشكون اختفاء الغابات.

أُسِّس مركز ألكساندروفسك في 1881. أخبرني مسؤول عاش في سخالين طيلة السنوات العشر الماضية أنه عندما وصل أول مرة إلى مركز ألكساندروفسك، كاد يغرق في الطين. أخبرني الأب إرالكي، الذي عاش في مركز ألكساندروفسك حتى عام 1886، أنه في الأصل كان مكونًا من ثلاثة بيوت، وأن الثكنة الصغيرة، التي يعيش فيها الآن الموسيقيون، كانت في الأساس تؤوي المساجين. كانت الشوارع مليئة بالجذوع المقطوعة، وتشغل أبنية الطوب الآن ما كان في السابق منطقة صيد السمور في عام 1882. وقد خُيِّر الأب إراكلي في أن يستخدم حجرة الحراسة كنيسة، ولكنه رفضها لصغرها. إذا سمحت له الأحوال الجوية، كان يحتفل بالقداس في الساحة، أما عندما يسوء الطقس فكان يستخدم الثكنة أو أي مكان آخر متوفر، ويكتفي بالعمل في القداس الصباحي فقط.

قال لي: «تكون في شأنك، تحتفل بالقداس، وفجأة تبدأ السلاسل بالجلجلة. تُحدِث ضجيجًا، والحرارة جهنمية. وأنا أتلو «تبارك، تبارك، تبارك...» بينما يصرخ بمحاذاتي تمامًا أحدهم: «سأحطم ج...». كل واحد من مشروعات البناء المختلفة، بما فيها إزالة جذوع الأشجار وتجفيف الأراضي الرطبة، قد نفذه المدانون. وحتى عام 1888، عندما بُنِيَ السجن الحالي، كانوا يُؤوَون في خيام

ومخابئ على شكل حفر في الأرض بعمق أربعة أقدام أو خمسة تغطيها أسقف من طين مزدوج الطبقات... أما في الوقت الراهن فإن ألكساندروفسك يحتل مساحة نحو 1.3 ميل مربع... والأرصفة الخشبية ممتدة على طول الطريق. كل شيء نظيف ومرتب، ولا توجد برك ماء ولا أكوام من القمامة حتى في الأزقة المتطرفة عن وسط المدينة، وفي أفقر الأحياء.

قارن بين المألوف وغير المألوف

يوافق الجزء الشمالي من جزيرة سخالين –المنطقة التي يقطعها حزام الجليد الدائم– في خصائصه الفيزيائية محافظة ريازان، والجنوب يحاكي القرم. الجزيرة طولها 594 ميلًا، أما عرضها فيتراوح بين 82.5 ميل في أعرض نقطة منها حتى 16.5 ميل في أضيقها. الجزيرة بضعفي حجم اليونان، وتكبر الدنمارك مرة ونصفًا.

عندما مسح عالم الحيوانات بولياكوف نهر الدويكا لوضع خريطته –المعروف أيضًا بنهر الألكساندروفسك– وجد أنه بعرض بضعة وسبعين قدمًا في أدنى روافده. وتغطي ضفافه أكوام هائلة من الأشجار المقتلعة. وفي كثير من الأماكن، كانت السهول المنخفضة مغطاة بمقاعد قديمة من خشب التنُّوب، والصنوبر، والنغت، والصفصاف، وتحيط بها مستنقعات مستعصية على العبور. يشبه النهر اليوم بركة طويلة ضيقة. ضفافه العريضة والعارية وتياره البطيء تُذكِر المرء بقناة موسكو.

للوهلة الأولى، قد يُخدَع المرء بتشابه كورساكوف مع تلك القرى الساحرة، المتخلفة، التقليدية الروسية التي لما تزل بمنأى عن الحضارة. في زيارتي الأولى، وصلت يوم الأحد بعد العشاء، وكان الطقس هادئًا ودافئًا، وكان الجو احتفاليًا. كان الفلاحون يأخذون قيلولة في الظل أو يشربون الشاي، وكانت النساء جالسات أمام الأكواخ، بجوار الأبواب أو تحت النوافذ، يفلي بعضهن شعور بعض من القمل. وكانت الأزهار في الساحات الصغيرة والحدائق، وامتلأت عتبات النوافذ بزهور إبرة الراعي. وكان الشارع يعج بالأطفال يداعبون الجنود أو يحاولون ركوب «المهر» على الكلاب السمينة التي كانت تفضل أن تنام.

اعتمد الأسماء التي ستستخدمها

عرِّف عن شخصياتك باسمها الأول وكنيتها، وإن كنت في شك فاستخدم الأحرف الأولى.

في اليوم التالي، زرت كومندان الجزيرة ف. أو. كونونوفيتش. ورغم التعب وضيق الوقت، فقد استقبلني الجنرال بكل حفاوة، وأمضى نحو ساعة يحادثني.

قال المسؤول: «اسمح لي أن أقدم نفسي: أنا أمين السجل الجماعي د.».

كان هذا أول معارفي في سخالين، وهو شاعر، ومؤلف ملحمة ساخرة اسمها *ساخالينو*، تبدأ بالعبارة: «أخبرني، أيها الطبيب، هل كان عبثًا أن...» أصبح لاحقًا زائرًا معتادًا ورفيق سير حول ألكساندروفسك ومحيطها، وكان يمتعني بالحكايات وما يتلوه عليَّ بلا توقُّف من أشعاره. في أماسي الشتاء الطويلة، يكتب قصصًا بقالب ليبرالي، ولكنه، عند الضرورة، يسارع لتذكير الناس بأنه أمين السجل الجماعي، من الرتبة العاشرة[1]. مرة، وعندما أتت فلاحة لرؤيته في شأن وخاطبته «السيد د.»، عدَّها إهانة وصحَّحها بغضب: «أنا لست «السيد د.». بالنسبة إليك، أنا «نيافتكم»».

(1) بكلمات أخرى: شغل الرتبة الأعلى من بين أدنى أربع عشرة درجة في «جدول الرتب». انظر الفصل 4. رقم 19. [ل. ل.]

أشياء أخيرة

لماذا أكتب

رسالة إلى أليكسي سوفورين، 2 كانون الثاني 1894

إن ما كتبته تحت عنوان «سخالين» عمل أكاديمي وسيُكسِبني جائزة المطران ماكاريوس[1]. لن يعود بإمكان الطب أن يتهمني بعدم الولاء بعد الآن؛ إذ سأقدم ما عليَّ للبحث العلمي ولما كان الكتَّاب السابقون يسمونه الصلف العلمي. ويسرني أن أضيف هذا المعطف المدان إلى خزانة أدبي. فليبقَ هناك معلقًا! لا ينبغي لي، طبعًا، أن أحاول نشر سخالين في... [«نيو تايمز»]؛ إذ ليس هذا قطعة صحفية، بل أظن أن من المفيد نشره في مجلد صغير منفرد.

خطِّط لاحتفالك

رسالة إلى ياكوف كورنييف27 ،[2] آذار 1894

---

(1) سُمِّيَت على اسم المطران ماكاريوس (ميخائيل بيتروفيتش بولغاكوف، 1816 - 1882)، مطران موسكو وكولومنا وعضو كثير من المجتمعات المثقفة، ومنها الأكاديمية الروسية للعلوم. وكانت جائزة المطران ماكاريوس تُمنَح على الإسهامات الاستثنائية في العلوم. [ل. ل.]

(2) كان ياكوف ألكسييفيتش كورنييف مالك عقار تشيخوف في موسكو.

سيادة ياكوف أليكسيفيتش الموقر! كانت لديَّ خطة: أن أُحضِر لك نسخة من عملي «سخالين» -مع إهداء مناسب- ما إن تخرج أولى نسخه المطبوعة. ولكن بينما كنت على وشك أخذ سيارة أجرة نحو محطة القطار، أي في بداية رحلتي، أجبرتني على شرب ثلاث كؤوس من نبيذ سانتوريني «لأجل الطريق»، ويبدو أن تلك الكؤوس الثلاث، بالإضافة إلى أمنياتك الطيبة، قد أدَّت دورها جيدًا؛ إذ كان سفري آمنًا.

خطّط لرحلتك القادمة

رسالة إلى أليكسي سوفورين، 11 تموز 1894

هذه خطتي: في 20 أو 22 تموز، سأذهب إلى تاغانروغ لأعود عمي الذي اشتد عليه المرض وأصر على معالجتي إياه. إنه رجل فاضل، وسيكون من الغريب أن يرفض، مع أنني متأكد من أن مساعدتي لن تُحسِّن وضعه. سأقضي بين يوم وثلاثة أيام في تاغانروغ، أسبح في البحر، وأزور المقبرة، ثم سأعود إلى موسكو. الآن وقد انتهيت من كتابة «سخالين»، وأدَّيت الحمد والشكر للقوى العليا، أعلن نفسي رجلًا حرًّا، مستعدًّا للذهاب أينما شئت.

شكر وتقدير

إلى ماثيو لور، المحرر الموقر؛ لرؤيتك، وصبرك، وصداقتك، وكيكة الشوكولا.

إلى كولين تريسي وسينثيا باك؛ لتقييمكما السريع واستجابتكما.

إلى جيف غوبل؛ لأنه لم يدعني أنسى أبدًا.

إلى آنيا ياتسينكو؛ لإجاباتك المتبصرة على تساؤلاتي.

إلى بيتر شتاينبرغر؛ لدعمك المخلص.

إلى غيديون وتانيا بوسكر؛ لكرم ضيافتكما الواسع.

إلى بيانكا أوون لينتشيك بوسكر؛ لضحكاتك، وفضولك، ولكونك قدوة.

إلى نينا أنتونيا هيدفيغا لوفرينتشيتش؛ لكونك أفضل قرائي، على الإطلاق.

فهرس الأعلام الواردين في مراسلات تشيخوف

إن عدد المعاصرين الذين ظهروا في مراسلات تشيخوف، سواء من كان يراسلهم أو من تناولتهم الرسائل نفسها، لمذهل! وتجدون في هذا الدليل المرتب هجائيًا أقصر تعريف للقراء الذين ينتابهم الفضول لاكتشاف معارف تشيخوف الأدبيين والاجتماعيين ممن ظهروا في هذا الكتاب.

- **أفيلوفا، ليديا ألكساندروفنا (1846 - 1942).** مؤلفة وكاتبة مذكرات، وقد كانت أفيلوفا من أشد المعجبات بتشيخوف، وكانت تأمل –في ما يبدو مجرد أوهام– في إقامة علاقة وطيدة معه، رغم زواجها وأمومتها. وبعد وفاة الكاتب، نشرت سجلًا عن صداقتهما فصَّلت فيه كل لقاءاتهما الثمانية بين عامي 1889 و1899. لم يُلقِ تشيخوف نفسه بأي ضوء على المسألة، تاركًا المجال خصبًا للتكهنات التي تستمر في إيراق الباحثين.
- **باتيوشكوف، فيودور دميتريفيتش (1857 - 1920).** باحث أدبي مرموق، وهو مؤسس علم الأدب المقارن الروسي، ومحرر القسم الروسي للصحيفة العالمية «كوزموبوليس».

- **بورينين، فيكتور بيتروفيتش (1841 - 1926).** ناقد وكاتب مسرحي، وشغل فترة منصب محرر في «نيو تايمز» (بالروسية: *Novoye Vremya*)، التي كتب فيها تشيخوف كثيرًا من القصص. وهو شديد في ردود أفعاله، ومعروف بتهكمه اللاذع وسوء أخلاقه في المطبوعات، ولكن ذلك لم يمنعه من إعطاء «السهوب»، التي كتبها تشيخوف، تقييمًا حسنًا في مراجعته.
- **تشيخوف، ألكساندر بافلوفيتش (1855 - 1913).** شقيق أنطون الأكبر، الذي بدأ عمل العائلة في الكتابة والنشر لقاء مال. وهو مسهم في صحيفة «نيو تايمز»، ولكنه قد ابتُلِيَ بإدمان الكحول، والزواجات العرفية، ومزاج ناقم.
- **تشيخوف، ميخائيل بافلوفيتش (ميشا) (1865 - 1936).** أصغر أبناء تشيخوف، وقد تبع ميخائيل خطى أخيه بتقسيم ولاءاته المهنية بين القانون والأدب. وقد كتب تحت عدة أسماء مستعارة، منها م. بوغيمنسكي، وم. بي-سكاي، وم. تش.، وماكسيم خوليافا، وكابتان كوك، وكان مؤلف قصص، وقصص أطفال، ومسرحيات، ومقالات، ومراجعات، و«اسكتشات» مضحكة، وقد نشر أيضًا مجلة، وترك ذكريات قيمة عن أخيه.
- **تشيخوفا، ماريا بافلوفنا (ماشا) (1864 - 1957).** أخت أنطون الوحيدة، وكانت ماريا تقدس أخاها، ولم تتزوج قط، وأخلصت نفسها له في أثناء حياته ومن بعدها لأعماله. وقد

نشرت أول طبعة من ستة مجلدات لرسائل أخيها بين 1912 و1916، وحافظت على الفيلّا الخاصة به في يالطا، وحولتها إلى متحف له.

- **غيلياروفسكي، فلاديمير ألكسيفيتش (1853 - 1935).** مغامر متهور، وصحفي تحقيقات وجرائم، وكاتب، ومؤدٍّ في السيرك، وصديق لتشيخوف. وقد كانت ذائقته الأدبية تختص بالحياة الفوضوية لأحياء موسكو الشعبية. ويظهر «البورتريه» الخاص به بين وجوه القوزاق في لوحة إيليا ريبين الخالدة «رد القوزاق الزابوروجيين» (1880 - 1891).

- **غوركي، مكسيم، اسم مستعار لأليكسي ماكسيموفيتش بيشكوف (1868 - 1936).** رائد الواقعية الاشتراكية الأول، وهي المدرسة الفنية الرسمية للاتحاد السوفييتي. وقد حُبِيَ شخصية كريمة وجذابة، وهو مؤلف، وكاتب مسرحي، وشاعر، وناقد، ورائد من رواد الأدبي فعل كثيرًا لحفظ حياة زملائه الكتّاب والقيم الإنسانية لثقافة ما قبل الثورة خلال سنوات الثورة. عندما كان يتيمًا يافعًا، عاش غوركي على أعمال غريبة، فانتزع الخوف من صدره، وطوّر آراءً سياسية راديكالية. وقد ساعدته صداقته مع تشيخوف وتولستوي على ترسيخ التزامه بالأدب وتعزيز مكانته بين معاصريه. وإن ذكرياته المستفيضة والمُعجَبة عن تشيخوف ممتازة وتستحق القراءة.

- **غريغوروفيتش، دميتر فاسيليفيتش (1822 - 99).** أحد أهم الشخصيات الأدبية للنصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد بنا غريغوروفيتش سمعته أساسًا على عدد من القصص القصيرة التي تناولت حياة الفلاحين كتبها في أربعينيات القرن التاسع عشر منتميًا إلى ما يُدعى المدرسة الطبيعية. ولكن أكثر إسهاماته الأدبية خلودًا رعايته لاثنين من أعظم كتَّاب روسيا: فيودور دوستويفسكي، شريك غرفته في عام 1844، الذي قدَّمه للشاعر الناشر نيكراسوف والناقد بيلينسكي؛ وأنطون تشيخوف، الذي وصفه في رسالة عام 1886 بأنه أبرز كتاب الجيل الشاب. يُعَدُّ تشجيع غريغوروفيتش عنصرًا أساسيًا في تحويل الدعي «أنتوشا تشيكونتي» إلى الكاتب الجاد أنطون تشيخوف. وقد كانت رسائل تشيخوف إلى غريغوروفيتش الأكبر سنًا منه نماذج للاحترام الأبوي، على الرغم من فتور علاقتهما بحلول عام 1889 مع برود تجاوب غريغوروفيتش تجاه تجارب تشيخوف المسرحية.

- **خوتياينتسيفا، ألكساندرا ألكساندروفنا (1865 - 1942).** فنانة موهوبة تعرَّفت إلى تشيخوف عن طريق أخته ماشا، التي كانت قد رسمت لوحة لوجهها في مليخوفو. وقد قدَّر تشيخوف خصوصًا رسمها الحساس للمشاهد الطبيعية، ودعاها «من الفنانات العظيمات في الأراضي الروسية». وتفتخر خوتيانتسيفا بمجموعة من الرسوم الكاريكاتورية

التي يرجع تاريخها إلى زمن إقامتها في نيس، حيث كان تشيخوف يبحث عن علاج لمرض السل، وقد أطلقت عليها «التشيخيات».

- **كيسليوفا، ماريا فلاديميروفنا (1857 - 1923).** كاتبة ناجحة لقصص الأطفال، وهي شغوفة بالصيد بالصنارة، وحفيدة كاتب وناشر من القرن الثامن عشر يُدعى ن. إ. نوفيكوف. وقد صادقت تشيخوف في الريف في أوكرانيا عندما كانت عائلة تشيخوف تستأجر «فيلّا» قريبة. وكان آل كيسليوف يملكون عقار بابكينو الفخم، حيث كان تشيخوف زائرًا معتادًا وضيفًا مُرحَّبًا به، واستقبل هناك كثيرًا من الكتّاب والموسيقيين الزائرين باستمرار. كانت ماريا الأولى من بين عدد من الكاتبات من النساء -منهن إلينا شافروفا وليديا أفيلوفا- كان تشيخوف قد أشرف على توجيههن. وكانت أخت تشيخوف تشير ممازحة إلى سرب المعجبات بتشيخوف باسم «الأنطونوفكاس»، وهو لعب لطيف على اسم صنف التفاح العطري المحبوب لدى أصحاب البيوت الريفية «الداتشا» في روسيا ما قبل الثورة.

- **كنيبر، أولغا ليوناردوفنا (1869 - 1959).** عضو في مسرح موسكو للفنون، الذي أسَّسه ف. إ. نيميروفيتش دانتشينكو وكونستانتين ستانيسلافسكي، وقد أدَّت أولغا في كل العروض الأصلية لمسرحيات تشيخوف في مسرح موسكو للفنون. وقد

رآها المؤلف لأول مرة على المسرح في عام 1898، مؤدية دور الإمبراطورة إيرينا في العرض الافتتاحي لمسرحية أ. ك. تولستوي «القيصر فيودور إيفانوفيتش». وقد كتب تشيخوف عن انطباعه الأول عن المرأة التي أصبحت في ما بعد زوجته ما يلي: «[هي] رائعة. صوتها، نبلها، صدقها: عذب إلى درجة تدغدغ حلقي... لو كان لي أن أبقى في موسكو، فلا شك أنني سأقع في حب إيرينا هذه». تزوَّجا في عام 1901. وقد أثارت أولغا، التي كانت موضع كثير من الحسد والقيل والقال، بلبلة من خلال بقائها في موسكو واستمرارها في تكريس نفسها للمسرح بينما كان تشيخوف مريضًا وحده في يالطا. ولكن رسائل الحب، التي جمعها وترجمها ونشرها كونستانس غارنيت في عام 1926، تشهد على صداقة عاطفية حقيقية.

- **كورنييف، ياكوف ألكسيفيتش (لا تاريخ).** طبيب لطيف كان دوره في حياة تشيخوف يقتصر إلى حد كبير على امتلاك المبنى الواقع في شارع سادوفايا كودرينسكايا في موسكو، حيث كانت تقيم أسرة تشيخوف بين عامي 1886 و1890. وتقع الشقة ذات الطابقين، التي يعيش فيها خمسة من أفراد أسرة تشيخوف، في جناح يشبه قلعة صغيرة. وقد كان مكتب تشيخوف وغرفة نومه في الطابق الرئيسي.

- **كورولينكو، فلاديمير غالاكتيونوفيتش (1853 - 1921).** كاتب روائي وليبرالي يساري اتخذ موقفًا ملتزمًا سياسيًّا في

الحياة والفن، مناصرًا لحقوق الفلاحين، ومندّدًا بمعاداة السامية، فانضم إلى تشيخوف في الاحتجاج على استبعاد غوركي من أكاديمية العلوم بأن تخلّيا عن منصبيهما الأكاديميين الفخريين في عام 1902. وربما كان عمل كورولينكو بعنوان «طريد سخالين» قد أوحى إلى تشيخوف بالكتابة عن المستعمرة الجزائية.

- **لافروف، فوكول ميخائيلوفيتش (1852 - 1912).** سليل عائلة تجارية ثرية من موسكو. وقد كان لافروف مالكًا وناشرًا ومحررًا لصحيفة «الفكر الروسي» (*Russkaya Mysl*) الليبرالية اليسارية الأدبية. وقد امتاز بكونه صحفيًّا ومترجمًا لكتّاب بولنديين (أبرزهم هنريك شتانكيفيتش) واستضاف حفلات عشاء أدبية فخمة.

- **لازاريف-غروزينسكي، ألكساندر (1861 - 1927).** كتب تحت الاسم المستعار أ. غروزينسكي في مجلة الطرف التي بدأ فيها تشيخوف حياته المهنية في الأدب. وقد قابل تشيخوف في عام 1887 في مكاتب تحرير المجلة، مع أن تشيخوف كان حينها قد «تخرّج» إلى أماكن مرموقة أكثر. وبمساعدة تشيخوف وتوجيهه، تمكن من تقديم نفسه إلى «نيو تايمز» وغيرها من كبريات الصحف والمنشورات.

- **ليونتييف (شيغلوف)، إيفان (1856 - 1911).** كاتب مسرحي. وفي إحدى صفحات مذكراته في 9 كانون الأول

1888، كتب أن تشيخوف كان يفتقر إلى المبادئ الأخلاقية وإلى «فكرة عامة محركة». وفي 9 شباط 1889، دوّن أن أحد المعارف قال: «تشيخوف عبقري، ولكن الله بعيد عن روحه».

- **ليكين، نيكولاي ألكساندروفيتش (1841 - 1906).** ناشر مجلة الطرف في سان بطرسبرغ «شذرات» (بالروسية: *Oskolki*)، والتي أسهم تشيخوف في قصص فيها بين عامي 1883 و1885. كان ليكين مروجًا كبيرًا للإخوة تشيخوف، وقد ساعدهم بالمال وفرص النشر في مجلته ودار النشر الخاصة به. وكان يحب ادعاء أنه أول من «اكتشف» أنطون تشيخوف. وقد كتب هو نفسه قصصًا روسية عن طبقة التجار الروسية.

- **منشيكوف، ميخائيل أوسيبوفيتش (1859 - 1917).** صحفي بارز، ومحرر مجلة سان بطرسبرغ «الأسبوع» (بالروسية: *Nedelya*)، ومسهم في صحيفة أليكسي سوفورين «نيو تايمز» (بالروسية: *Novoye Vremya*) بين عامي 1901 و1917.

- **ميخائيلوفسكي، نيكولاي كونستانتينوفيتش (1842 - 1904).** ناقد أدبي مؤثر ومحرر «المجلات السميكة»: «ملاحظات بلاد الآباء» (بالروسية: *Otechestvennye Zapiski*)، و«الثروة الروسية» (بالروسية: *Russkoe*

(*Bogatstvo*). وبصفته المُنظِر الرائد للشعبوية، اشترط على الأدب وجود أجندة اجتماعية وسياسية وأخلاقية معلنة.

- **أورلوف، إيفان إيفانوفيتش (1851 - 1917).** جراح مارس الطب في مقاطعة مجاورة لحكومة سربوخوف زيمستفو المحلية حيث كان تشيخوف يمارس الطب خلال إقامته في مليخوفو. وقد تبادل الطبيبان كثيرًا من المراسلات عن مسائل تُعنى بتنظيم الرعاية الصحية في الأرياف وعن وضع طبقة النخبة المثقفة «الإنتليجنتسيا».

- **بليشكييف، أليكسي نيكولايفيتش (1825 - 93).** شاعر، وكاتب مقالات، ومترجم، وفي شبابه كان ليبراليًّا راسخ المبادئ، وقد نُفِيَ إلى سيبيريا. كان بليشكييف محرر «نورثرن هيرالد – نذير الشمال» (بالروسية: *Severnii Vestnik*)، التي نشر فيها تشيخوف قصصه بين عامي 1887 و1889. وقد كانا صديقين حميمين، وكان بليشكييف يزور تشيخوف في الإجازات الصيفية في الريف.

- **بولونسكي، ياكوف بيتروفيتش (1819 - 98).** أحد رواد شعراء روسيا خلال فترة الركود الشعري بعد وفاة ألكساندر سيرجيفيتش بوشكين في عام 1837. وكان تشيخوف وبولونسكي يحترم كل منهما أعمال الآخر، وقد أهدى كل منهما عملًا للآخر.

- **روسوليمو، غريغوري إيفانوفيتش (1860 - 1928).** درس روسوليمو، ذو الأصول اليونانية، مع تشيخوف في كلية الطب بجامعة موسكو، وانضم في ما بعد إلى طاقمها التدريسي باختصاص طب الأعصاب والنفس. حافظ روسوليمو، وهو طبيب سريري نشيط، وباحث، وعالم، على اتصال مستمر بتشيخوف، وكان يولي تشيخوف عناية خاصة واهتمامًا في سنواته الأخيرة التي تدهورت فيها صحته تدهورًا كبيرًا.

- **شافروفا، إلينا ميخائيلوفنا (1874 - 1937).** واحدة من مجموعة صديقات ماريا تشيخوفا وزميلاتها في الدراسة، وقد ظل تشيخوف يتغزل بها غزلًا لطيفًا. كان منزل آل تشيخوف دائمًا يعج بالأصدقاء والرفاق، والمحادثات الحيوية، والنقاشات الجادة، والضحك الدائم. مضت إلينا قُدمًا بمساعدة تشيخوف، الذي التقته لأول مرة وهي في سن الخامسة عشرة، ونجحت نجاحًا أدبيًا متواضعًا.

- **سوفورين، أليكسي سيرجيفيتش (1834 - 1912).** أحد أكثر «رجال الحروف» سلطة ونفوذًا في القرن التاسع عشر بروسيا. هو فلاح في أصله، وامتهن إدارة المدارس. دخل سوفورين مجال الأدب في ستينيات القرن التاسع عشر، ولمع نجمه في البداية كصحفي فضائحي، ثم بوصفه مالك صحيفة «نيو تايمز» المحافظة وناشرها، التي استحوذ عليها في عام 1876. كانت له مشاركات في كل الجرائد الرائدة في

عصره، ومنها: «الخطاب الروسي» (*'Russkaya Reeh'*)، و«المعاصر» (*Sovremennik*)، و«ملاحظات بلاد الآباء» (*Otechestvennye Zapiski*) و«نذير أوروبا» (*Vestnik Evropy*). وقد ضمَّت «إمبراطورية الإعلام» لهذا الرائد الأدبي سلسلة من متاجره الخاصة لبيع الكتب في كبرى مدن روسيا حيث كانت طبعاته للكتَّاب الروس والمترجمين تُباع. وقد كتب، وهو الروائي، والباحث في الأدب، وكاتب المسرحيات، والكتب الواقعية والأدبية تحت الاسمين المستعارين بوبروفسكي ونزناكوميتس، وكتب بما وُصِف أنه «خط يد مأساوي» *مذكراته* الموسعة، وهي مصدر قيم للمعلومات عن الأحداث الأدبية والتاريخية لعصره. وقد جنى سوفورين ثروة بوصفه «رجل حروف» نهضويًّا. وكان شديد الإعجاب بتشيخوف، ومناصرًا كبيرًا له، وصديقًا.

- **تشايكوفسكي، موديست إليتش (1850 - 1916).** كاتب مسرحي، وكاتب كلمات أوبرا، ومترجم لأعمال شكسبير، والأخ الأصغر للملحن بيتر إليتش تشايكوفسكي. التقى تشيخوف، وهو من أشد معجبي الملحن إخلاصًا، بموديست في سان بطرسبرغ عام 1888 بمنزل الشاعر بليشكييف. وقد أدَّت هذه المعرفة إلى لقاءات مع الملحن، الذي صعق تشيخوف بأن اعترف به كموهبة صاعدة. أهدى تشيخوف مجلدًا من قصصه لبيتر، الذي رد بدوره بصورة موقعة

مع توقيع: «إلى أ. ب. تشيخوف من معجبه الشغوف ب. تشايكوفسكي، 14 تشرين الأول 1889».

- **تيخونوف، فلاديمير ألكسييفيتش (1857 - 1914).** كاتب مسرحي صغير، وتسلّم لفترة وجيزة منصب محرر مجلة «الشمال» (*Sever*). وكان تيخونوف مواليًا بشدة لتشيخوف، الذي استمتع بصحبته ومراسلته لعدد من السنوات.
- **إيغوروف، إيفغراف بيتروفيتش (لا تاريخ).** بعد أن أصبح إيغوروف صديقًا لعائلة تشيخوف في 1883 - 1884، وبينما كان يخدم الجيش في فوسكريسينسك، يبدو أنه وقع في حب ماريا تشيخوفا وخطبها. وبعد ترك الجيش في عام 1891، استقر في محافظة نيزني نوفغورود، حيث كان نقيبًا بريًّا محليًّا إنسانيًّا ومتنورًا أشرف على شؤون الفلاحين القضائية والإدارية. وقد بنى تشيخوف إحدى شخصياته على إيغوروف في قصة «الجديلة الخضراء» («Zelyonaya kosa») من تلك الفترة.
- **إيفرينوفا، آنا ميخائيلوفنا (1844 - 1919).** أول امرأة روسية تحصل على شهادة الدكتوراة في الحقوق. وقد تبوَّأت إيفرينوفا مكانة تأثير ثقافي كبيرة بوصفها ناشر صحيفة «نذير الشمال – نورثرن هيرالد»، التي نشر فيها تشيخوف كثيرًا جدًّا من قصصه.

- **زيركيفيتش، ألكساندر فلاديميروفيتش (1875 - 1927).** شاعر صغير، وكاتب (باسم مستعار: أ. نيفين)، وكاتب مقالات ذو مسيرة مهنية بارزة في الفقه القانوني العسكري. وهو مثقف كبير، وشغوف بجمع المخطوطات، واللوحات، وأدوات التعذيب العائدة إلى القرون الوسطى، وأعمال الفنانين والكتّاب البارزين، وقد كانت له مراسلات مطولة مع ليسكوف، وفيت، وسولوغوب، وتشيخوف، وكان يزور بين الحين والآخر مدينة ليو تولستوي «ياسنايا بوليانا». ومثل فلاديمير جيلياروفسكي؛ فهو يظهر في لوحة إيليا ريبين «رد القوزاق الزابوروجيين» (1880 – 1891).

مكتبة
t.me/soramnqraa

خاتمة بييرو برونيلّو

ترجمتها إلى الإنجليزية: لينا لينتشيك

الحياة بالمختصر

كان القرن على أعتاب نهايته، وأطاع تشيخوف، الذي كان في سن التاسعة والثلاثين ولا يزال يتجنب بعناد الكتابة عن نفسه، على مضض طلب سيرة ذاتية مختصرة للنشر بأن خربش التالي:

أنا، أ. ب. تشيخوف، وُلِدت في 17 كانون الثاني 1860 بتاغانروغ. درست في البداية بالمدرسة اليونانية التابعة لكنيسة الإمبراطور قسطنطين، ثم في ثانوية تاغانروغ. في عام 1879، سجلت في كلية الطب التابعة لجامعة موسكو. وكانت فكرتي عن الجامعة حينذاك أقرب إلى أن تكون مشوشة، ولا أستطيع الآن أن أتذكر بالضبط ما جعلني أستقر على كلية الطب، ولكنني لم أندم في ما بعد على خياري هذا. بدأت النشر في مجلات أسبوعية وصحف يومية، ومع بدايات الثمانينيات، كانت هذه النشاطات الأدبية قد اتخذت سمة دائمة، مهنية. وفي عام 1888، مُنِحت جائزة بوشكين. وفي عام 1890، سافرت إلى جزيرة سخالين بنية أن أكتب في ما

بعد عن مستعمرتنا الخاصة بالمنفيين والأشغال الشاقة. من دون احتساب تقارير المحاكمات، والمراجعات، والمقالات، والتقارير الإخبارية، والأعمدة التي كتبتها للصحف اليومية والتي من الصعب تحديدها وجمعها، فقد كتبت أكثر من أربعة آلاف وثمانمئة صفحة من «النوفيلات» والقصص خلال الأعوام العشرين التي نشطت خلالها في الأدب. وقد كتبت أيضًا مسرحيات للعرض.

لا شك لديَّ أن عملي في الطب كان ذا أثر حقيقي على أعمالي الأدبية؛ فقد وسَّع أفق ملاحظاتي كثيرًا، وأغناني بالمعارف التي لا يمكن لقيمتها الحقيقية لي ككاتب أن يعرفها سوى طبيب آخر. وقد كان له أيضًا أثر توجيهي حاسم؛ فقد ساعدتني ألفتي بالطب على تجنُّب كثير من الأخطاء. وأبقتني معرفتي بالعلوم الطبيعية والمنهج العلمي في يقظة دائمة، فعمدت - كلما أتيح لي - أن آخذ الحقائق العلمية بالحسبان، وعندما لا يكون ذلك ممكنًا، كنت أُفضِّل ألا أكتب من الأصل. قد أذكر، بالمناسبة، أن شروط الفن الإبداعي قد لا تسمح دائمًا بالتوافق الكامل مع الحقائق العلمية؛ فقد لا يُتاح مثلًا تمثيل الموت بالسم على المسرح كما يحدث في الحياة الحقيقية. ومع ذلك، يجب أن يكون شيء من التوافق مع البيانات العلمية محسوسًا حتى ولو ضمن حدود الأعراف الفنية، بمعنى آخر: يجب أن يكون القارئ أو المتفرج قادرًا على الشعور بوضوح بأن الأعراف هي التي تتحدث، وأن المؤلف على دراية بما يحدث.

لا أعد نفسي من بين أولئك الكتاب الذين لديهم آراء سلبية تجاه الطب، ولا أتمنى أن أكون ممن يريدون أن يعرفوا كل شيء بأنفسهم.

أما في ما يخص ممارستي للطب فقد عملت كطالب في مشفى فوكريسينسك زيمستفو (قرب دير أورشليم الجديدة) تحت إشراف دكتور زيمتسفو البارز د. بافل أ. أرخانغيلسكي، وقمت بجولة قصيرة كطبيب في مشفى تسفينيغورود. وخلال سنتي وباء الكوليرا (1892 و1893)، كنت مسؤولًا عن منطقة مليخوفو من مقاطعة سيربوخوف.[1]

إن الطريقة التي يُوفِّق بها تشيخوف بين المهنتين -الكتابة والطب- أمر معتاد لديه؛ فهو يُقسِّم طاقته بينهما. وأيضًا من عادته صمته عن موضوع مرضه؛ فقد أُصيب في سن الخامسة عشرة بنوبة حادة من التهاب الصِّفاق، أدت إلى استمرار معاناته من مشكلات مزمنة في الجهاز الهضمي. وقد ظهرت الأعراض الأولى لمرض السل بعد تسع سنوات، وتمكن من تجاهلها حتى سن السابعة والثلاثين، عندما لم يعد من الممكن أن يستمر في ذلك. وقد أتت نقطة التحول في إحدى الأمسيات بمطعم فاخر في موسكو عندما بدأ الدم فجأة «ودون سابق إنذار، بالنزيف من فمه» وهو يتناول العشاء مع سوفورين ناشره ومحرره وصديقه. وقد أعاد ريموند كارفر تصوير المشهد في قصة خصَّ بها الكاتب: «أنهضه سوفورين ونادلان إلى دورات المياه الخاصة بالرجال، وحاولوا أن يوقفوا تدفُّق الدم باستخدام أكياس الثلج. وسارعوا به إلى عيادة». عندما

(1) أنطون تشيخوف إلى غريغوري روسُّوليمو، 11 تشرين الأول 1899، في Anton Chekhov, *Epistolario*, ed. Gigliola Venturi and Clara Croïsson, vol. 1 (Turin: Einaudi, 1960).

زاره سوفورين هناك، اعتذر تشيخوف عن «الفضيحة» في المطعم قبل ثلاث ليالٍ، ولكنه ظل يصر أن لم يُصِبه شيء خطير. وقد دوَّن سوفورين في مذكراته: «كان يضحك ويمازح كالمعتاد، وهو يبصق الدم في وعاء كبير»[1].

كان تعافيه مؤقتًا، تبعته «شفاءات» أطول فأطول على شاطئ الريفييرا الفرنسي، وشبه جزيرة القرم، وأخيرًا في مصحة بادنفايلر في الغابة السوداء. وكانت معه الممثلة أولغا كنيبر، التي كان قد تزوجها قبل ثلاث سنوات. وطلب منها في إحدى الليالي أن تُحضِر طبيبًا. ولم يكن قد سبق له أن فعل ذلك. فاستجابت أولغا له مباشرة وطلبت ثلجًا، وبدأت، بمساعدة طالب روسي كان يبيت في الفندق، في تكسيره ونثره على الأرض.

كتبت أولغا في مذكراتها: «وصل الدكتور شفورتر، وبدأ يتحدث بلباقة، حاضنًا أنطون بافلوفيتش بين يديه كالطفل في مهده. جلس تشيخوف وقال بصوت عالٍ قوي للدكتور: «Ich sterbe»[2]. فحاول الطبيب تهدئة روعه، وأعطاه حقنة كافور، وطلب له قارورة شامبانيا. أمسك بافلوفيتش الكأس المليئة، وتفحصها عن قرب، وابتسم في وجهي وقال: «مر وقت طويل منذ تناولت الشامبانيا». فشربها كلها حتى آخر قطرة، وتمدَّد بصمت على جنبه الأيسر. كنت بالكاد قد سارعت إليه وانثنيت عليه في السرير، وبدأت أناديه، ولكن

(1) Raymond Carver, "Errand," in *Where I'm Calling From: Selected Stories* (New York: Vintage Books, 1988), pp. 512–13.

(2) «أنا أموت» بالألمانية. [ل. ل.]

تنفُّسه كان قد توقف؛ غرق في النوم، كالأطفال... وعندما غادر ذاك الذي كان أنطون بافلوفيتش، دخل عثُّ ليلي رمادي ضخم من النافذة، وظل يتخبط بألم بالجدران، والسقف، والمصابيح، كما لو كان في سكرات موته»[1].

تُوفِّي تشيخوف في 2 تموز 1904. وبلغ عمره 44 عامًا.

مشروع سخالين

في عام 1890، انطلق تشيخوف في رحلة إلى سخالين، وهي جزيرة قصية في بحر أوخوتسك أكثر من استوطنها المحكومون والمنفيون السياسيون. أبدى أصدقاء تشيخوف وعائلته ذعرهم من قراره بالشروع في مثل هذه المغامرة الشاقة، وخصوصًا لأن أعراض الاستهلاك المتسارع، الذي أودى بحياة أخيه نيكولاي قبل عام في سن الثلاثين، نفسها قد بدأت تظهر عليه. فماذا تراه قد انتاب أنطون حتى يندفع للقيام بمثل هذه الرحلة؟

قدَّم تشيخوف عدة أسباب: أراد جمع معلومات عن الترحيل[2]، وأراد أن يكسر الروتين[3]، وأراد أن يكتب أطروحة دكتوراة في

---

(1) عبارات أولغا مأخوذة من *Dear Writer... Dear Actress: The Love Letters of Olga Knipper and Anton Chekhov*, sel., trans., and ed. Jean Benedetti (London: Methuen Drama, 1998), p. 284.

(2) أنطون تشيخوف إلى ك. س. فيليوف، 2 شباط 1890، في: Anton Chekhov, *A Journey to Sakhalin* (Cambridge: Ian Faulkner Publishing, 1993), p. 366.

(3) أنطون تشيخوف إلى إيفان ليونتييف (شخيغلوف)، 22 آذار 1890.

الطب[1]. كان يحلم بالتنقل في الأنهار بواسطة زورق بخاري، وأن يعبر السهوب في عربات تجرُّها الخيول[2]. وقد أراد محاكاة اثنين من أبطاله المفضلين: الرحالة الروسي نيكولاي برزيفالسكي، الذي غامر بدخول آسيا الوسطى وأراد أن يُدفَن في الصحراء؛ والصحفي الأمريكي هنري ستانلي، الذي تتبع المبشر المستكشف ديفيد ليفينغستون إلى أعماق إفريقيا. وقد ألهمه هذان الرجلان لأنهما فعلا شيئًا مهمًّا في حياتيهما[3]. وفي رسالة إلى ناتاليا لينتفاريوفا ابنة العشرين ربيعًا، سألها ممازحًا إذا ما كانت ستحافظ على ذكراه لو التهمته الدببة أو قتله المتشردون، وهما من المخاطر الكثيرة المرتبطة بالسفر إلى سيبيريا[4].

---

(1) أنطون تشيخوف إلى أليكسي سوفورين، 9 آذار 1890.

(2) أنطون تشيخوف إلى أليكسي سوفورين، 17 شباط 1890، في: تشيخوف، رحلة إلى سخالين، ص. 368. [پ. ب.]

(3) أنطون تشيخوف، «نيكولاي ميخائيلوفيتش برزيفالسكي»، نُشِرت تحت اسم مجهول في «نيو تايمز» في 26 تشرين الأول 1888، ونُسِبت إلى تشيخوف بناءً على رسالة منه إلى إ. لينترفاريوفا في 27 تشرين الأول 1888، في كتاب أنطون تشيخوف: Chekhov, *Opere varie* (Milan: Mursia, 1963), pp. 467–69. تتبع القراء من داخل روسيا وخارجها عن كثب مآثر المستكشف. وكتب عنه بيتر كروبوتكيم لصالح «نيو تايمز» مستفيدًا من تقارير نُشِرت في «نشرة الجمعية الروسية الجغرافية»؛ انظر Kropotkin, *Memorie di un rivoluzionario* (Milan: Feltrinelli, 1969), p. 281. [پ. ب.]

(4) أنطون تشيخوف إلى ناتاليا لينتفاريوفا، 5 آذار، 1890، في: أنطون تشيخوف، رحلة إلى سخالين، ص. 370. ولأجل الآراء الممثلة للمسؤولين والموظفين الروس عن سخالين، انظر: Howard B. Douglas, *Life with Trans-Siberian Savages* (London: Longmans, 1893), pp. 1–19. [پ. ب.]

ولكن يبدو أن دافعه الحقيقي نابع من الغضب الأخلاقي تجاه نظام العدالة البربري الذي «أرسل *الملايين* ليتعفنوا في السجون» و«قاد الناس في الأغلال، آلاف الأميال في البرد، وأصابهم بداء الزهري، وحوَّلهم إلى منحطين، [و]كاثر المجرمين»[1]. كان تشيخوف مؤمنًا بأن: «كل واحد منا» عليه أن يتحمل مسؤولية هذه الظروف المريعة، مهما كانت تبدو بعيدة أو قصية عن حياة الناس؛ فبالنسبة إليه، كانت الكتابة عن سخالين سبيلًا لمكافحة اللامبالاة. ومع أن عددًا من الكتب كان قد نُشِر عن سخالين، فإن أيًّا منها -حسب رأيه- لم يرتقِ عن كونه ترفًا بلاغيًّا. وقد كتب إلى سوفورين: «عمومًا: ثمة فقر مدقع في الحقائق بوطننا الحبيب، يقابله غنى فاحش في التبريرات الشديدة التنوع؛ فكلما قرأت مزيدًا من الكتب عن سخالين، اقتنعت أكثر أن هذا... مكان أشد معاناة لا تُطاق يمكن للإنسان أن يأتي به»[2].

وضع تشيخوف برنامج بحث، فبدأ بتدوين قصص الرحلات، وهو من أصنافه المفضلة في الأدب؛ فقد كان يحب القراءة عن رحلات تشارلز داروين العالمية. ومنذ الطفولة، كان مولعًا بعمل إيفان غونتشاروف «فرقاطة بالادا» (1858)، وهي سجل لرحلة الكاتب من سان بطرسبرغ عن طريق المحيطين الأطلسي والهندي إلى سيلان، واليابان، والساحل الشرقي لروسيا، ومن ثم برًّا عبر

(1) أنطون تشيخوف إلى أليكسي سوفورين. موسكو، 9 آذار 1890.

(2) أنطون تشيخوف إلى أليكسي سوفورين. موسكو، 23 شباط 1890.

سيبيريا. وقد دوَّن تشيخوف قائمة مراجع لكل ما أمكن أن يجده عن موضوع سخالين: يوميات المستكشفين، والمسارات الجغرافية، والتحقيقات في علم الحيوان، وعلم النبات، وجغرافيا الأعراق والشعوب (الإثنوغرافيا)، وعلم المعادن، والجيولوجيا، والأرصاد الجوية في الجزيرة. وقد جمع الكتب والمقالات والإحصاءات عن نظام العقوبات الروسي. وحصل من أليكسي سوفورين على خرائط وأطالس ومنشورات كانت بعيدة عن مناله أو وسائله. وقد دفع أخته ماشا وصديقة شابة إلى نسخ صحف من مكتبة موسكو، وأقنع أخاه بفعل الشيء نفسه في سان بطرسبرغ. وحصل من ممثلة اسمها كليوباترا كاراتيغينا، كانت قد قضت عدة سنوات في سيبيريا، على لائحة من جهات الاتصال ونصائح عملية، من بينها اقتراح ألا يسأل أحدًا عن سبب جلبه إلى سيبيريا. لم تكن رسائله تتحدث عن شيء سوى سخالين، وقد كرَّس وقته بالكامل للبحث. من باب المزاح، شخَّص نفسه مصابًا بجنون سخالين «مانيا سخالينوفا»[1].

نصحه الأصدقاء بتأمين خطابات تعريف رسمية ليقدمها لمسؤولي سخالين، ولكن تشيخوف رفض؛ إذ لم يرَ معنى ولا جدوى من التقديم للسلطات التي لديها مصلحة خاصة في حالة اللامبالاة القائمة تجاه محنة السجناء والمنفيين. ومع ذلك فقد حصل في عام 1890 على إذن لإجراء بحث أدبي وعلمي على الجزيرة من

(1) أنطون تشيخوف إلى أليكسي بليشكييف، 15 شباط 1890.

ميخائيل ن. غالكين-فراسكوي، رئيس إدارة السجون الوطنية[1]. وخوفًا مما قد يكشفه تشيخوف، أصدر غالكين-فراسكوي سرًّا توجيهات لسلطات الجزيرة لمنع الكاتب من الاتصال بالسجناء السياسيين، واشترط تقديم أي نتائج للموافقة عليها أولًا قبل نشرها في صحيفة سوفورين[2].

استغرق تشيخوف عشرة أسابيع ليقطع نحو 7500 ميل برًّا في عرض سيبيريا. وقد سافر بالقطارات، والبواخر، والرتيلاء («وهي نوع من العربات يشبه سلال الحصير») يجرُّها حصانان، مع تغيير السائق الخاص في كل محطة قرية. شعر تشيخوف، وهو يتعرج في السهوب ويجتاز الوحول، كما لو كانت معدته ستخرج من فمه؛ فقد

---

(1) أتى طلب تشيخوف في وقت حساس؛ فقد كان غالكين-فراسكوي آنذاك، في سعي منه لتحفيز المنفيين السياسيين الروسيين في الغرب على إصدار تقارير سلبية عن نظام العقوبات القيصري، ينظم المؤتمر الدولي الرابع عن الأشغال الشاقة في سان بطرسبرغ، وكان يشرف أيضًا على نشر مراجعة رسمية لنظام العقوبات القيصري تسعى إلى مناقضة التقارير السلبية. (المترجم)

(2) في سخالين، كان السجناء السياسيون يشكلون نحو 40% من المنفيين الذين تُقدَّر أعدادهم بنحو ألف، ولكن العلاج كان السبب الرئيسي لتعرُّض الحكومة القيصرية لهجوم النقاد، وخصوصًا في ذلك الوقت. وكما كتب الثوري ليو دويتش في مذكراته: «ستبقى سنة 1889 محفورة في ذكريات أولئك الذين كانوا حينها سجناء في سيبيريا إلى الأبد». وفي تلك السنة، وبعد إضراب طويل عن الطعام بين السجينات في كارا، تُوفِّيَت إحدى السجينات بعد جلدها، وانتحرت أخريات بتناول السم. وفي ياكوتسك، ضرب الحرس طالبات متظاهرات في مسيرات طويلة على الأقدام بلا توقُّف بالحراب، وأطلقوا النار عليهن، وشُنِقت ثلاث سجينات، وحُكِم على تسع عشرة سجينة بالأشغال الشاقة مدى الحياة. Leo G. Deutsch, *Sedici anni in Siberia: Memorie di un rivoluzionario russo* (Milan: Sonzogno, 1905), pp. 247–63, quotation from p. 250

كان مرهقًا في جميع أجزاء جسده، وبدا أن قدميه تتجمدان. ومع ذلك فقد نجح في تدوين انطباعاته بدقة بقلم الرصاص، وأرسلها إلى محرره وعائلته. تمتلئ الرسائل، التي كتبها على الطريق، بأوصاف مفصلة للمناظر الطبيعية، والناس، ومشاق السفر، والطرف الذكية. أخيرًا، في 5 تموز 1890، وصل تشيخوف إلى نيكولايفسك[1].

وفي الجزيرة نفسها، كان ينتقل بالقطار والعربة والمقصورة والزورق البخاري. كان العمل الميداني مرهقًا. وقد كتب في ذلك: «ذهبت إلى كل من المستوطنات، وتوقفت عند كل كوخ، وتحدثت مع كل شخص. وبهدف إجراء المسح السكاني، استخدمت نظام

(1) هذا التلخيص لرحلة تشيخوف مبني على مختارات من الرسائل المنشورة بالإيطالية في: Anton Chekhov, *Epistolario*, ed. Gigliola Venturi and Clara Croïsson, vol. 1 (Turin: Einaudi, 1960). وأخذت منها الاقتباسات، ويمكن إيجاد المجموعة الكاملة من الرسائل في: *Letters of Anton Chekhov to His Family and Friends: With Biographical Sketch*, ed. Constance Garnett (New York: Macmillan, 1920), now available at: http://www.gutenberg.net/etext/6408. بالإضافة إلى ذلك، استخدمت مواد تقديمية من طبعات مختلفة من «جزيرة سخالين»، وبالتحديد من تحرير روبرت باين في: Anton Chekhov, *The Island: A Journey to Sakhalin*, trans. Luba and Michael Terpak (New York: Washington Square, 1967); Irina Ratushinskaya (London: Folio Society, 1989); Brian Reeve, *A Journey to Sakhalin* (Cambridge: Ian Faulkner Publishing, 1993); Sophie Lazarus (Grenoble: Éditions Cent Pages, 1995); Roger Grenier (Paris: Gallimard, 2001); and Juras T. Ryfa, "The History of the Journey," in *The Problem of Genre* (Lewiston, Maine: Edwin Mellen, 1999), pp. 26–54. لأوصاف الرحلات في سيبريا وعلى التارانتاس، انظر: Luchino Dal Verme, *Giappone e Siberia: Note di viaggio* (Milan, 1882), pp. 402–3,411–12.

بطاقات ملفات وجمعت بالفعل سجلات نحو عشرة آلاف محكوم ومستوطن. بكلمات أخرى: لم يكن ثمة محكوم واحد ولا مستوطن على سخالين لم يتحدث معي». وقد «زار كل مشاهير» الجزيرة[1]. وقد رفض عروضًا للمساعدة، مفضلًا أن يُجري المسح السكاني الخاص به وحده. لم يكن مهتمًّا بالجزء العددي من المسح، بل بلقاء الناس وما شاهده وشعر به في نفسه في سياق بحثه هذا.

زار تشيخوف البيوت والمطابخ والسجون والورشات والمراحيض والعيادات والمشافي والقرى والثكنات والكنائس والمزارع والمقابر والمدارس والمناجم. وقد استفسر عن حالة الزراعة وصيد الأسماك، ودرس المناخ والتربة والمياه وحالة الغابات، وفحص سجلات الشرطة وتقاريرها، وقابل نزلاء وجنودًا ومسؤولين وإداريين وحراسًا ومنفيين وقساوسة، وأدلى بملاحظات إثنوغرافية عن الغيلياك والأينو، وخلص إلى أن محاولات «الترويس» كان لها تأثير سلبي على حياتهم ومعنوياتهم. وعاين الحالة الطبية للأطفال، واكتشف أن النساء في العلاج لم يكن أفضل حالًا من الحيوانات، وعلم أن الفتيات الصغيرات كن يُجبَرن على الدعارة. وشجب الحالة الطبية الخاصة التي يعاني منها سكان الجزيرة، والتي أسماها «حمى سخالين – *فيبريس ساخالينيسس*»، وعزاها إلى نظام العمل الوحشي، وقسوة المناخ، والقلة المروعة للحصص الغذائية، والضغط النفسي، والإيذاء الجسدي والنفسي.

---

(1) أنطون تشيخوف إلى أليكسي سوفورين. باخرة بايكال. مضيق التتار. 11 أيلول 1890.

بحلول الوقت الذي كان مستعدًا فيه للمغادرة، كان تشيخوف قد جمع 7500 بطاقة فهرسة، ومجموعة متنوعة من الهدايا التذكارية التي قدمها له المدانون، ودفتر ملاحظات، وأوامر «كوماندان» الجزيرة في ذلك اليوم، وحزمة من الالتماسات والرسائل الشخصية. وقد أجبره تفشي وباء الكوليرا على العودة عن طريق بحر اليابان والمحيط الهندي وسيلان وقناة السويس. ما إن عاد إلى منزله حتى شعر كأنه صندوق مليء بالوثائق، وشرع يصوغ تقريره. ولكن الكتابة كانت صعبة وبقيت على فترات متقطعة. وكانت إحدى المشكلات أن يجتاز العمل الرقابة. وتمثلت مشكلة أخرى في الحصول على موافقة ميخائيل غالكين-فراسكوي، المدير العام لجميع السجون والمؤسسات العقابية في الإمبراطورية الروسية.

اقتطع تشيخوف جزءًا عن حوادث الهرب من سخالين، كان من المخطط أن يكون أحد الفصول الأخيرة، ونشره وحده في كانون الأول 1891 في منشور لصالح ضحايا المجاعة. ثم توقفت الكتابة. في صيف عام 1892، كتب تشيخوف إلى سوفورين أنه لن يتمكن من الكتابة ما دام «غالكين-فراسكوي يحكم السجون»[1]. ولكن في الحقيقة، لما يكن بعد قد اكتشف اللحن الصحيح الذي يمكنه العزف عليه؛ فبالنسبة إلى أذنه، كان لكل ما كتبه وقع زائف. في النهاية، أدرك المشكلة، فكتب إلى سوفورين: «تنبع صفة عدم الصدق من الإحساس بأنني كنت أحاول استخلاص عبرة من سخالين

(1) أنطون تشيخوف إلى أليكسي سوفورين، 16 آب 1892.

حتى عندما كنت أخفي شيئًا وأكبح نفسي عن قول ما أريد. ولكن ما إن أدركت مدى شعوري بأنني غريب الأطوار في سخالين وأي نوع من الخنازير كان موجودًا على تلك الجزيرة، حتى شعرت بالارتياح وأقلعت في الكتابة، مع أنها صارت تمتاز بلمسة من الطرافة»[1].

وقد كانت النسخة النهائية من النص، التي ظهرت بعد ثلاث سنوات من الرحلة إلى سخالين، على عكس خوف تشيخوف من الرقابة؛ فليس فيها أي كلام متحيز ولو من بعيد ولا أي شيء يوحي بأنه يصدر أحكامًا، بل قصر تشيخوف نفسه بدقة على الحقائق الموضوعية. وحيثما أمكن، استبدل بضمير المتكلم تعبيرات غير شخصية؛ فكلمة «أعتقد» تصير عنده «قد يقول المرء». ولم يظهر اسم تشيخوف في النص أبدًا، كما أنه لم يُشِر إلى نفسه بصفته طبيبًا إلا في الفصل الأخير الذي يصف فيه العملية الجراحية التي قام بها. بدلًا من ذلك، فإن الراوي غير الشخصي يمثل «تشيخوف الرحالة» الذي تعطي شخصيته انطباعًا بأنه مستعد لتصديق كل ما يسمعه، ويذهب في نزعات، ويحارب الملل بصيد الأسماك، فتنمحي شخصية المؤلف، ويظهر هنا تحت قناع أي رجل عادي يراقب بصدق ودون تحيُّز ويقول ما يراه، فلا يعود مرشدًا كلِّيَّ المعرفة ولا سائحًا فضوليًّا، ولا -وهو أبعد ما يكون- نبيًّا[2].

---

(1) أنطون تشيخوف إلى أليكسي سوفورين، مليخوفو، 28 تموز 1893.

(2) Brian Reeve, "Introduction," pp. 27–28; Ryfa, *The Problem of Genre*, pp. 91–96, 152–53.

ساعد مشروع سخالين تشيخوف على فهم السبب الذي يدعوه إلى الكتابة ودفعه إلى التأمل في أهداف كتابته، فتعلم أن «الحياة مسيرة نحو السجن. وعلى الأدب أن يخلص إما في تعليم المرء كيف يهرب أو في وعده بالحرية»[1]. وأصبحت لديه أيضًا نظرات أعمق تجاه نوعية الحياة الخاصة بوطنه الأم؛ «الحياة في روسيا تسحق الروسي حتى لا يبقى منه شيء، ولا حتى بقعة رطبة؛ فهي تسحقه كصخرة وزنها 22 طنًا»[2]. اعترف الآن أنه كان يشعر أنه غريب في بلده وعلى أرضه، وفهم أن الكتابة مثَّلت فعلًا حرًّا في بلد «ليس فيها حرية صحافة ولا حرية ضمير... حيث الحياة شديدة الضيق والشناعة، ويكاد الأمل في حياة أفضل ينعدم»[3]. ومع ذلك فهو لم يرغب في أن يعظ، بل أراد أن يكون «مجرد مؤرخ... [لـ] الحقيقة الصادقة وغير المشروطة»[4].

لم ينتم تشيخوف قط إلى أي حركة سياسية؛ فهو لم يكن من ذلك النوعَ، وفقًا لفلاديمير نابوكوف؛ لأنه «كان يؤمن أن أول ما نحتاج إليه هو العدالة، وأنه قد رفع صوته طيلة حياته أمام كل أشكال الظلم، ولكنه فعل ذلك ككاتب. كان تشيخوف مؤمنًا بالفرد

(1) Anton Chekhov, *Zapisnye knizhki* (Moscow: Gosudarstvennoe izdatel'stvo khudozhestvennoj literatury, 1950), p. 206.

(2) أنطون تشيخوف إلى دميتري غريغوروفيتش، موسكو، 5 شباط 1888.

(3) أنطون تشيخوف إلى أليكسي سوفورين، موسكو، 24 نيسان 1899.

(4) أنطون تشيخوف إلى ماريا كيسليوفا، موسكو، 14 كانون الثاني 1887.

وفنانًا في المقام الأول»[1]. وتساعد ملاحظة نابوكوف في تفسير كون نصائح تشيخوف عن الكتابة نصائح للحياة في الوقت نفسه. يصر تشيخوف على «رسم الحياة كما هي» وعدم «مخادعة المرء نفسه». الصدق والصراحة من الأساسات الصلبة للكتابة الحسنة؛ وذلك أنهما أساس السلوك الشخصي والحراك السياسي. لا يمكن لأي «مستقبل مشع» ولا «حب للمستقبل» أن يبرر الزيف، كما كتب تشيخوف في رسالة إلى محرره سوفورين[2].

يجسد رد تشيخوف على قضية دريفوس عام 1894 هذه النزاهة الأخلاقية؛ فقد وجد أن الأحداث في فرنسا قد اتخذت «منعطفًا قبيحًا نحو مستنقع معاداة السامية، وهو مستنقع تفوح منه رائحة المذابح». وقد أُعجِب بإميل زولا لأن هذا الطبيعي الفرنسي كان يستند في حكمه فقط «إلى ما يراه، وليس - كما يفعل آخرون- إلى الأشباح». ويعتقد تشيخوف أنه عندما يكون ما بداخلنا معتلًا فإننا «نبحث عن الأسباب خارج أنفسنا، وسرعان ما نجدها: الفرنسيون هم من تسببوا في الفوضى، أو اليهود، أو فيلهلم[3]... أو البعبع، أو الماسونيون، أو النقابيون، أو اليسوعيون، وقد لا يكونون سوى أشباح، ولكن ما أكثر ما يخففون الحمل عن ضمائرنا المضطربة!»

---

(1) Vladimir Nabokov, *Lectures on Russian Literature*, ed. and intro. Fredson Bowers (New York: Harcourt, 1981), p. 246.

(2) أنطون تشيخوف إلى أليكسي سوفورين. مليخوفو، 1 آب 1892.

(3) فيلهيلم «Wilhelm» آخر أباطرة ألمانيا. وكان ملك بروسيا حتى الإطاحة به عام 1918. (المترجم)

بالنسبة إلى تشيخوف، فحتى لو كان دريفوس مذنبًا وكان زولا مخطئًا، فإن إدانتهما ستظل أقل خطورة -لأنها نابعة من الصدق- من الأفعال المدفوعة «بتعمد النفاق أو التحيز أو الاعتبارات السياسية»[1].

لم يكن تشيخوف يؤمن بالسلطة الأخلاقية للمثقفين، ولا الأحزاب السياسية، ولا الصحافة، ولا النخبة المثقفة ككل. كان لديه إيمان بالأفراد. «أرى الخلاص في الأفراد المنتشرين هنا وهناك، في كل روسيا، سواء كانوا مثقفين أو فلاحين فذلك لا يشكل فرقًا؛ لأن القوة الحقيقية في أنفسهم، مهما كانوا قلة. لا أحد نبي في أرضه، والأفراد، الذين أتحدث عنهم، يلعبون دورًا غير محسوس في مجتمعهم؛ فهم ليسوا مهيمنين، ولكن نتائج عملهم ظاهرة»[2].

إن الشخص الذي يعجب تشيخوف هو ذلك الذي يمارس الحرية، أيًا كان الثمن. وعندما بدأ أخو تشيخوف، ألكساندر، في النشر، أسدى إليه أخوه المؤلف النصيحة التالية: «بقولك «لا يعجبني هذا!» تكون قد أكدت بالفعل استقلالك وحتى فائدتك»[3]. ولم يرَ حاجة إلى «التضافر الخاص، والمهني، وفي الأندية» للمثقفين. وكان مولعًا بدل ذلك بالمفكر الحر، غير المتحزب لأحلاف. في

(1) أنطون تشيخوف إلى أليكسي سوفورين، نيس، 6 شباط 1898.

(2) أنطون تشيخوف إلى إيفان أورلوف، يالطا، 22 شباط 1899.

(3) أنطون تشيخوف إلى ألكساندر تشيخوف، موسكو، 7 أيلول 1887.

جملة عُدَّت منذ ذاك بيانًا لإيمانه العقدي، أعلن تشيخوف: «أنا أعُدُّ الألقاب والأنباز ظلمًا. قدس الأقداس لديَّ هو جسم الإنسان، وصحته، وفكره، وإلهامه، وحبه، والحرية المطلقة إلى أبعد حد: الحرية من العنف والزيف، بكل الأشكال التي قد يتخذها الأخيران. وهذا البرنامج الذي كنت لألتزم به لو كنت فنانًا عظيمًا»[1].

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) أنطون تشيخوف إلى أليكسي بليشكييف. موسكو. 4 تشرين الأول 1888.

Contents

توطئة	13
مقدمة بييرو برونيلُّو	15
مقدمة لينا لينتشيك	23
الباب الأول: النظرية بلا حبكة، ولا خاتمة	45
الفصل الأول: أسئلة عامة	47
لماذا الكتابة؟	49
لمن علينا الكتابة؟	54
ماذا نكتب، وكيف نكتب	59
متى وكم نكتب؟	68
الفصل الثاني: أسئلة محددة	73
الحقيقة	75
الوصف	83
الشخصيات	91
العواطف	100
ما ينبغي تجنُّبه	103
صحبة الكتَّاب	108
الباب الثاني: العرض - حذاء جيد ودفتر ملاحظات	119

الفصل الثالث: المشروع 121
الفصل الرابع: التقرير 133
المستلزمات 135
سافر 139
راقب 163
اجمع الحقائق 176
الفصل الخامس: الكتابة الفعلية 197
التغلب على صعوبات البدايات 199
أعطِ الكتاب شكلًا 200
أن تكون موضوعيًّا 204
أن تكون صادقًا 219
أدخل نفسك في المشهد 224
كتابة النصائح 235
أشياء أخيرة 246
شكر وتقدير 249
فهرس الأعلام الواردين في مراسلات تشيخوف 250
خاتمة بييرو برونيلُّو 263

كيف تكتب على طريقة تشيخوف!

«يخبرني ضميري أن مسيرتي في مهنة الأدب لم تبدأ بعد حتى. تضج في رأسي حبكات خمس روايات قصيرة وروايتين طويلتين، وُلِدت إحدى الروايتين منذ زمن بعيد إلى درجة أن عدة شخصيات قد كبرت في السن ولم تعد تنتمي إلى العصر حتى قبل أن تُتاح لها فرصة اتخاذ شكلها على الورق. في رأسي، جيش كامل من الناس يتوسلون للخروج ولا ينتظرون سوى إشارتي. كل ما كتبته حتى هذه اللحظة هراء بالمقارنة مع ما كنت أود كتابته.

لا أحب حقيقة أنني ناجح؛ فالحبكات، التي لا تزال في رأسي، تتبرم بضيق وحسد من تلك التي كتبتها قبلها. يزعجني الاعتقاد بأن كل الترهات قد كُتِبت بالفعل، بينما لا تزال المواد الجيدة جاثمة في المستودع كالمخزون غير المباع».

مكتبة
t.me/soramnqraa

منشورات حياة